مدن الملح

التيه

* في الرواية نفس ملحمي لا أعرف مثله في أي روائي. إنه يذكرني بالروايات الكبرى التي كتبت في الغرب في النصف الأول من هذا القرن.

جبرا ابراهيم جبرا

* مدن الملح وثيقة اجتماعية تاريخية ترصد فترة من أخطر الفترات في التاريخ العربي المعاصر.

فيصل دراج

* يدهشنا منيف بمقدرته على صياغة رقعة النسيج الواسعة بتفاصيلها الدقيقة، وفي تعدد مظاهرها، بحيث تراها العين - الذاكرة مشتعلة في زمن واحد.

يمنى العيد

* إن فكرة منع تداول مدن الملح في (...) فكرة غريبة إلى درجة تثير السخرية شأن منع تدخين النرجيلة في مينابوليس.

جون ابدايك - نيو يوركر

* لو طلب إلي أن اختار خمسة أفضل كتب صدرت (بالإنكليزية) في عام ١٩٨٨ لاخترت مدن الملح واحداً منها.

ميشيل ابشيرسن - روائي أميركي

المؤسسة العربية للدراسات والنشر
بيروت، ساقية الجنزير، بناية برج الكارلتون، ص.ب: ٥٤٦٠-١١
العنوان البرقي: موكيالي، هـ ٨٠٧٩٠٠/١
تلكس: LE/DIRKAY ٤٠٠٦٧

الخطوط: قنوع
صمم الغلاف: نذير نبعة

المؤسسة
العربية
للدراسات
والنشر

BH

عبد الرحمن مُنيف

مدن الملح

التّيه

عبد الرحمن مُنيف

رواية

مدن الملح

التيه

طبعة جديدة منقحة

المؤسسة العربية للدراسات والنشر

الى الاصدقاء في منتدى ليلاس..

بدر

الى

علي منيف ..

الذي رحل قبل الأوان

انه وادي العيون . . .

فجأة ، وسط الصحراء القاسية العنيدة ، تنبثق هذه البقعة الخضراء ، وكأنها انفجرت من باطن الأرض أو سقطت من السماء ، فهي تختلف عن كل ما حولها ، أو بالأحرى ليس بينها وبين ما حولها أية صلة ، حتى ليحار الانسان ويبهر ، فيندفع الى التساؤل ثم العجب « كيف انفجرت المياه والخضرة في مكان مثل هذا ؟ » لكن هذا العجب يزول تدريجياً ليحل مكانه نوع من الاكبار الغامض ثم التأمل . إنها حالة من الحالات القليلة التي تعبّر فيها الطبيعة عن عبقريتها وجموحها ، وتبقى هكذا عصيّة على أي تفسير .

وادي العيون قد يبدو بنظر الذين يسكنون فيه مألوفاً ، وبعض الأحيان لا يثير تساؤلات كبيرة ، لأن هؤلاء تعودوا ان يروا أشجار النخيل تملأ الوادي ، وتعودوا ان يروا الينابيع تتفجر في أمكنة عديدة خلال فصل الشتاء ثم بداية الربيع ، الا أنهم . رغم العادة ، يحسون ان قدرة مباركة هي التي ترعاهم وتيسر لهم الحياة . أما إذا جاءت القوافل ، وقد جللتها أكوام الغبار وهدها التعب والعطش ، وأخذت تجدّ في السير ، خاصة في المرحلة الأخيرة ، لتصل الى وادي العيون بأسرع وقت ، فكانت

القافلة كلها تمتلىء نشوة اقرب الى الرعونة ، لكنها لا تلبث أن تسيطر على اندفاعها حين ترى الماء ، متذرعة بحجة ان الذي خلق الدنيا والبشر خلق في نفس الوقت وادي العيون في هذا المكان بالذات ، ليكون إنقاذاً من الموت في هذه الصحراء الغادرة الملعونة . فاذا استقرت القافلة ، وفكت أحمالها ، وارتوى الرجال والدواب، فإن نوعاً من الخدر اللذيذ، لا يلبث أن يتحول الى رضى عارم، يسيطر على كل شيء ، ولا يُعرف ما إذا كان ذلك يتولد من المناخ ام من عذوبة الماء ، او ربما نتيجة الشعور بزوال الخطر ، لأنه لا يقتصر على البشر وحدهم ، اذ يتجاوزهم ليصيب الحيوانات ايضاً ، فتصبح اقل طاعة وأقل رغبة على الاستجابة للأحمال الثقيلة او على مواصلة السفر بعد ذلك .

وادي العيون بالنسبة للقوافل شيء خارق ، اعجوبة لا يصدقها من يراها لأول مرة ، ومن يراها لا ينساها بعد ذلك ، حتى ليتردد اسم الوادي في جميع مراحل الطريق ، في الذهاب والعودة : « كم بقي لنصل الى وادي العيون ؟ » « إذا وصلنا وادي العيون وأمرحنا هناك سوف نستريح اياماً قبل أن نواصل السفر » « أين أنت يا وادي العيون يا جنة الدنيا » .

هذا الإلحاح على ذكر وادي العيون يعني الكثير ، اذ إضافة الى الانقاذ الذي يشكّله للقوافل والمسافرين ، فانه في هذا الموقع بالذات ، يمكّن رجال القوافل من التأكد من اشياء كثيرة : متى مرت القوافل الأخرى والى أين ذهبت . ماذا تحمل هذه القوافل وكم تحمل .... هذا زيادة على معرفة الأسعار وأصحاب الأحمال وغير ذلك من المعلومات ، وعلى ضوئها يقرر رجال القافلة ان كان عليهم أن يبيعوا في هذا المكان أو ذاك ، ان يسرعوا في السفر او يؤخروه اياماً ، ثم ما يجب تداركه في الطريق من أعمال ومواد ... أو معاودة السؤال .

لو ترك لمتعب الهذال ان يتحدث عن وادي العيون لقال كلاماً لا يصدقه أحد ، لأنه لا يقتصر على طيب الهواء وعذوبة الماء الذي لا يتوقف يوماً واحداً في السنة ، ولا عن روعة الليل ، انه يضيف أشياء أخرى كثيرة خارقة ، ويروي قصصاً يعود بعضها الى أيام نوح ، كما تؤكد العجائز ! بين متعب الهذال ووادي العيون علاقة خاصة ، عشق من نوع لا يتكرر كثيراً . أما الذين عاشوا خلال فترتين ، الفترة

التي كان فيها وادي العيون كما يراه متعب الهذال ، ثم الفترة التي تلت ذلك ، فسوف يتحدثون بطريقة مختلفة . سوف يقولون ان هذا الوادي ، بالنخيل الذي يملؤه ، بالمياه التي تروي الناس الذين يعيشون حوله ، والتي توقف المسافرين أياماً لكي يستريحوا ويتزودوا بما يحتاجون اليه ثم يواصلون رحيلهم بعد ذلك ، ربما الى أماكن افضل ... إن هذا الوادي في هذا المكان من الأرض لا غنى عنه ، ولو لم يكن موجوداً لما كان هناك بشر أو حياة ، ولما كانت هناك طريق ايضاً ، ولما جاءت اليه القبائل ، وما كان لمتعب الهذال وقبيلة العتوم ان يعيشوا في هذا المكان من الأرض .

يمتد الوادي مسافة ثلاثة أميال او تزيد قليلاً . وهذا الامتداد العريض في البداية ، لا يلبث ان يضيق شيئاً فشيئاً حتى يصبح في نهايته مجرد شريط رفيع تتناثر فيه أشجار قليلة من النخيل ، وهذه الأشجار تعيش على ما يتسرب اليها من بقايا الماء ، وربما من بقايا البشر والحيوانات ، ولذلك فهي في نهاية الوادي أقل نمواً وتتباعد بطريقة لافتة للنظر . فاذا وقف الانسان عند شجرة النخيل الأخيرة فان الأرض الرملية المملوحة تبدأ هناك ، وهذه الأرض الخاصة المتميزة هي جزء من الوادي وجزء من الصحراء ، لأنها ، بعد ذلك ، تنهض بسرعة لترتفع قليلاً قليلاً الى أن تصبح هي والصحراء التي تليها شيئاً واحداً . وحين تهب الرياح فإن الرمال تتراكم على هذا الجزء المنحني ، لكن شجيرات الأثل ثم السدر والشيح القصيرة المستدقة ، والتي تتكاثر عند نهاية الوادي ، تمنع تقدم الرمال وتجعل الأرض داكنة بعض الشيء ، وتجعلها اكثر تماسكاً ايضاً ، مما يساعدها على أن توقف حركة الرمال ، أو على الأقل تحد من حركتها وامتدادها .

بعد الوادي وحوله تقوم بعض الهضاب ، وهي هضاب رملية متحركة ، لكن اتجاه الرياح ثم طبيعة التربة تجعلها أكثر ثباتاً من غيرها ، وتجعلها مشرفة على مساحات واسعة من الأرض المحيطة بها ، ولذلك يستدل بها الناس ويطلقون عليها أسماء لتمييزها ، فمن جهة الشرق تقوم الظهرة ، أما من جهة الشمال فالوطفة وأم الأثل ، ومن ناحيتي الغرب والجنوب تقوم هضاب أقل اهمية ولا تعني الكثير بالنسبة للوادي أو للمسافرين ، ومع ذلك اطلقت عليها الأسماء ، لأن طبيعة الصحراء تجعل للأسماء اهمية تفوق غيرها ، وهذه لم تخلق نتيجة الرغبة أو في لحظة من لحظات

الجنون ، وإنما خلقتها الطبيعة ذاتها وأعطتها من الأسماء ما يوازي اهميتها أو الصفات التي تحملها .

الذين سافروا وعرفوا الأمكنة ، يعرفون ان البحر ليس بعيداً عن وادي العيون ، إنه على مسيرة سبعة أو ثمانية أيام . لكن طريق القوافل لا تصل البحر ، وان كانت تقترب منه أو تبتعد عنه تبعاً لوجود الماء والواحات . أما نهاية الصحراء ، من الناحية الثانية ، فلا أحد أبداً يقدّر نهايتها ، قد تكون بعيدة وقد لا تكون ، لكنها بنظر الجميع سر لا يعرف أحد الوصول الى حقيقته .

في سنوات الخير يظهر الخير ، اول ما يظهر ، في وادي العيون ، إذ إضافة الى غزارة المياه التي تملأ الأحواض الثلاثة المحيطة بالنبع ، فان مياه العيون تنحدر الى أماكن لم يكن متوقعا ان تصلها . وفي تلك السنين تزرع الخضرة ، وتظهر النباتات المختلفة ، خاصة التي تأتي مع الأمطار المبكرة ، ويتصرف الناس في الوادي بطريقة لا يصدقها المسافرون الذين تعودوا المرور على محطات كثيرة مشابهة ، اذ يسرف أهل الوادي في الإلحاح على المسافرين للبقاء فترة اطول ، ويظهرون تعففاً زائداً في ان يأخذوا مقابل ما يعطون ، وتصطنع المناسبات لكي تحمل الكثيرين يمسكون عن الرحيل ؛ وفي مثل هذه السنين يتبدى الكرم حتى يبلغ حدّ الاسراف فيستغرب المسافرون ويقولون إن أهل وادي العيون أقرب الى السفه والرعونة ، وانهم لا يفكرون في الغد ، ولا يتذكرون الأيام الصعبة التي مرت عليهم في السنين السابقة .

أما في سنوات الجفاف ، وهي أكثر السنوات ، فان أهل وادي العيون يتصرفون بطريقة مختلفة ، إذ يبدون اكثر حزناً ، وأقرب الى الانطواء ، ويتركون المسافرين يتصرفون بالطريقة التي تروق لهم ، دون الحاح منهم ودون إزعاج ايضاً . أما اذا عرضت عليهم بعض السلع مقابل ما يقدّمون من تمر وماء وخدمات أخرى ، فانهم يتقبلونها شاكرين ، وبأقل الكلمات . وإذا الحّ اهل الوادي بطلب شيء فانهم يلحون بأن توافق القافلة على أن تحمل معها بعض المسافرين الجدد ، وهؤلاء يكونون قد استعدوا منذ وقت طويل وانتظروا وقتاً أطول ، وبرحيلهم يشعر الوادي ببعض الراحة وببعض الأمل ، لأنه تخلص من أعباء كانت تثقله ، ولأنه، اكثر من ذلك، ينتظر آمالاً سوف تأتي ذات يوم مع الذين رحلوا ، ولا بد ان يعودوا . وما بين

الراحة والأمل ، وباستمرار الماء والقوافل يستمر الوادي عزيزاً قوياً ، لا يخاف ولا يتردد ، لأنه سيجد طريقته ، - ودائماً يكتشف هذه الطريقة - لمواجهة المصاعب والتغلب عليها .

بشر وادي العيون ، اذن ، مثل مياهه : اذا زادوا عن حد معين فلا بد ان يفيضوا ، ان يتدفقوا الى الخارج ،وهذه الزيادة، فالهجرة،لازمتهم منذ امد بعيد . فجأة يحسون انهم تكاثروا ، وأن الوادي لم يعد قادراً على احتمالهم ، ولا بد للشباب القادرين على السفر من اكتشاف اماكن جديدة ، ليشدوا الرحال اليها من أجل الاقامة والرزق . ان حالة مثل هذه تبدو خفية غامضة ، وقد لا تتعلق دائماً بالأمطار او المواسم ، كما هي الحال في أماكن اخرى ، اذ رغم المطر الذي قد يأتي في سنة من السنين ، ورغم المراعي التي تحيط بالوادي ، والمياه التي تفيض وتمتد الى مسافات لم تكن تصلها في أوقات أخرى ، فان هاجساً ملعوناً ينمو بخفاء وبطء في القلوب . وهذا الهاجس الذي يحسه الكبار ، لكن يتكتمون عليه ويقاومونه ، ينام وينهض في قلوب الشباب والأمهات ، فيأخذ شكلاً حاداً عصبياً عند الشباب ، وشكلاً حزيناً يائساً عند الأمهات . لكن رغبة اكتشاف العالم ، وحلم الغنى ، وذلك الحنين الى شيء ما ، يلح على الشباب الى درجة لا يستطيعون معه الصبر أو احتمال نصائح المسنين ، ولذلك يقررون وحدهم ، مهما كانت هذه القرارات قاسية .

لا يوجد واحد من الرجال في الوادي ، خاصة في سن معينة ، لم تستول عليه رغبة السفر ، وقلما يوجد واحد من المسنين لم يسافر الى مكان من الأمكنة . صحيح ان هذه الرغبات والسفرات تتفاوت من حيث المدة والنتائج ، اذ قد تستمر سنوات طويلة ، وقد تمتد فتشمل العمر كله ، وبعضها قد لا يدوم أكثر من شهور ، يعود بعدها المسافر خائباً أو ظافراً ، لكنه يعود ايضاً مملوءاً بالحنين في الحالتين ، ومثقلاً بالأفكار والذكريات وحلم السفر مرة أخرى . أما النتائج التي جناها المسافرون من أهل وادي العيون فلا يمكن أن تلخص بكلمات قليلة ، لأن لكل مسافر مقاييسه وتصوراته ، وأغلب الأحيان لا يتفق معه الآخرون في هذه المقاييس والتصورات، فالنجاح والفشل، الغنى والفقر، لا يعني مفهوماً واحداً بالنسبة للجميع . فقد صادف ، في حالات كثيرة ، ان عاد بعض المسافرين من أهل الوادي ، ورافق عودتهم الكثير الكثير من الأحاديث والأفكار والقصص ، ثم

الليالي الطويلة من الأحلام . لكن ظل هؤلاء المسافرون فقراء ، أو أقرب الى الفقر ، ومع ذلك لا يكفّون ، ولايكفّ غيرهم ، عن تذكر عشرات القصص حول الأعمال التي قاموا بها والمبالغ التي وصلت لأيديهم ، ثم كيف ذهبت ، وان الحياة لا تدوم لأحد .

هذه القصص وغيرها تتردد كثيراً في وادي العيون ، وهي تثير الخيال وتخلق تحريضا لا يمكن مقاومته ، والأبناء الذين يقدمون الوعود القاطعة أن سفراتهم لن تطول ، وأن عودتهم ستكون في الربيع أو الخريف ، يدركون أن المسنين لا يصدقونهم ، لكن شعوراً أقرب الى اليأس والتسليم يدفعهم الى الموافقة والتصديق . أما إذا جاء ذكر الموت ، وسقطت دمعة أم ، أو صدرت عن الأب كلمة من نوع معين ، وأحس الأبناء بقرب الأجل ، فإنهم يحسون أيضاً بروح شيطانية تسيطر عليهم وتجعلهم أكثر قسوة وأكثر استخفافاً ، لكنهم في اللحظة الأخيرة يهدأون ويتراجعون .

حديث وادي العيون والسفر له بداية بالنسبة لأي شخص ، لكن ليس له نهاية . وهذه الحالة يعرفها الكبار والصغار ، وتعودوا عليها وألفوها الى درجة لم تعد تثير احداً او تخلق أحزاناً لا يمكن مقاومتها . حتى الأمهات اللواتي يردن ان يبقى أولادهن في الوادي ، وان يستمروا فيه الى النهاية ، لأنهن يخفن الأمكنة الأخرى ، ولا يتصورن وجود أمكنة افضل ، لا بد أن يسلمن في فترة من الفترات ، لكنه تسليم العاجز اليائس ، مع أمل ان يعود هؤلاء في وقت من الأوقات ، لكن بعد أن يكونوا قد شبعوا من السفر !

• • • •

. . وتصرفات الناس أيضاً في وادي العيون خليط عجيب من الوداعة والجنون ، اذ بمقدار ما يبدون مسالمين ممتلئين رضا ، فيندفعون الى المساعدة بهمة كبيرة ، دون انتظار مقابل من أي نوع ، فانهم في أوقات اخرى أميل الى الكسل والأحلام ، حتى رجال القوافل الذين لا يقيمون في الوادي إلا فترات قصيرة ، عرفوا في الناس هذه الصفات ، واحتملوا كثيراً من التصرفات التي لا تبدو مقبولة في أماكن أخرى . كانوا يقولون «أهل الوادي أطفال كبار ، الكلمة تحييهم وتقتلهم ، وعلى الانسان أن يعرف كيف يتكلم معهم وكيف يعاملهم» . لذلك يجب أن يكون التصرف مع

أهل الوادي بطريقة خاصة ، وهذه الطريقة قد تعبر عن نفسها دون كلمات بعض الأحيان لأن الناس هنا ينظرون الى الآخرين ، ويرقبون الحركات والتصرفات بانتباه شديد . فاذا كوّنوا قناعة أو وصلوا الى رأي اصبحوا اسرى لهذه القناعة ولهذا الرأي ، وقلما غيّر احد من اهل الوادي نظرته او تصرف وفقاً لقناعة مغايرة ، وحتى لو اختلفوا فيما بينهم حول اشخاص معينين أو حول بعض المواقف ، كان ينبري من يقول : « لا تتعجلوا ! لقد رأينا آلاف البشر ، وعلمتنا الحياة الكثير ، فانتظروا» . ان كلمة من هذا النوع تضع حداً لمناقشات كثيرة ، لأن رهاناً ضمنياً يقوم في تلك اللحظة ، والأيام وحدها ستثبت من يكون مصيباً ومن هو المخطىء .

وكثيراً ما يؤكد المسافرون ويوصي بعضهم بعضاً أن يكون التعامل مع أهل الوادي بطريقة مختلفة عما تعودوا ، لأن خطأ بسيطاً او تصرفاً يتسم بالحماقة ينعكس على القافلة كلها ، ويؤثر على العلاقة لأمد طويل . فالذين كانوا يحرصون على أن يناموا الى جانب احمالهم وبضائعهم ، لا يتركونها ولا يسهون عنها لحظة واحدة ، ولا يثقون بالآخرين اذا أبدوا رغبتهم في حراستها ، ان هؤلاء يتخلون بثقة ورضا عن هذه المهمة اذا وصلوا الوادي ، لأنهم يعرفون مدى الأمانة والحرص اللذين يميزان الناس هنا . أما اذا جرت عمليات البيع والشراء ، فان أهل الوادي يفضلون أن تجري بسرعة ودون مساومات أو إكراه ، لأن المساومات اذا جرت ينظرون اليها باستغراب مشوب بعدم الثقة وعدم التصديق ، خاصة إذا التقى رجال قافلتين وبدأت تلك المفاوضات القاسية الطويلة والتي يتخللها الكثير من مظاهر عدم الرغبة في الشراء ، أو الاختلاف الكبير فيما يعرضه المشترون وما يطلبه البائعون ، حتى اذا انتهت تلك المفاوضات بشكل مفاجىء ، وبالأثمان والشروط التي حددها المشترون ووافق عليها البائعون ، بدت مظاهر الاستغراب ، وبعض الأحيان صرخات عدم التصديق أو الاستنكار ، لكن الضحكات التي تملأ وجوه الطرفين ، والتي تدل على الرضا ، تدفع بعض رجال الوادي لأن يقول :

ـ هؤلاء التجار شياطين في ثياب بشر ، لأنهم لا يعرفون الحلال ولا يخافون من الحرام .

فاذا تصدى من يقول ان التجارة تعتمد على المساومة وعلى المفاوضة ، ثم الرضا

في النهاية ، وان مال التجارة حلال مثل مطر السماء ، كان أهل الوادي ينظرون اليه بنوع من الشفقة الممزوجة بالسخرية ، ويقولون له أو في انفسهم « وكيف يتساوى من يعمل طوال العام لكي يكسب رزقه بمن يربح اكثر المال في لحظة ؟ » .

ما يميز اهل الوادي ويجعلهم نمطاً خاصاً من الناس يظهر أكثر ما يظهر في العتوم ، لأنهم في المكان الذي اختاروه سكناً لهم ، في الظهرة ، ثم العلاقة التي تربطهم بالعشيرة الكبيرة المنتشرة على مدى الصحراء ، كونّت لهم نظرة للحياة والعلاقات والسلوك قد تختلف عن الآخرين ، فهم ليسوا مضطرين لاستقبال القوافل لحظة وصولها ، لأن القوافل اول ما تتجه الى الماء والى الخان القريب ، والعتوم في أعلى الظهرة يرون ويعرفون لكنهم لا ينزلون الا بتروٍ وبعد وقت من وصول هذه القوافل . أما انهم جزء من العشيرة الكبيرة فيعطيهم قوة وشعوراً بالثقة ، لذلك ينظرون الى الأشياء والمال نظرة فيها ذلك الترفع ، وبعض الأحيان فيها الاستهتار ، لأنهم على ثقة ان الحياة مهما قست عليهم لا يمكن ان تطحنهم ، وهذا يدفعهم في حالات كثيرة الى نوع من السلوك فيه فظاظة وشيء من الخشونة ، لكنهم اذا وثقوا ، اذا أحبوا ، اعطوا كل شيء دون تردد ، ورضوا بأي شيء دون شعور بالمرارة .

والعتوم في وادي العيون اكثر الناس فقراً ، لكنهم أكثر الناس ترفعاً ، وربما كان هذا الترفع ناشئاً عن الفقر ذاته ، لأن أي واحد من العتوم لا يمكن ان يصبح غنياً حتى لو أراد ، اذ في ساعة من تلك الساعات التي لا يعرف احد متى تأتي يبدّد كل ما جمعه دون شعور بالأسف ودون ندم أيضاً ، ويبدأ من جديد ، لكن بهمّة لا تعرف التعب أو التوقف ، حتى اذا جمع شيئاً زائداً بدأ اللعبة ذاتها مرة أخرى !

والناس في وادي العيون ، أيضاً ، فقراء ، لكنهم يبدون الرضا عن الحياة التي يعيشونها ، وقد يسرفون بعض الأحيان الى درجة المبالغة . ومع ذلك فانهم في أوقات معينة يبدون السخط ، لأن التمر الجاف واللبن ، وهذا الخبز القاسي الذي يضطرون لاكله اياماً متوالية ، يجعلهم في حالة من العصبية نظراً للآلام التي تتولد في امعائهم ، ثم ذلك الجفاف الذي يصيب الوجوه والأطراف ، وما يعقبه من الضعف ، حتى إن الرجل إذا قام من مكانه أصابه الدوار وسقط . والأطفال الذين تظهر عليهم آثار ذلك من النحول والصفرة ، وبعض الأحيان من القيء والاسهال اللذين يتواليان في أيام الصيف بأوقات متقاربة . . هذه المظاهر حين

تتكرر وتزداد تولد المخاوف وتشعر الناس انهم بحاجة الى الأدام والى قليل من اللحم لكي تقوى أجسادهم على المقاومة . وفي مثل هذه الحالات ينتظر الوادي وصول قافلة ، لأن مجيء القافلة يعني تغييراً في طبيعة الحياة ، وإمكانية أكبر على ذبح عدد من رؤوس الغنم ، مقابل ما يحصل عليه أهل الوادي . فاذا تأخرت القوافل كثيراً ، فلا بد أن تصطنع مناسبة ما لكي يذبح جمل ويأكل الوادي كله . . وعند ذاك تتغير الحياة .

إذا تغيرت الحياة تتغير طبائع الناس وتصرفاتهم . يصبحون اكثر رغبة في الحديث ، وأكثر استعداداً للسهر ، وفي ليالي الصيف لا يكتفون بالجلوس حول دلال القهوة او تبادل الأحاديث . اذ تصيبهم حمى الغناء وبعض الأحيان الرقص ، وفي هذه الليالي تتفجر الأفكار والاحزان والذكريات ، وتطغى على الرجال الرغبة في المضاجعة ، وبعض الأحيان الرغبة في العراك ، كل ذلك يتم لأسباب غامضة ، وفي حالات أخرى دون أسباب ، اذ ما يكاد الجوع يفتك بالأمعاء ، وما تكاد اواني اللبن تدور حتى يصرخ احد الرجال :

ـ الشواء . . . نعم الشواء ما يجب ان يؤكل في هذه الليلة . . .

ولقد صدق مراراً انه خلال الليل ، بشكل سريع ومفاجيء ، وربما نتيجة رهانات قديمة ، يتم الاتفاق على أن يذبح جمل في الفجر . وحين يبدأ الاعداد لذلك تظهر البراعة والخفة ، وتظهر انواع لا حصر لها من المساعدة والتعاون ، اذ تهيّء جماعات الحطب وتهيّء غيرها القدور ، وثالثة تعد خبزاً جديداً ، أما الذين يبدون استعدادهم للذبح والسلخ والتقطيع فكثيرون ، وخلال فترة قصيرة يتحول الوادي الى خلية من النشاط والحركة . انها حركة من نوع خاص ، فيها القدرة على البقاء والتحدي و اصطناع الأسباب لمقاومة الفقر والأحزان .

نتيجة لهذه الحياة اكتسب الناس في وادي العيون صفات في الجسد . . . شديدة الظهور ، فهم أميل الى الطول ، مع اتساق في العظام أما الأطراف فمستقيمة ناحلة وكذلك الخصور والأكتاف حتى ليظن من ينظر اليهم وكأنهم مجموعة من الخيول التي طال تدريبها وإتعابها ، فضمرت اكثر مما ينبغي ، لكن ظلت قوية مفتولة وجميلة أيضاً . أما الوجوه فانها أميل الى الطول لكنها تفيض بالراحة لفرط تناسقها

وانسجامها ، حيث تظهر الشفاه الرقيقة ، مع الوجنات المنسكبة دون بروز او نتوءات من أي نوع ، عكس المناطق الأخرى ، والتي كثيراً ما تظهر عيوباً حادة في مكان من الوجه او الجسد .

ولأن الناس متشابهون في وادي العيون ، سواء بالملامح وطبيعة الحياة ، فانه لا يمكن التمييز بين واحد وآخر الا بحكم السن او رجاحة العقل ، او ربما بالقرابة مع العون الجد ، والذي يعتبر جد الوادي كله وأقوى شخصية فيه ، رغم انه قضى منذ سنين طويلة ، لكن القصص التي تروى عن شجاعته وكرمه ، ثم ذلك التفاني الذي ميّز كل حركاته وسكناته ، جعلته بنظر الجميع خارقاً ومهيمناً .

وإذا كان ابراهيم العون وقبيلة العتوم قد جاءوا من الصحراء البعيدة واستقروا في وادي العيون ، فان للطبيعة والأمكنة ايضاً قوانينها التي قد تبدو غير مفهومة .

وآل العون ، ومنهم جازي الهذال ، وقبله ابوه متعب ، انزرعوا في هذا المكان كأشجار النخيل . كان يتنازعهم حنين العودة من حيث أتوا ، وحنين السفر الى الأماكن الأخرى ، لكنهم كانوا يحسون أيضاً ان قضية غامضة مناطة بهم . وإذا كان الناس لا يزالون يتذكرون جازي الهذال قبل أربعين أو خمسين سنة ، وما فعله ضد الأتراك ، وكيف جعل حياتهم في وادي العيون جحيماً لا يطاق ، كيف كان يختفي فترة حتى يظن الكثيرون أنه قد قُتل او قد مات ، ولم يعد له أثر ويكاد ينساه الناس ، بمن فيهم الأتراك انفسهم ، حتى ينفجر مرة أخرى فيقتل ويدمر ويحرق ويأخذ ما يستطيع أخذه ويغيب في الصحراء فترة من الزمن يعتبرها كافية للنسيان ، فاذا عاد مرة ثانية حوّل الوادي الى جحيم .

لقد فعل جازي ذلك مرات عديدة ، حتى قبل ان يصبح الأتراك أعداء بنظر الناس ، واستمر كذلك الى ان تركوا . أما محاولات القيادة التركية ملاحقته والقبض عليه فقد انتهت بأن قتل قواد الحملتين اللتين سيرّتا عليه ، وحوّل الأفراد الى جزء من جماعة يغزو بهم ويقطع الطريق ، وقيل إنهم ظلوا معه الى النهاية .

هذه القضية التي سيطرت على آل الهذال وعذبتهم كانت تعرض لهم بأشكال وصور تتغير فترة بعد أخرى ، وربما هي السبب الذي دفعهم لاختيار هذا المكان

المتوسط ، محطة للذين يسافرون ويرجعون ، وليكونوا ايضاً شهوداً على فترة من الحياة والتاريخ لا تقع الا مرة واحدة ثم لا تتكرر ، وليقولوا بعد ذلك للناس ما رأوا من اعاجيب وغرائب !

في ذلك اليوم البعيد ، الذي يشبه آلاف الأيام قبله ، ولد لمتعب الهذال آخر اولاده الذكور . حدث ذلك أواخر الربيع ، عند العصر . كانت الحرارة قد اشتدت ذلك اليوم والأيام التي سبقته ، وثمار النخيل برعمت وتكورت ، وكان على متعب الهذال ان ينتهي بسرعة من وضع العصيّ تحت عثوق « أم الخشب » ويربطها بقوة ، لكي ينصرف إلى بيته في الظهرة ، وليعرف وليطمئن ماذاحصل ،كما يجب ان يبعُد القهوة مبكراً ، لكن لما رأى ابنه فواز راكضاً نحوه ، وقد امتلأ وجهه بالفرح ، فقد ادرك ان زوجته وضعت ، وأنه جاءه ولد ذكر ، فظل نصف معلق على النخلة ينتظر وصول فواز ويتوقع ان يسمع البشارة . تلفت حواليه اكثر من مرة ، بدا له وادي العيون تلك اللحظات اكثر خضرة . قال في نفسه : « امطار السنة كانت كثيرة » قال فواز وكان لا يزال بعيداً :

- يوبه . . يا يوبه . . البشارة

قال متعب الهذال لنفسه : اذا اقبلت . . اقبلت .

ولم يتردد ، مثلما حصل في المرات السابقة ، في تسمية الغلام ، وكأنه هيأ نفسه لذلك منذ وقت طويل ، فما كادت قدماه تلمسان الأرض ، وينظر بلمعان في عيني

الصبي ، وقد امتلأ وجهه بالفرح والغبار وحبات العرق ، حتى سأله بطريقة تقريرية صلبة :

- قلت ، يا وليدي ان « مقبل » جاء ؟

تطلع الصبي إلى ابيه بارتباك ، تصور للحظات ان اباه لم يفهم ما قاله له . قال وقد هدأت انفاسه :

- جانا اخ . . يوبه . . .

قال متعب الهذال وهو يضع يده الكبيرة على رأس الصغير :

- قلت لي جاء مقبل . . ها ؟

وضحك بصوت عال ثم اضاف :

- الله يبَشّرك بالخير . . يا وليدي .

وبعد ان فك حزامه وارخى ثوبه ونفض يديه سارا بهدوء متجهين الى البيت في الظهرة . سارا بصمت ، لكن توهجاً داخلياً اقرب الى الصخب كان يدفع متعب الهذال . بدت له الظهرة بعيدة اكثر من مرات سابقة ، وكاد ان يسرع ، وفكر ان يهرول ، لكنه تراجع ، قال في نفسه « لو كان الولد الأول ، او لو كان الوقت غير هذا الوقت ! » وضحك بصوت عال . التفت فواز حواليه اكثر من مرة ، ثم تطلع اليه . قال متعب الهذال :

- « شقرة مبارك » الصغيرة لمقبل .

وفي المساء اولم متعب الهذال وليمة كبيرة ، ذبح خروفاً ودعا الكثيرين . وفي الليل المتقدم ، بعد ان غادر الرجال ، جلس وحيداً في ضوء القمر . مرت أمام عينيه حياته كلها مثل شريط طويل . كان يرى ايامه ولياليه . تذكر نفسه حين كان صغيراً ، وتذكر اول اسفاره . أما حين تذكر وضحة لما جاءته بأول ولد فقد ابتسم . كانت خائفة ، وفي الليل المتأخر بكت فرحاً وهي تتطلع اليه . في هذه الليلة ، لما تطلع اليها كانت متعبة ، لم تضحك ولم تبك . ولا يعرف متعب الهذال لماذا اراد ان يحفر باظافره الأرض القاسية تحت البساط ، وكأنه يعلّمها ، يريد ان يترك فيها اثراً قوياً . أما حين دخل البيت في هذا الوقت المتأخر فقد كان مصمماً على أن يخرج العصملية وان يطلق بضع رصاصات . خطرت له الفكرة بسرعة ، مثل التماع البرق . انه

يفعل ذلك بعد مجيء كل ولد . المرة الأولى حين جاءه ثويني . ثويني كان ولده الأول ، الذي مات منذ وقت طويل . اخرج العصملية تلك الليلة أمام الرجال ، وفي جو من الفرح والانفعال اطلق مشطاً كاملاً . وقد شاركه الذين كانوا يحملون مسدساتهم . يتذكر ان ابن مبارك والحويزي وشعلان اطلقوا رصاصاً غزيراً ، ويتذكر ايضاً ان الحويزي اطلق كل ما يحمله من رصاص يوم جاء شعلان ، وكذلك حاول القحطاني ، الا ان مسدسه بعد الرصاصة الأولى استعصى. كان الرجال في كل المرات فرحين منفعلين . اكلوا وضحكوا واطلقوا رصاصاً غزيراً . هذه المرة لم يكونوا مثل المرات السابقة . كان الفرح في تلك الليالي باهراً كبيراً ، ومع ذلك فان ثويني مات صغيراً . هذه الليلة اكلوا وشربوا وفرحوا ، وقال القحطاني بفرح ان ايام الخير اقبلت بمقبل ، لكنهم لم يطلقوا ناراً ، حتى هو لم يفكر بذلك ، قال لنفسه بنوع من الحزن « كانت الأيام الماضية ايام خير .. احسن من هذه الأيام » .

تعمّد ان يحدث بعض الضجة ، لكي لا يخلق رعباً او مفاجأة ، وهو يستخرج العصملية . وقف الى جانب فراش وضحة ، وكانت اخته سارة تهدهد الطفل الصغير ، ويبدو انها فرغت لتوها من اعطائه لحسة العسل .

تطلعت اليه المرأتان . كانت وضحة متعبة ، نصف نائمة ، أما حين رأت العصملية فقد تحركت بتحفز ، وكأن شعوراً بالخوف او الفرح سرى في جسدها فغيّرها . تطلعت اليه بانتباه وهي ترتفع قليلاً . داخله شعور بالاعتزاز ، دق العصملية على الأرض ، وكأنه اعلان عن امر ما . سارة كانت تكلم الطفل الذي ظل يبكي . كانت كلماتها اقرب الى التوضيح « تفيدك يا وليدي ، تقوّيك ، وباكر تصير رجّال . الرجال لازم يصيروا رجال » أما حين سمعت دقة البندقية على الأرض فقد التفتت . تطلعت الى متعب بتساؤ ل ، ثم تطلعت الى وضحة . قال متعب :

ـ يا جماعة الخير . .

قال هذه الكلمات بطريقة بطيئة وكأنه يمهّد لحديث طويل . لما رأى المرأتين تنظران إليه ، تنظران الى البندقية بتساؤ ل ، تابع بلهجة مرحة :

ـ صحيح من قال : من خلف ما مات . . .

توقف لحظة ، ابتسم ، هزّ رأسه اكثر من مرة وخرج صوته حزيناً :

ـ الله يرحم والدينا ووالد والدينا .

وبهدوء شديد رفع البندقية . شد الترباس وأدخل طلقة في بيت النار ، ثم استدار وخرج .

كان الصمت ، وكان القمر . كان متعب الهذال في الفلاة الكبيرة وحيداً . تأمل السماء والنجوم واستنشق الهواء بقوة . شعر أنه يريد ان يفعل شيئاً غير عادي . قال بصوت أقرب الى الانفعال والحدة :

ـ دونك يا جوف الليل .

رفع البندقية باتجاه السماء ، باتجاه القمر واطلق . دوت الطلقة ، فخدشت الصمت ، وملأت رائحتها رئتي متعب الهذال . جر الترباس فخرجت الطلقة الفارغة بقوة وعبقت في انفه رائحة البارود أكثر من قبل . تذكر أياماً بعيدة . قال في نفسه « اللهم اجعلها أيام خير ، واجعلنا اقوى واكثر صبراً ! » ولما جر الترباس مرة اخرى ودخلت الطلقة الثانية بيت النار سمع حركة داخل البيت . قدّر انها ليست حركة وضحة او سارة . أما لما سمع الصوت فقد ادرك ان واحداً من اولاده قد استيقظ على صوت الطلقة . التفت قليلاً . لم ير احداً اول الأمر ، الى على البساط ، بعد لحظات جاءه شعلان . كان وجهه متسائلاً واقرب الى الخوف . قال متعب الهذال ، وهو يسند البندقية الى الأرض بوضع مائل :

ـ ها ، يا وليدي ، تراك خفت ؟!

ابتسم شعلان وتطلع الى ابيه بتساؤ ل ، لما رآه هادئاً مستقراً هزّ رأسه دلالة النفي . قال متعب الهذال وقد اشتعل وجهه بالفرح في ضوء القمر :

ـ لما جيت للدنيا شعلناها بارود للصبح . . .

هزّ الشاب رأسه وقد امتلأ بالاعتزاز . تابع متعب الهذال :

ـ واليوم ، يا وليدي ، جاءك أخ .

ضحك شعلان دلالة المعرفة والموافقة . اضاف متعب الهذال :

ـ ويلزم اخوك ان يشمّ ريحة البارود . . حتى اذا كبر ما يفزع

قالت سارة من الداخل ، وكأنها كانت تنصت للحديث :

ـ ولّم قهوتك يا ابو ثويني . . ترى رجال وادي العيون يصلونك ها لحين نوبة ثانية .

ـ القهوة حاضرة يا سارة . . ويا مرحبا بهم . . .

ـ اذا جاءوا تشتعل للصبح .

رد شعلان بانفعال :

ـ يوبه . . عطيني البندق

دفع متعب الهذال بندقيته الى ولده بزهو . كان يريد احداً يشاركه هذه اللعبة الغامضة والمثيرة . كان يفيض في تلك اللحظة بمشاعر حادة سريعة ، وبخفة أقرب الى الانفعال ، رفع شعلان البندقية ودوت الطلقة فملأت وادي العيون كله . كان صوتها ، هذه المرة ، قوياً مجلجلاً اكثر من الطلقة الأولى في اذني متعب الهذال ، أما رائحة البارود فقد عبقت وملأت الجو بلذة موحشة . لما خيم الصمت من جديد ، جاء صوت سارة من الداخل :

ـ الخير بالجايات ، والجايات اكثر من الرايحات . . يا ابو ثويني . .

قال متعب :

ـ وكّـلني الله يا سارة . . الزمان طويل !

وحين دوّت الطلقة الثالثة قال متعب الهذال لابنه :

ـ يكفي . . يا وليدي . . .

توقف لحظة ، ثم أضاف وهو يضحك بصوت عال :

ـ جماعتنا وحنا ادرى بهم ، اما سراجين او ظلمة . . طلقة ثانية وكلهم بالظهرة .

وضحك من جديد . كان متعب الهذال يكـلّـم نفسه ، يكلم الآخرين ، وكان يحس ان كل شيء حوله يتحرك بقوة ، حتى القمر والنجوم بدت له مختلفة عن أيام كثيرة سابقة . واحس ان لسعة البرد التي عبرت الدنيا في تلك اللحظة تعطيه قوة ونوعاً من الثقة فتمطى يريد ان يدفع جسده كله لكي يستجيب الى التفجر الذي يملأ روحه ، وان يقول كلمات تنحفر ليس في الذاكرة وحدها ، وانما تنزل الى القلب لتستقر هناك . قال وهو يتطلع الى القمر ، الى وجه شعلان ، الى الباب المفتوح قبالته ، وقد وقفت هناك سارة :

ـ اذا كبر ولدك فخاوه

قالت سارة ، وقد اخذها جو الانفعال والفرح :

ـ اذا اقبل البخت ، يا ابو ثويني ، باضت الدجاجة على الوتد .

رد عليها وهو يقهقه :

ـ واذا ادبرت ، يا سارة ، بال الحمار على الاسد

صرخت وضحكة من الداخل ، وجاء صوتها متعباً متعباً مديداً :

ـ وكلوا الله يا جماعة الخير .

مقبل بن متعب الهذال ولد في وادي العيون . هذه واقعة مؤكدة تماماً . أما الواقعة غير المؤكدة فسنة ولادته . وهذا الخلاف ناشيء عن النسيان او لاختلاط الوقائع وتشابهها . فخالته وسمة ، تؤكد انه ولد في سنة الجراد . كانت تلك السنة سوداء قاسية . ولما ولد قال متعب الهذال : انتهت ايام الجوع وأقبلت ايام الخير . وفي محاولة لأن يؤكد هذه الرغبة سماه « مقبل » . وتضيف وسمة ان اخاها سعد ، جاء تلك السنة بعد غياب طويل ، وان ما حمله معه من سكر وطحين وقمشة كان السبب في بقاء العائلة في وادي العيون فلم تغادره كما فعل الكثيرون . وزيادة في التأكيد تقول انها لبست ثوباً من الأثواب التي حملها اليها سعد ، وانها وضعت مقبل على كتفها ، فبال على الثوب الجديد ، ورغم ذلك فقد استبشرت وقالت ان الأيام الصعبة سوف تنتهي قريباً .

سارة ، ام ثنيان ، تقول انه ولد في سنة فاضت فيها الغدران ، أما سنة الجراد التي تتحدث عنها وسمة فكانت قبل هذه السنة بثلاث سنوات . وتتذكر ان البدوان تلك السنة لم يصلوا وادي العيون الا في وقت متأخر ، لأن الخير في البادية كان كثيراً والمياه ملأت الغدران . وزيادة في التأكيد تقول ان الفقع والعكّوب والخبّيز تلك السنة كانت من الكثرة الى درجة لا تتذكر انها رأت شيئاً مشابهاً في اية سنة اخرى . أما تسميته

بهذا الاسم فقد كان باقتراح منها ، هي التي اقترحت الاسم وهي لتي اصرّت عليه ، « لأن متعب كان يريد تسميته ثويني او ذياب ، ثويني على اسم المرحوم ، وذياب بعد حادثة الغنم التي جرت في الوادي » .

الخلاف بين وسمة وسارة حول السنة التي ولد فيها مقبل لم يحسم ، لأن كل واحدة تصرّ على رأيها ، ولأن الشواهد لدى كل واحدة منهما لا يمكن ان تخدع الانسان الى الدرجة التي تفترض ما تدعيه الاخرى ، كما لا يمكن أن تخون الذاكرة الى هذه الدرجة .

واذا كانت ولادة احد في وادي العيون لا تحمل امتيازاً من اي نوع ، ولا تثير اي مقدار من الخلاف ، فان ما زاد في تعقيد الأمور في تلك الفترة ان الحكومة ارسلت لجنة من ثلاثة اشخاص لكي تسجّل اسماء الذكور والمواليد الاحياء ، وقد مرت اللجنة على مناطق كثيرة في البادية ، وكانت تحمل اوراقاً ودفاتر كبيرة ، ولم يعرف الناس لماذا جاءت او الغاية الحقيقية من التسجيل . وهذا الخوف دفع الناس في وادي العيون الى التعامل معها بتحفظ شديد : اخفوا الكثير من المعلومات ، ولم يذكروا شيئاً عن المسافرين ، كذلك لم يسجلوا الاناث ولم يشيروا اليهن . أما الذكور فقد سجلوا قسماً منهم ولم يسجلوا القسم الآخر ، وزيادة في الحيطة فقد طُلب من الصبية ، بين الثامنة والرابعة عشرة ، ان يغيبوا ، ان يذهبوا الى البساتين خلال النهار ، وتعمد الآباء ان يذكروا وقائع مبهمة للغاية حول سنة ولادة ابنائهم .

هذا ما فعله الجميع ، تقريباً ، في وادي العيون ، لأن الجندية كانت تنتظر الشبان ، كما راجت الاشاعة قبل وصول اللجنة بأسابيع ، لكن هذا لم يمنع ثلاثة أو اربعة في الوادي من عمل شيء مناقض تماماً ، اذ سجلوا الذكور كلهم ، وسجلوا المسافرين ، ولم يتردد بعضهم من اضافة اسماء بعض الذين ماتوا خلال السنوات الأخيرة . فعلوا ذلك لأنهم سمعوا من أحد رجال اللجنة ، إذ قال لهم ذلك بحذر شديد ، وطلب ان لا يذكر شيء عن الأمر ، قال لهم ان كميات من الطحين والسكر والقماش سوف توزع في الوادي وفي الأماكن الأخرى ، تبعاً لعدد الافراد . سخر الناس كثيراً من هذه الأخبار ، وأكدوا انها مجرد اكاذيب للايقاع بهم ، لأن الحكومة لم تفعل ذلك من قبل ، حتى في السنوات التي مات خلالها الناس عطشاً .

في وقت لاحق لما ذكر لسليمان الهديب سنة ولادة مقبل تمهّل قبل ان يؤكد أو ينفي ، وحين اكدوا له ان سجلات الحكومة لا تخطىء ولا تعتمد على الذاكرة ، فقد ابتسم بسخرية ، وبعد ان هز رأسه عدة مرات قال :

ـ اذا كان دليلهم كتابهم فخطاهم اكثر من صوابهم .

وتذكر هو كيف تعامل الناس في الحدرة مع اللجنة التي جاءت تلك السنة .

أما الخالة ودعة ، خالة الوادي كما كان يطلق عليها ، فتقول شيئاً مختلفاً تماماً عن سنة ولادة مقبل ، تقول انه اكبر من عنود بثماني او تسع سنوات . تتذكر ذلك لأن مقبل بعمر حليمة التي ماتت وعمرها سنة واحدة ، وبين حليمة وعنود بطنان ، ولذلك يجب أن يكون مقبل قد ولد سنة « الحرب العمومي » ، لأن هزاع ، زوجها ، سجن أيام تلك الحرب في مصر ، بعد ان رفض بيع الغنم التي كانت معه ، وهرّبها ، او حاول تهريبها ، لكن القي القبض عليه وسجن . ويتذكر هزاع ، كما تؤكد الخالة ، ودعة ، ان « الحرب العمومي » بين الألمان والطليان والانكليز والهنود والسنغال كادت تسوقه إلى طرابلس الغرب لولا رحمة الله ، وان هذه الحرب استمرت سنوات وسنوات ، وان حليمة ولدت بعد سفر ابيها بخمسة شهور .

كانت الخالة ودعة في وقت من الأوقات تؤكد هذه المعلومات بقوة ، لأن مقبل كان أقوى المرشحين للزواج بعنود ، لكن بعد ان انتظرت فترة طويلة ، ولما ظل مقبل متردداً ويتهرب من اعطاء جواب نهائي ، ثم لما جاء واحد من جماعة هزاع وطلب ان يتزوج عنوداً ووافق ابوها وتزوجت ، فقد اصبحت الخالة ودعة اقل حماسة في تأكيد المعلومات السابقة ، بل وادعت انها لا تتذكر جيداً . لكنها لا تتردد ايضاً في الموافقة على رأي اختها وسمة ، مؤكدة في نفس الوقت ان ما تقوله سارة ليس صحيحاً ، وانه مجرد تلفيقات بقصد ترتيب زواج مقبل من احدى قريباتها .

اذن لا حاجة ابداً لأن يرهق احد ذاكرته في تقصي سنة ولادة مقبل . الأمر من التعقيد الى درجة كبيرة ، يضاف الى هذا ان لا فائدة ترجى من وراء ذلك ، ولا أهمية لأن يكون ولد في سنة الجراد ، أو في سنة الطوفان . وربما ولد قبل ذلك او بعده ، لكن الشيء المؤكد ان هذه الولادة كانت قبل الفترة الشديدة الاضطراب العاصفة ، لأن

الوادي ، وطريق القوافل ، والناس جميعاً اصبحوا بعد ذلك في حالة من الصعوبة والفقر والانتظار . وكانت اصداء العالم البعيد تصل بين فترة واخرى مع القوافل او مع الأقرباء الذين غابوا سنوات طويلة ، وقد اضطر الكثيرون منهم الى العودة في هذه الفترة ، خوفاً من ان يساقوا الى الحرب ، اضافة الى أن ابواب رزقهم قد ضاقت .

كانت اصداء العالم واخباره تختلط وتتداخل . وفي تلك الفترة كان فواز صبياً أقرب إلى سن الشباب ، لأنه اصبح يجلس في مضافة الرجال . هذا ما تؤكده سارة ايضاً حين تتذكر ، لأنه في الليل ، مع القصيد والسوالف وعواء الذئاب البعيدة ، سمعت ، لأول مرة ، ان فواز يريد ان يسافر .

واذا كان وصول قافلة يعني الكثير للصغار والكبار ، ولا يترك احداً الا ويحرّك فيه رغبة من نوع او آخر ، فان الرجال الذين يظهرون مقداراً كبيراً من الهدوء والاتزان ، ويتأخرون في الوصول الى العين او الى الخان ، يعرفون اشياء كثيرة قبل ان يروا القافلة وقبل ان يصلوها ، لأن الصغار الذين يتراكضون مثل القطط يحملون الاخبار بسرعة : كم عدد رجال القافلة وعدد جمالها ، ماذا تحمل ، ومتى جاءت وإلى اين هي ذاهبة ؟ ان الصغار لفرط شغفهم وحب الاستطلاع لديهم يندفعون بسرعة لكي يعرفوا كل شيء ويتأكدوا بأنفسهم ، ثم لا يلبثون ان ينقلوا للكبار ما رأوا ! هذا ما حصل بالنسبة لجميع القوافل التي مرت ؛ والكبار الذين يستمعون باهتمام ، لكن دون ان يظهر عليهم ذلك ، لأنهم قد سمعوا شيئاً من القوافل الأخرى ، من طارش مرّ قبل أيام ، او من حساب الأوقات بين رحلة واخرى ، بين مكان وآخر . فاذا وصل الكبار الى العين ثم الى الخان نظروا بإمعان الى كل شيء ، حتى الى روث الدواب ، لكي يقدروا ويعرفوا .

في هذه الفترة بالذات توقف فواز عن مشاركة الصغار الركض ، واخذ يتعمد مثل رجال العتوم التأخر في الوصول الى العين ،لكنه كان يضيق مع ذلك من تأخر أبيه في الوصول ، فيسبقه ؛ فاذا بدأت القوافل تستعد للرحيل ومواصلة السفر ، بعد استراحة يومين او ثلاثة ، فلا بدّ ان يحاول شيئاً ، اذ اضافة الى مساعدة المسافرين ، كان يحاول اقناع ابيه والآخرين . فمع كل حمل يُرفع ويشدّ على ناقة او بعير ، ومع كل حبل يدور من جهة الى اخرى اثناء حزم الامتعة ، كان يبدي براعة وقوة ، ولا

يتوقف عن محاولة الاقناع بطريقة او أخرى . فاذا جاءت ساعة الرحيل الحقيقية، وكانت الايدي المعروقة السمراء تمتد بقوة ، لكن بخفة ايضاً ،للسلام والوداع، كان فواز يمتلىء غيظاً ومرارة لأنه لم يكن في هذه القافلة . لكن كان يقنع نفسه ان هذا سيتاح له في المرة القادمة ، مع قافلة اخرى .

قال متعب الهذال لابنه ، بعد ان سافرت قافلة جديدة :

ـ بعد سنتين او ثلاث تكبر وتسافر . . يا وليدي

وحين السّخ عليه فواز واتخذ موقفاً اقرب الى العناد ، وتصرف تصرف الرجال اثناء رحيل القافلة ، قال متعب الهذال :

ـ يا وليدي . . هذه الديرة احسن من غيرها . .

يصمت قليلاً ، يتذكر ، ثم يضيف :

ـ ما وراء السفر غير التعب .

وحين يؤكد له فواز ان في القافلة التي رحلت اليوم ، وفي القافلة التي رحلت قبل اسبوعين ، فتياناً في مثل عمره ، او اصغر قليلاً ، كان متعب يقول مخاطباً زوجته :

ـ يا وضحة ، شعلان بعده ما رجع ، وفواز يريد يسافر . . حضري له الزهاب وتوكلي على الله .

في هذا الوقت ، عند هذا الحد، ينسحب متعب الهذال ليبدأ دور زوجته ، فاذا كان هو مستعداً للمناقشة ، ثم التنازل الظاهري ، ارضاء لغرور الشاب ، فان رفض وضحة مؤكد ولا يقبل التراجع ، لأنها بغريزتها ، بما تملكه من قوة خفية ، وبعض الاحيان بنظرة حزن وانكسار ، تجعله يتراجع ويترك الفكرة بعض الوقت . كانت تؤكد له انه بعد سنوات قليلة سيصبح اكثر قوة وقدرة على تحمل اعباء سفرة قد تمتد عشر سنين ، أما الآن ، وقبل ان ينبت شاربه ، فيجب ان تبقى فكرة السفر املاً . وتأتي له بأمثلة كثيرة عن ابيه ، عن اقربائه الذين سافروا : متى بدأوا وكم تحملوا من المتاعب والآلام ، وما تزال تحدثه ، تحاول معه ، الى ان يقتنع اوْ يتظاهر بالاقتناع . فاذا حان موعد ورود الماء كان ابوه يقول له بلهجة تحدٍ :

ـ اذا كبرت واصبحت قوياً فورد الدواب . . وعد سالماً .

ومعنى ان يأخذ فتى في مثل عمره عدداً من الدواب بمفرده ، ان يكون قوياً

وماهراً ، لأن وقت الغروب في وادي العيون ، حيث تأتي الدواب لتستقي ، من اصعب الأوقات واكثرها مشقة وخطورة ، اذ اضافة الى ضرورة الوصول الى العين في وقت مناسب ، فان السيطرة على الحيوانات وعدم اختلاطها ، وما يرافق ذلك من مناقشات ، وبعض الاحيان من نزاع ، لا يقوى عليها الا الرجال او الفتيان الأقوياء ، وكثيراً ما تطلب الأمر وجود اكثر من شخص واحد لكي تجري السقاية بسرعة ودون ضرر .

لذلك حين طلب متعب الهذال من ابنه الذهاب بمفرده ، شعر فواز بالزهو والتحدي ، أما حين اشارت امه الى اخيه ابراهيم ، والذي يصغره بسنة ، ان يذهب معه ، فقد رفض فواز باصرار ، قال بما يشبه التحدي :

ـ وحدي ، ما اريد احداً ، وارجع قبل الجميع .

ذهب فواز بمفرده ، لكنه لم يرجع مبكراً كما وعد . رجع متأخراً ، متأخراً جداً !

وحين يتذكر اليوم الأول الذي ذهب فيه بمفرده للسقاية، وانه عاد متأخراً ، يتذكر ان هذا لم يحدث نتيجة عدم القدرة ، وانما نتيجة سبب آخر ، اكثر اهمية ، وهو الذي أخّره . . . وهذا السبب نفسه هو الذي منعه من السفر . . بعد ذلك

فبعد ان غابت الشمس وبدأت الظلمة الخفيفة تغطي كل شيء ، وكانت الجمال والغنم تولد في مدى النور المتراجع المتداخل الألوان حركة واصواتاً لا حصر لها ، ومع الحركة الثقيلة والاحتكاك ، ثم الاصوات المبعثرة ، كان فواز يحس بالرهبة والثقة في وقت واحد ، وكان يحس ايضاً بالحصار . ورغم الاصوات العمياء التي كان يدفعها أمامه ، حاثاً الدواب على ان تسرع ، فقد بقيت الحركة رتيبة وأقرب الى البطء ، وفي وقت متأخر شعر بالندم انه استسلم لهذا الاغراء الخفيّ ، وبقي ساعة او اكثر يتنقل بين الدواب وحلقة الرجال الصغيرة قرب مضافة ابن الراشد . أما حين وصل الى الظهرة ، ووجد العجوز جالسة في مكان متقدم ، وكأنها بجلستها تلك ، قريباً من الأرض ، تحاول ان تخترق الظلمة والمسافة ، كما يفعل الانسان اثناء النهار ، حين يقف منتصباً او يجلس على ربوة عالية ، واضعاً يده فوق عينيه ، لكي يمعن النظر في البعيد ويتأكد من الاطياف والحركات . . . كانت العجوز في الظلمة تجلس بتلك الطريقة ، وقد انتابها القلق الذي اصبح خوفاً . أما ابراهيم فقد اخذ يدور حوله بطريقة ماكرة ، دون ان يقول كلمة ، لكن ليشعره ايضاً بأهميته والفائدة

التي كان يمكن ان يجنبها لو كان معه .

تابع فواز طريقه دون ان يتوقف او يقول كلمة ليفسر تأخره ، لكن شيئاً عصبياً سيطر على حركاته وجعله يصرخ على الغنم بقسوة لكي تدخل الحظيرة بسرعة ، وعلى الجمال لكي تتوقف تمهيداً لاناختها وعقلها ، وبعد قليل صرخ في وجه ابراهيم ، الذي كان لا يزال يدور حوله ، طالباً منه انجاز ما تبقى من أعمال .

لم يكن في تلك اللحظة مستعداً للتبرير ، كان يريد ان ينقل لابيه ما شاهده وما سمعه . لكن ما كاد ينظر الى وجهه ، على ضوء النور الخفيف المنبعث من بقايا الحطب الذي ما زال مشتعلاً ، حتى التمعت عينا متعب الهذال بابتسامة هي بين السخرية والشفقة ، وكأنه يريد ان يقول له دون كلمات « يجب ان تكف عن العناد وطلب السفر .. ما زلت صغيراً ويجب ان تنتظر ! » أما حين انزل عينيه واستمر في تقليب الجمر ، فقد شعر فواز ان اباه لا يريد تفسيراً او تبريراً لما وقع ، اذ استمر بحركته الخفيفة المتقنة في تقليب الجمر تمهيداً لصنع القهوة .

شعر فواز بالخيبة واسقط في يده . فجلسة العجوز على مسافة من البيت ، وبتلك الطريقة ، ثم حركة ابراهيم المليئة بالرعونة والتحدي ، وهذه النظرة السريعة المثقلة بالعتاب من ابيه ، وبما يشبه عدم الثقة ، ثم الصمت الذي ميزّ هذه المواقف جميعها ، كل ذلك اشعره بالخيبة تماماً ، ثم بالخطأ الفادح . تصور ان الساعة التي قضاها متنقلاً بين مضافة ابن الراشد والدواب ، وبين وجوه هؤلاء الضيوف الغرباء الغامضين ، والركض السريع لكي يتأكد ان الجمال والغنم رويت ولم تؤذ احداً ، جعله يتساءل مرة بعد اخرى ان كان عليه ان يعود بسرعة او ان يشهد هذا الشيء الغريب الذي يراه لأول مرة . قال لابيه الذي ظل واثقاً من حركاته وانشغاله :

ـ عند ابن الراشد ضيوف غرباء . . .

سقطت كلماته بين الجمر وأصوات الدلال ، وظل ابوه يواصل عمله ، كأنه لم يسمع ولا يريد تبريراً للتأخر . شعر بالتحدي ، قال بصوت حادٌ وعصبي :

ـ من الفرنج ويتكلمون العربي .

لما قال هذه الكلمات رفع ابوه اليه عينين متسائلتين ، وانتظر ان يسمع شيئاً جديداً . اضاف وهو يجلس مقابله والنار ودلال القهوة بينهما :

ـ ثلاثة اجانب ، ومعهم اثنان من عرب الزور ، ويتكلمون العربية .

وتغيرت لهجة فواز ليخلق تأثيراً قوياً :

ـ يتكلمون بطريقة مختلفة عن طريقتنا ، بطريقة مضحكة ، لكن يمكن ان نفهم ما يقولون .

وفجأة رأى اباه يتغير ، تتجمع حواسه في عينيه ، ينظر اليه بامعان وحدة ، وكأنه يريد ان يقرأ في وجهه وعينيه ما رأى ، واية انطباعات ترسبت في نفسه ، لكي يقدر اي نوع من الرجال اولئك الذين رآهم سأل ببطء :

ـ وعرفت منين هم ويش يريدون ؟

ـ الناس حول المضيف قالوا انهم نصارى .

ـ ويش يريدون ؟

ـ سمعت ابن الراشد يقول لواحد منهم : قل لا إله إلا الله محمد رسول الله وقال الرجل وراءه : لا إله إلا الله محمد رسول الله .

ـ وما يبغون ؟

ـ الناس يقولون انهم جاءوا ليبحثوا عن الماء

ـ وانتْ .. انتْ ويش سمعتهم يقولون ؟

ـ كان الناس حولهم كثيرين .. ولم اسمع الا كلمات من هنا ومن هنا .

وبنفس التحفز الذي بدا في عينيه حين قال له انهم اجانب ، واخرجه من جو العتاب واللوم الذي بدا عليه اول الأمر ، تجمع جسده بحركة سريعة وخفيفة ، قال وهو ينهض :

ـ لازم اشوف بنفسي

وخلال فترة قصيرة اسرج هو وفواز الحصانين ، أما محاولات مقبل في ان يتشبث به ، ان يأخذه معه ، فقد انتهت بسرعة وحزم قال لزوجته :

ـ امسكي الزغير ، خذيه عنا

وبعد ان امتطى حصانه اضاف وهو يتهيأ للانطلاق :

ـ الله العليم انّا نتأخر ويجوز ننام عند ابن الراشد .

وفي فترة قصيرة تحركا وسارا ، ظلا غارقين في الصمت . فلا يسمع الا الوقع

الهش لحوافر الخيل ، أما حين وصلا مضافة ابن الراشد ، فقد جلس متعب الهذال قريباً من الضيوف ، وجلس فواز مع الفتيان الذين كانوا في مثل عمره ، غير بعيد عن باب المضيف .

متعب الهذال ، وهو يوافق بسرعة على قضاء الليل عند ابن الراشد ، ويقضي النهار التالي حتى الغروب ، يراقب الاجانب الثلاثة ، ويتحدث معهم ، ويسأل نفسه ويسأل الآخرين عن الاسباب التي دعت هؤلاء الى المجيء ، ثم تلك العودة البطيئة الحزينة ، وما تخللها من وقفات واحاديث ، والطريقة التي عامل بها ابنه ، سواء في التصرف او الحديث . كل هذا جعل فواز الهذال رجلاً قبل الاوان ، وترك في نفسه هذه الذكرى التي لا تمحى .

خلال رحلة العودة الى الظهرة ، اختار متعب الهذال طريقاً طويلاً ، طريقاً لا يسلكه الا نادراً ، وبدا رجلاً جديداً لكل من رآه ولكل من عرفه . كان شديد الحيرة والحزن . تكلم بطريقة مختلفة عن اية مرة سابقة ، بنبرة الصوت ، بنوع الاحاديث ، بالاسئلة الكثيرة التي يطرحها على ابنه ، وكان في الحقيقة يطرحها على نفسه وعلى الآخرين . وفواز الذي حرص طوال رحلة العودة على ان يبقى صامتاً ، كانت كلمات ابيه من الغرابة الى درجة لا يمكن ان تنسى : « اكيد هؤلاء لم يأتوا من اجل الماء ، انهم يريدون شيئاً آخر . ولكن ما عساهم يريدون ؟ واية اشياء في هذه الفلاة غير الجوع والرمل والعجاج ؟ ويقولون انهم سيقضون هنا وقتاً طويلاً ؟ كيف سيعيشون ؟ كانوا وهم يأكلون اشبه بالدجاج . والاسئلة التي يسألونها خبيثة ،

ملعونة ، وتؤكد انهم ليسوا مثل الذين جاؤا من قبل : « هل جاء اجانب غيرنا ؟» « هل سمعتم عن اجانب ، عن انكليز وفرنسيين ، جاءوا الى هنا ؟ » « هل بقوا فترة طويلة ؟ هل فعلوا شيئاً ؟» انهم خائفون . عندهم ما يخافون منه.وانت تعرف ان الذي يعمل عملاً خبيثاً يخاف من الآخرين . لو كانوا صادقين وجاءوا من اجل الماء ، فالماء معروف مكانه . لا يريدون ان يبقوا في هذا المكان ، يريدون ان يتجولوا ، ان يذهبوا ويرجعوا ، وبعدهم سيأتي غيرهم . هكذا قالوا . وقالوا « انتظروا ، اصبروا ، سوف يصبح كل واحد منكم غنياً ! » ولكن ماذا يريدون منا وما همهم اذا اصبحنا اغنياء أو بقينا على حالنا ؟ انظر الى عيونهم ، الى اقوالهم وتصرفاتهم ، انهم شياطين ، ولا يمكن لاحد ان يثق بهم . انهم ألعن من اليهود .. ويحفظون القرآن اولاد الحرام ... عجايب » .

فاذا توقف وتطلع الى ابنه ليسأله الرأي فيما يقوله . كان فواز يبقى صامتاً ، لان هذا الذي يجري لا يفهم منه الا القليل . صحيح انه سمع الفتيان يقولون عنهم كلمات قاسية ، ويشيرون اليهم ويضحكون ، ورآهم كيف يأكلون وكيف يتكلمون . لكن لم يستطع ان يدرك ما يدور حوله . حتى اذا وصلا الى الظهرة ، وروى متعب الهذال للرجال الآخرين بعض ما رأى وبعض ما سمع ، كان يتطلع الى ابنه يريده ان يتحدث ، ان يؤكد ، بطريقة ما ، ما كان يقوله هو ، في الوقت الذي علمه طوال السنوات السابقة ان يبقى صامتاً اذا تكلم الكبار ، وان يبقى واقفاً حين يكون الضيوف ، وان يتصرف ويتحرك بطريقة لا تخطىء ابداً. هذه المرة يتصرف متعب الهذال بطريقة مختلفة : « يا جماعة الخير ، الواحد لا يصدق : واحد منهم ، الله اعلم ... شيخهم ، يعرف العربية ، لكنه لا يريد ان يتكلم بها . انا متأكد . لاحظته ، كان مثل الصقر يراقب وينتصت . سألته ان كان يعرف العربي ام لا قال : « شويه .. شويه » ابن الملعونة يعرف احسن من الجميع ، لكنه خبيث ، وحين يريد شيئاً يتكلم بلغته ويطلب من الآخرين ان يسألوا .والماء ؟ وادي العيون ماؤه يكفيه ، لا نريد اكثر من هذا الماء . لو ارادوا الماء ، لو ارادوا مساعدة الناس لذهبوا الى اماكن اخرى » .

خلال الأيام التالية حرص متعب الهذال ان يقوم بالسقاية بنفسه ، ولكي يمتحن شكوكه طلب من جميع الرجال ان يذهبوا ويشاهدوا هؤلاء الاجانب بانفسهم .

اكثر من ذلك كان يطلب من ابنه ، فواز ، ان يعود بالدواب لكي يتعلل هو عند ابن الراشد . وفي كل مرة يعود بافكار جديدة كلها تؤكد شكوكه السابقة وتزيده اقتناعاً ان « هؤلاء الشياطين لا يمكن ان يفعلوا خيراً لوجه الله » .

انهم يقضون النهار كله في حركة دائمة ، يذهبون الى اماكن لا احد يفكر بالذهاب اليها . يجمعون اشياء لا تخطر ببال . معهم قطع حديدية لا يعرف الانسان ما هي او ماذا يفعلون بها ، حتى اذا رجعوا عند المساء رجعوا ومعهم اكياس من الرمل وقطع من الحجارة ، وقد جلبوا معهم مرة اغصاناً من الاثل والقيصوم والشيح . كسروا الاغصان بطريقة عجيبةولصقوا عليها اوراقاً كتبوا عليها اشياء غريبة . لم يكونوا يكتفون بذلك ، كانوا يضعون علامات من الخشب او قضبان الحديد في جميع الاماكن التي يمرون بها ، وكانوا يكتبون عليها ويكتبون على قراطيس يحملونها اشياء لم تفهم ابداً . لكن هذه العلامات لا تلبث ان تختفي او تُغيّر اماكنها حالما يغيبون . كان صبية الوادي يفعلون ذلك ، والكبار لا يعترضون ، وقد جمع الصبية عدداً من هذه العلامات . ولما جاء فواز ببعض القضبان الحديدية ، حين كان يسرح بالغنم ، قلّبها ابوه باهتمام وببعض الخوف . دقها على حجر ، دقها ببعضها ، وتنصت اليها مدة طويلة ثم اكد على ضرورة عدم تقريبها من النار .

والماء .. اين الماء وكيف سيجدونه ؟ والحكومة .. هل تعرف اين هم وماذا يفعلون ؟ حين سأل متعب الهذال ابن الراشد ، اكد هذا الأخير ان معهم تفويضاً من الامير ، وانهم قضوا اسبوعاً في ضيافته، وحين سأل الدليلين اكدا ان الامير ارسلهم ، وانهما جاءا معهم لهذا السبب .

ومع كل يوم جديد يزداد تشاؤم متعب الهذال ، وتزداد شتائمه ومخاوفه ، حتى اصبح لا يتحدث الا في هذا الموضوع . واذا كان الرجال من حوله يشتركون معه في الحديث فانهم لم يكونوا جميعا يشاركونه في الرأي ، لكن بحكم المنزلة والسن كانوا يتركونه يتحدث كما يريد ، ويشتم كما يريد .

كان يحس ان شيئاً خطيراً يوشك ان يقع ، لم يكن يدري ما هو أومتى ، ولم تفده التوضيحات التي قدمها الكثيرون ، اذ بمجرد ان رأى هؤلاء ، بحركتهم اليومية الدائمة ، بالادوات التي يحملونها ، ثم وهم ينقلون اكياس الرمل والحجارة

ويكدسونها بعد ان يكتبوا في دفاترهم ، ويضعوا عليها علامات ، ثم تلك المناقشات التي تمتد من الغروب الى ما بعد العشاء بقليل ، وما يعقبها من الكتابة ، وهذه الاسئلة الملعونة التي يسألونها ، عن القبائل وفخاذها ونزاعاتها ، ثم عن الدين والمذاهب ، وعن الطرق والرياح ومواعيد المطر . هذه الاشياء كلها ولدت لديه مخاوف تزيد يوماً بعد يوم ان هؤلاء يريدون شراً بالوادي وبالناس . وأهل وادي العيون الذين نظروا باستخفاف ، اول الامر ، لما يفعله الاجانب الثلاثة وضحكوا كثيراً حين رأوهم يحملون الرمال والحجارة ، بدوا اكثر دهشة وحيرة وهم يكتشفون يوماً بعد آخر ان هؤلاء يعرفون الكثير عن حياة البدو والصحراء والعشائر والدين . أما كلمة الشهادة التي يرددونها حين يطلب منهم ذلك ، ثم الاحاديث التاريخية الطويلة ، فقد دفعت الكثيرين من أهل الوادي الى سؤال انفسهم ثم التساؤل فيما بينهم ان كان هؤلاء مسلمين ام انهم جن ، لان بشراً مثلهم يعرفون كل ذلك ، ويتكلمون العربية ، ولا يصلون وليسوا مسلمين ، لا يمكن ان يكون امرهم طبيعياً .

وابن الراشد الذي بدا شخصاً مختلفاً منذ ان وصل هؤلاء الاجانب ، وبالغ بالكرم والعناية ، واظهار هذا الكرم وهذه العناية ، وكأنه كان على علم سابق بوصولهم ، او ربما نتيجة تعليمات مشددة من قبل الامير ، نقلها اليه الرجال الذين جاءوا معهم ، فقد كان في دخيلته يحس ان مغانم كبيرة يمكن ان تجيء من هؤلاء ، ولذلك بالغ في كل شيء ، حتى في الحديث والتصرف ، وكان هذا اكثر مما يطيق الوادي واكثر مما يحتمل الناس . واذا كان الكثيرون داخلهم شعور الكبرياء في الأيام الاولى ، وكأن الوادي يعيش في بحبوحة ورخاء ، ويعرف كيف يحتفي بالضيوف ، فقد بدأ الشك يخامرهم وتساءلوا ما اذا كانوا قادرين على الاستمرار ، خاصة وان اقامة هؤلاء الاجانب قد طالت ، وبدا انها ستطول اكثر .

هذا السلوك من ابن الراشد لشدّ ما اثار متعب الهذال وأدخل الغضب الى قلبه . صحيح انه يحب الكرم ، ويعرف كيف يكون كريماً ، فيقدم للضيوف احسن ما عنده ، حتى لو ترك أهل بيته جياعاً ، لكنه لا يعرف لماذا بدا ابن الراشد خائفاً مستسلماً اكثر مما ينبغي امام هؤلاء . قال له بعد مرور ايام على وصول الاميركان :

ـ اسمع يا ابن الراشد : نأكل التراب ، ونقدّم للضيوف اولادنا ، لكن لا نرضى

ان نهز رؤوسنا مثل العبيد لكل كلمة يقولونها .

ولما ابتسم ابن الراشد في محاولة للتغلب على غضب متعب الهذال قال الأخير :

ـ حتى الطريقة التي تبتسم بها او تنظر اليهم لا يقبلها أهل الوادي . إنهم رجال مثلنا ، ولولا ان الأمير ارسلهم لارجعناهم من حيث جاءوا ، لان الماء في الوادي يكفي ولا نريد مساعدة من احد . . .

توقف ابن هذال لحظات . بان على وجهه الاسى . هز رأسه عدة مرات ثم تابع :

ـ تكلم معهم مثل الرجال . تعامل معهم مثل الرجال يا ابن الراشد .

ـ الله يصلحك يا ابو تويني . . ثقّلت كلامك .

ـ والله من يوم ما جاءوا ما لك شغلة الا تضحك مثل العجيان .

رد ابن الراشد بمكر :

ـ يا ابو تويني الجماعة ما هم مثل جماعتنا ، لازم نكون معهم كرماء حتى يقولوا اننا عرب .

رد متعب الهذال بعصبية :

ـ نحن عرب يا ابن الراشد وما نبغي شهادة من احّد . . .

وتغيرت لهجته :

ـ اذبح لهم ، اضحك ، سولف . . لكن مثل الرجال .

واذا كانت القوافل قد استمرت تمر بوادي العيون ، فقد كان يلذ لمتعب الهذال ان يقصر الحديث ـ بعد ان يسأل المسافرين الاسئلة الضرورية والتقليدية ـ على هؤلاء الاجانب الخبثاء الغدارين . إنهم جاءوا لا يعرف لاي سبب ، او ماذا سيفعلون ، ثم ماذا ستكون النتائج في النهاية . لم يكن يكتفي بذلك ، كان يريد من جميع رجال القافلة ان يروا الاميركان الثلاثة لكي يتأكدوا ، وان يساعدوه على اكتشاف السر وراء مجيئهم . والمسافرون الذين يسمعون حديث متعب الهذال ، كانوا يتصرفون بطريقة تؤكد شكوكه الى اقصى حد « رأينا في الطريق الى وادي العيون عدداً منهم : كانوا يبدون مثل الخراف المسلوخة من حرارة الشمس ، كانوا يتراكضون في الفلاة ، أما حين امرحنا ورأينا الامير قبل خمسة أيام فقد قال لنا « من يعترض طريقهم سيلقى جزاءه . . . انهم خويا ، وجاءوا لمساعدتنا !» وحين يستوضح متعب الهذال عن المساعدة التي يمكن ان يقدمها هؤلاء ، ويؤكد ان حالنا بخير ولا

نريد مساعدتهم ، كان الرجال يتبادلون النظرات فيما بينهم ولا يتكلمون .

فاذا رأى رجال القوافل الاجانب الثلاثة وتحدثوا اليهم ، كانت شكوكهم تزيد ومخاوفهم تكبر ، لانهم يتساءلون ويتحدثون عن امور واماكن لا يتوقعها ولا يصلها احد ، ولذلك لا يمكن ان يُصدّق انهم جاءوا من اجل الماء .

هذا ما حصل في تلك الفترة ، أما لماذا كان متعب الهذال بهذا الشكل ولماذا نظر الى هؤلاء الاجانب تلك النظرة القاسية المليئة بالمخاوف ، فان حالة من الالهام ، أقرب الى النبوة ملأت نفسه وحياته في السنوات الأخيرة !

على غير انتظار او توقع وصل هديب وشعلان مع احدى القوافل ، وصلا بعد غياب عن الوادي استمر ثلاث سنين . لا زال الكثيرون يتذكرون ذلك اليوم ، لان خبر وصولهما ، حين نقله الصبية الذين استقبلوا القافلة على طريق الخبرة الشرقية ، جاء مشوشاً مضطرباً ؛ قال بعض الصبية ان الذي وصل هو الحوش ، وقد وقع هذا الخطأ نتيجة اختلاط الصور والاسماء في اذهان الصغار ، وما كاد هذا الخبر يصل الى وادي العيون ، والى ام الحوش بالذات حتى بدأت ترقص وتبكي وتضحك وتزغرد في آن واحد . كانت لا تعرف هل تندفع لملاقاة القافلة ام تذهب الى البيت لتحضره وتستعد ، كانت تتراكض في كل الاتجاهات وتتراجع كالمذهولة ، أما حين وصلت القافلة وتبين ان اللذين وصلا هما هديب وشعلان فقد تغير كل شيء : خيّم الصمت والهبوط ثم جاء الحزن ، خاصة لما ملأت ولولة ام الحوش الوادي ، وزاد حزنها اكثر من اية مرة سابقة . ومتعب الهذال الذي حاول ان يفرح لم يستطع ، فقد غلبه الحزن تماماً ، وودّ في اعماقه لو لم يصل هذان المسافران .

في الليل ، وأمام عدد من الرجال ، ذكر متعب الهذال انه لم يتوقع عودة المسافرين ، بل وذهبت به الظنون ، في فترة معينة ، الى انهما لن يعودا ابداً . أما الآن وقد عادا فقد تذكر كيف انه وهديب بذلا جهوداً كبيرة حتى جمعا ما يكفي لشراء ثلاثة جمال حملت مجموعة من البضائع كانت في وادي العيون لرجل انفصل عن

القافلة التي كان فيها .

قال متعب الهذال هذا والتفت الى ابنه شعلان ، الذي كان يتابع بلهفة قصته كأنه ليس طرفاً فيها :

ـ شعلان كان يسرح بالحلال ، لا شاف ولا سمع ، لكن ما ان جاه وشاف خاله يستعد حتى جن وسافر معه .

وضحك متعب بصوت عال ، ثم ذكر كيف انه لم يستطع شيئاً لمنع شعلان ، قال وهو يستعيد قصة قديمة :

ـ قلت لأمه : يا ام ثويني .. هذا ابنك وهذا اخوك ، وقريشاتنا وقريشات الناس أمانة بين أيديهم ، فاذا جعنا ، وإذا شتمنا الناس فلا تسأليني ، اسألي الرجال ...

وأشار الى هديب والى شعلان ثم تابع بتهديد :

ـ قلت لها : اذا كانوا مثل أهل وادي العيون ، يزرعون بكل ديرة شجرة وينتظرون ثمرها ، ما كانوا ولا كان يومهم ، أما اذا رحمونا ورجعوا بعد سنة سنتين عشنا وخلصنا من حلوق الناس .

وضحك ضحكة فرحة ، مليئة بالثقة . وتذكر كيف ان وضحة تولت بعد ذلك كل الامور ، كيف أعدّت لشعلان وهديب ما يحتاجان اليه ، وكانت في كل خطوة ، مع كل حركة تلح على ابنها ان يعود ، وان يعود بسرعة ، وشعلان الذي كان يؤكد لأمه انه سيفعل ، ويريد من ابيه ان يسمع ، كان أغلب الوقت مشغولاً باعداد لوازم السفر ، حسب ما يتصور وحسب ما رأى المسافرين الآخرين يفعلون . أما الساعات الأخيرة قبل السفر فقد اتسمت بذلك الحزن القاسي ، فبدت الكلمات عديمة الجدوى ، وتتلاشى قبل ان تُسمع ، ولذلك قرر متعب الهذال ان يترك الظهرة الى الوادي . حرص على النزول مبكراً ، وقد تعمد قبل ان يترك الظهرة ان يقول لزوجته :

ـ البلاد طلبت أهلها ، وهديب وشعلان مثل الخوش ، قد لا يعودان قبل سنين .

وحين اكدت له ان أخاها وعدها ان يعود سريعاً ، وانه لن يغيب الا فترة قصيرة ، بمقدار ما يحتاجه الطريق ، رد بسخرية :

ـ اذا شفت اولاد شعلان يا وضحة فاحمدي ربك .

وسقطت دموع وضحة بصمت . كانت في اعماقها تشارك زوجها رأيه تماماً ، وربما كانت لديها مخاوف اكثر منه .

الآن .. وهديب وشعلان يعودان بهذا الشكل المفاجيء اثارا من الفرح بمقدار ما اثارا من المفاجأة . واذا كانت وضحة قد اختلطت دموعها بابتسامتها ، وهي تقبل ابنها واخاها ، فانها لا تعرف هل تضحك ام تبكي ام تتذكر .

كان متعب الهذال يحكي اشياء كثيرة متعمداً . كان يحكيها وينظر الى ابنه فواز ، وكأنه يريده ان يتعلم درساً ، او على الأقل ان يستوعب هذا الدرس .

وبطريقة بارعة وجه الامور نحو احاديث معينة ، يريد ان يتفرغ ، في اسرع وقت ، الى المسافرين ليسألهما ، وكأنه مدفوع بقوة خفية ، عن هؤلاء العفاريت الذين وصلوا في الأيام الأخيرة ، اي شيء يمكن ان يعملوا ، وماذا يقول الناس في الاماكن الاخرى .

ان العلاقة بين متعب الهذال ونسيبه هديب الحمد علاقة خاصة ، اذ بمقدار ما فيها من مودة ، فيها من التحدي والمشاكسة الشيء الكثير . كان متعب الهذال يعتبر ان العمر وحده الذي يعلّم الانسان ، وينظر الى الصغار بقليل من الثقة ، وبعض الاحيان بشك ، وكان لا يخفي ذلك . أما هديب الحمد فانه يرى ان السفر ، الانتقال من مكان الى آخر ، الالتقاء بالبشر ، ما يعلّم الانسان ويجعله اكثر معرفة ودراية .

وتلك الليلة حين جرى الحديث مرة اخرى عن السفر وانه وحده الذي يعلّم ويغير علّق متعب وهو يضحك بصخب ، لانه تذكر ما كان يقوله هديب :

ـ العمر وحده يا ابن اخي يعلّم من يريد أن يتعلم ...

وبعد ان هدأت الضحكات سأل :

ـ ما قولك بالدريبي ؟

ـ الدريبي ؟

ـ اي نعم الدريبي .. هذا اللي يقول انه راح للهند والسند ، واللي يحكي مصري كأنه ولد بمصر .. تعرفه ...

وحين هز هديب رأسه دلالة انه يعرفه تابع متعب :

ـ اول امس ، قبل كم يوم ، راح مع الجماعة الى الخبرة الشرقية ، ولما التفتوا ما

وجدوا له اثرا .. ضاع الدريبي ، ملح وذاب ، ولولا رحمة الله وفطنة حمار من حمير الوادي لظل بمكانه ومات . . .

ابتسم هديب ابتسامة ساخرة . وحرك كتفيه ، قال متعب :

ـ اتعرف من رجعّه لوادي العيون ؟

لم يجب هديب ، قال متعب وهو يضحك :

ـ حمار ابن المدور هو اللي قاده وهو اللي رجعه !

وأضاف بعد قليل وقد اخذت لهجته نبرة جديدة :

ـ الصخرة ، يا ابن اخي ، تعلم ولا تتعلم .. البشر هم اللي يعلّمون ويتعلمون .. والبني آدم كل شيء يعلّمه وكل يوم يطلع له قلب جديد .

كان متعب الهذال يتحين الفرصة لكي يسأل ويعرف ، كان يريد ان يرى اثر السفر في هذين الرجلين اللذين يعودان الآن . كان يسترق النظر ، بين فترة واخرى ، الى ابنه شعلان يقرأ في وجهه وعينيه آثار ذلك السفر الطويل . واذ اخذ الرجلان يتحدثان عن البشر والاماكن ، عن المشاق والصعوبات ، عن الجوّ والليالي الباردة ، ثم عن القوافل التي ضاعت وهلكت ، وعن المرض الذي حلّ بمصر وكيف انهما وُضعا مع المئات في اماكن خاصة محاطة بالاسلاك ، وكان الجنود ، والاسلحة بايديهم ، يمنعون الدخول والخروج ، حتى اذا انقضت فترة ، وكانوا قبلها أصحّاء معافين ، خرجوا من الكرنتينا وقد هدهم التعب والمرض والجوع . وبعد ذلك تحدثا عن الطعام والفاكهة ، عن المياه الباردة التي تتدفق في شوارع الشام في كل وقت . ومتعب الذي سمع بانتباه وابدى اعجابه وسأل عن الكثير من التفاصيل ، وكان يستعيد في لحظات معينة بعض الوقائع والاسماء ، ويبدي دهشته لضياع القافلة التي كان فيها فلان وفلان ، ويبدي اسفه لموت فلان الذي يعرفه وسافر معه في وقت من الأوقات، كان يريد أن يصل الى الأمور التي تهمه أكثر من غيرها . ان يعرف لماذا جاء هؤلاء الاجانب وماذا سيفعلون . وهديب الذي ابدى معرفة تفوق معرفة شعلان ، قال وهو يؤكد على الكلمات التي يقولها :

ـ بلا يا ابو ثويني . لقيناهم في كل مكان . والناس يقولون انهم سيحفرون الارض ويقلبون عاليها سافلها ، ولا احد يعرف . . .

توقف قليلاً وتوالت هزّات رأسه حزناً واسفاً ثم تابع :

ـ قبل ايام ، عند المديرج ، رأينا عشرة أو اكثر منهم ، كانوا في اربع خيام ، ومعهم عدد من جماعتنا ، ولما طلبنا ان نمرح عندهم قالوا : « تشربون وتمشون ، تمرحون بمكان ثاني » ، وشربنا ومشينا . ولما جئنا الامير قال : « هذا بعلمنا وما لكم لازم » .

تركت هذه الكلمات علامات الدهشة والغضب على وجه متعب الهذال ، قال بحدة :

ـ والله اذا تركناهم ، يقلبون الوادي فوق رؤوسنا ، كفار ولا يرحمون .

قال شعلان ، وكان يتكلم وينظر الى ابيه بما يشبه اللوم :

ـ هذا عمل حكومة يوبه .. وما دامت الحكومة تعرف والامير قال مالكم لازم ، الاعتراض ما يفيد .

تطلع متعب الهذال الى ابنه شعلان وكأنه فوجىء بوجوده وكلامه ، حتى انه لم يصدق اذنيه اول الأمر ، فلما استقرت الكلمات في عقله ، قال بسخرية :

ـ يا وليدي .. خالك يقول السفر يعلّم . اراك ما تعلمت شي !

سقطت الكلمات على رأس شعلان كما تسقط الصخور الثقيلة الحادة ، او كما يسقط الزيت الغالي . واذا كان قد تعود ، منذ وقت طويل ، ان يكون فظاً قاسياً مع الآخرين ، وفي حالات معينة اقرب الى الحماقة ، فانه تجاه ابيه شديد الضعف . شعر في تلك اللحظة انه عاجز عن الاجابة ، وشعر انه لا يحتمل الكلمات الساخرة التي قالها ابوه ، واذا كان الصمت قد امتد ثقيلاً فوق رؤوس الرجال فقد احس شعلان بالاختناق وانه لا يقوى على البقاء فخرج .

كان متعب الهذال في حالة من الغضب والانفعال الى درجة قد يفعل شيئاً غير عادي ، احس هديب بذلك اكثر من الآخرين ، قال في محاولة لان يغير الجو :

ـ يا ابو ثويني ، أردنا أو لا العفاريت ستصل ديرتنا ، والقضية ما منها حيلة .

رد متعب بعصبية :

ـ العفاريت وصلت يا هديب . وصلت .. وصلت .

ـ وما قولك يا ابو ثويني ؟

ـ قولي نشوف الامير ، نشوف الجماعة .. هناك ، وبعدها الله كريم

قال هديب بخبث :

ـ ظني ما منها فائدة . . يا ابو ثويني .

ـ وين الفايدة يا مبارك ؟

ـ الفايدة باللي يقسمه الله .

استراح قليلاً واردف بصوت مخنوق :

ـ يا ابو ثويني ، يا ولد العم ، الناس غيري وغيرك . الناس مع الامير وابن الراشد ، الواحد منهم خايف او طمعان ، وانت اكثر مني تعرف : تسعين ابرة ما يجن مخرز ، وهذه الحكومة يا متعب ما ترحم .

ـ ما لنا وهذه البلية ؟ ما لنا والحكومة ؟

اجاب هديب بحزن :

ـ هذا رأي الحكومة يا ولد العم .

ـ اسمع يا هديب ، الحكومة ما هي حكومة ابن الراشد وامثاله ، الحكومة تعرف اكثر الناس ان وادي العيون لاهله ، وتعرف كم صار من البلايا على الماء ، واذا كانت ذيك المشاكل انتهت والناس عاشت فابن الراشد اليوم حوّاس ويلعب .

ـ ابن الراشد ما هو بشي يا ولد العم ، ابن الراشد ذويل ويقول ما يسمع .

ـ لكنه هذه الأيام هو والامير شي واحد ، وانت تعرف انه اذا تصادق الرعيان ضاعت الغنم .

ـ يا ابو ثويني ، ابن الراشد ما هو بشي ، الجماعة هناك هم اساس المشكلة .

ـ ابن الراشد اساس البلية ، كل يوم والثاني عند الأمير : وادي العيون يبغي ماء ، البدوان اخذوا الماء ، وادي العيون مات من العطش ولازم تحفرون لنا بيار جديدة ، وادي العيون ما يمر فيه احد . . وادي العيون . . وادي العيون . لو فكّ شره ابن الراشد عن وادي العيون ترانا بخير وسلامة .

ـ يا ولد العم ، حتى الامير ما له يد ، وسوالف ابن الراشد سوالف ليل ، المشكلة اكبر من الاثنين .

ـ ما قولك لو بعثنا طارش للجماعة هناك ؟

ـ ام البيض مصيودة يا ابو ثويني ، والجماعة هناك موكدين وادي العيون وما هم تاركيه ولو بعثنا طارش والف طارش ، اللي بروسهم لا بد تراه ولا بد يصير .

بعد ذلك تشعّب الحديث . لم يبق احد من الرجال الا وتحدث ، وشعلان الذي عاد بدا خجولاً مطعوناً ، لكن ما كاد يمر بعض الوقت حتى قال اشياء كثيرة لكي يوضح موقفه ويفسر الكلمات التي قالها من قبل . لم يتحدث الى ابيه مباشرة ، لكن صوته ، طريقته في الحديث ، وبعض الاحيان النظرات الحذرة الخفية نحوه ، كانت بهدف ان يسمع ابوه ، ان لا يخطىء في فهمه . ومتعب الهذال الذي لم يترك شتيمة الا وقالها ، ولم يترك فرصة من اجل توضيح الشرور التي ستواجه وادي العيون والديرة كلها ، كان يشعر بحزن شديد ، وتمنى لو ان شعلان لم يأت او لم يقل الكلمات التي قالها .

قال احد المسنين ينهي الحديث ، ويخفض من حدة متعب الهذال :

ـ طولوا بالكم يا جماعة الخير .

فلما تطلعت اليه العيون تابع :

ـ ديرتنا وحنا نعرفها : تبلع الف عفريت .

وضحك الرجل المسن بصوت خشن اقرب الى الحشرجة ثم أضاف :

ـ وحرام عليكم ان تتعاركوا وتختلفوا قبل ما تصل العفاريت ، واذا تعاركتم واختلفتم العفاريت تخرب بينكم . وتنام على صدوركم .

قال متعب الهذال وكأنه يحدث نفسه :

ـ لازم نعرف كيف نمنعهم من الوصول ، وإذا وصلوا ندفنهم أو نهججهم ونلعن والديهم .

بعد سبعة عشر يوماً رحل الاميركيون ومعهم الدليلان ، لكن رحيلهم هذه المرة كان الى الداخل وليس من حيث اتوا . ومتعب الهذال الذي لم يقتنع بهذا الرحيل ، وانما اعتبره دليلاً اكبر على الشؤم ، قال في مضافة ابن الراشد في ذات الليلة التي رحلوا فيها ، وامام عدد من رجال وادي العيون :

ـ الجماعة عندهم سالفة ، والماء حجة . . .

ضحك بسخرية وتابع :

ـ يدورون عن جن ، عن عفاريت ما يندرى ، لكن ابشروا يا اهل الوادي ، اذا طلع الشيء اللي يدورون عليه ما ظل منكم احد حياً .

لم يكن هذا الحديث ، والذي جاء على هذه الصورة من الحدة والغرابة ، مفاجئاً للرجال ، لان المفاجأة التي وقعت في الأيام الاولى زالت وحلّت مكانها اسئلة غامضة ، حتى اصبح الحديث الوحيد الذي يجري بين اي اثنين ، في اي مكان وفي كل وقت ، عن هؤلاء ، ولم يعد احد بحاجة الى مقدمات من اي نوع لكي يتحدث عنهم ، وفي وقت لاحق اصبح الحديث موصولاً ، بحيث يستطيع الانسان ان يبدأ كلاماً مع جماعة ويواصله مع آخرين ، لان كل شيء يقع يُعرف وينتشر بسرعة ،

ولان التصرفات التي بدرت من هؤلاء خلقت شكوكاً لا نهاية لها . فليرات الذهب الانكليزية والرشادية التي كانت توزع بسخاء ، لقاء ابسط الخدمات ، ثم الاثمان المرتفعة التي اعطيت مقابل الصناديق الخشبية والاكياس التي استعملت لخزن كميات من الرمال والحجارة ، واخيراً ما دفع لابن الراشد مقابل الناقتين اللتين اشتراهما هؤلاء ، هذه التصرفات وغيرها جعلت اهل وادي العيون في حيرة كبيرة ، وحتى الذين ابدوا تسامحاً ، وقالوا ننتظر قبل ان نحكم ، ساورهم الشك في ان يكون اولئك الاميركيون قد جاءوا من اجل الماء .

ووادي العيون الذي تعود على مرور القوافل ، ورأى بشراً من أنماط كثيرة ، كان الاميركيون الثلاثة بالنسبة له بشراً من نوع غير مألوف ، نوع مختلف تماماً ، بطريقة حياتهم وتصرفاتهم والاسئلة التي يسألونها . ثم ذلك السخاء الذي لا يظهر ابداً من المسافرين الآخرين .

وابن الراشد الذي بدا مستعداً ، اول الامر ، لان يدافع عن هؤلاء ، ويؤكد بطرق شتى ان الامير ارسلهم ، وانهم اصدقاء جاءوا للمساعدة ، لم يعد متحمساً للدفاع . اكثر من ذلك اكدّ للذين سألوه عن هؤلاء الاجانب ، كيف ينامون وكيف يتصرفون حين يكونون وحيدين ، اكدّ ان لهم تصرفات عجيبة للغاية ، وان لهم رائحة خاصة . وما الاسراف باستعمال العطور واشعال البخور إلا لكي تغيب هذه الرائحة . كما اكد انهم لا ينامون في ليلة من الليالي قبل ان يكتبوا اشياء كثيرة وربما كانوا يسحرون . وفي حالات عديدة كانوا يتوقفون عن الكتابة ، يتبادلون بعض الكلمات ثم يعاودون مرة اخرى ، خاصة ذلك الذي لا يتكلم العربية ، اذ كان اكثرهم اهتماماً ، كان يشرف على خزن الرمال التي يأتون بها ، ويكتب على الصناديق ، ويضع علامات بالوان واشكال غريبة للغاية . أما في الصباح فإنهم يصلّون بطريقة عجيبة . اذ يبدأون برفع ايديهم وارجلهم في الهواء ، ويحركون اجسامهم كلها ذات اليمين وذات اليسار ، ولا يتوقفون الا بعد ان يزخّهم العرق ويبدأون باللهاث .

قال احد الرجال مخاطباً ابن الراشد :

ـ دوّر تحت الفراش ، تحت الرمل ، يا ابو محمد ، يمكن تركوا وراءهم بلايا مسحورة .

ومتعب الهذال الذي كان يسمع وتتوالى هزات رأسه علّق بلهجة ساخرة :

ابن الراشد لازم ينقل المضافة من المكان كله ، لان الجن سكنها من يوم وصلها الكفار ودخلوها .

ولما وجد نوعاً من الاهتمام والموافقه لما قاله تغيرت نبرة صوته :

ـ حتى لو ما بها جن رائحتهم تقتل الطير .

قال احد الرجال وهو ينهض :

ـ يا جماعة الخير . . الفلاة ، تحت السماء ، اخير من هذا المكان .

بدا ابن الراشد محرجاً ، اذ لا يستطيع ان يدافع عنهم كما فعل في البداية ، كما لا يستطيع ان يتنكر لقيم الضيافة ، قال لينهي الموضوع :

ـ القول قولكم : الفلاة اطيب ، والله يلعنهم ويلعن ساعتهم ، والحمد لله خلصنا منهم .

قال متعب الهذال الذي كان يسير الى جانب ابن الراشد :

ـ وِلّف نفسك من جديد يا ابن الراشد ، تراهم راجعين نوبة ثانية .

رد ابن الراشد بعصبية :

ـ ذكر الشيطان ولا ذكرهم يا رجل .

لم تمض عشرة ايام الا وعاد الرجل الذي يتظاهر انه لا يعرف العربية ، ومعه معظم الاحمال التي حملوها ؛ قضى ليلة واحدة في وادي العيون مع دليله ، وفي فجر اليوم التالي واصل سفره ، أما الاثنان الآخران فلم يعرف عنهما شيء لفترة طويلة .

ويوماً بعد آخر بدأت الحياة الطبيعية تعود الى وادي العيون وأخذت صور الأميركان تبتعد وتُنسى ، إلا في ذاكرة متعب الهذال. الذي أخذ يراقب كل شيء بنفسه . واذا كان قد تعوّد الا يسأل احداً عن الكثير من الامور ، فقد اصبح حريصاً اشد الحرص على ان يستقبل اية قافلة تأتي ، ومن اية جهة تأتي ، فان جاءت من ناحية البحر والشام كان يسأل بشكل مبهم ان رأى المسافرون احداً او شيئاً غير مألوف . أما اذا جاءت القوافل من الداخل فكان يسأل عن رجلين من الجن دخلا الصحراء قبل فترة ثم انقطعت اخبارهما ، وكان يود في اعماقه لو يأتي من يخبره انهما ماتا عطشاً او أكلتهما الذئاب . كان يريد ان يعرف اي شيء عن هذين الغولين ، فاذا جاءت الاخبار من هذه الناحية او تلك غامضة مشوشة ، فلا يكتفي بواحد يسأله ،

اذ كان يتعمد سؤال الكثيرين ، ويتعمد السؤال عن اشياء كثيرة ، حتى اذا سمع كل ما قيل يطيل التأمل والتفكير . أما وضحة التي كانت تشغلها امور اخرى في هذه الدنيا فما لبثت ان دخلت في الجحيم الذي اراده متعب الهذال ، فاذا ضاقت باسئلته . بالعصبية المفاجئة التي اتسمت بها حركاته وتصرفاته ، تقول له بيأس يصل درجة التوسل :

ـ اترك هذه السوالف يا رجل . . الحكومة تعرف اكثر من الجميع .

فيرد عليها بسخرية :

ـ اي والله الحكومة تعرف اكثر من . . .

ولا يكمل عبارته لانه لا زال متردداً . ربما كانت الحكومة لا تعرف ماذا يفعل هؤلاء الشياطين .

• • • •

مرّ الصيف كله وجاء بعده الخريف . وغابت نهائياً صورة اولئك الاجانب الذين مروا في الوادي قبل شهور طويلة ، ولم يعد احد يسأل عنهم او يتذكرهم . ومتعب الهذال الذي ظل خائفا مترقبا ، وجد ان استمرار الحديث عنهم او السؤال يضاعف همومه ومخاوفه . خاصة وان الآخرين بدأوا يضيقون من أسئلته وهواجسه ، ويعتبرون مجرد ذكرهم شؤما يجب ان يبتعدوا عنه . ولذلك طوى متعب الهذال هذا الموضوع او كاد . لكنه مع ذلك لم يستطع ان ينجو من الاحلام والهواجس التي تطارده في الليل . اصبح ليله ثقيلاً صعباً . فاخذ يهرب من النوم ، او يكتفي بنوم ساعات قليلة ، وغالباً ما تكون خلال النهار وبشكل متقطع ايضاً . واذا كانت وضحة وآخرون قد لاحظوا ذلك فقد خافوا عليه ، وتوقعوا ان تنهار صحته ، فاخذت احاديثهم معه تنحو منحى معيناً لعله ينسى . واخذت تصرفاتهم تتسم بمقدار كبير من العناية والشفقة . لكن هذا اللون من الاحاديث ، وهذه الطريقة في التصرف ، بدل ان تخفف عنه وتشغله او تنسيه بدأت تثيره وتجعله اكثر حدة ونطرفاً .

ولما وصل خبر الحالة التي آلت بمتعب الهذال الى ابن الراشد قال لاثنين او ثلاثة حوله ، وقد بدا صوته حزيناً :

ـ العثوم دائماً بهذا الشكل . اذا كبر الواحد منهم يتهبل او يذبح .

وخفض صوته كثيراً ، حتى اصبح همساً :

ـ لازم يسرح بالغنم او يلعّب الاولاد . . متعب الهذال .

اشفق الكثيرون على الرجل واخذوا يراقبون حركاته وتصرفاته ، أمّا هديب فكان اكثر الناس خوفاً وقلقاً ، كان يتصور ان متعب الهذال اذا ترك اولم يشغل نفسه بعمل من الاعمال فان كلام ابن الراشد عنه سوف يتحقق ، قال له في غروب يوم من ايام الخريف ، وقد هبت نسمة عذبة بعد نهار قائظ :

ـ أظنها تكون سنة خير هذه السنة . . يا ابو ثويني . . .

التفت اليه متعب ، وقد فوجيء ، فلما وجده يعُب الهواء بقوة ، ادار رأسه في الافق وكأنه يستطلع الجو ، ثم تابع :

ـ واذا جاء الوسمي وكانت الامطار كثيرة تتغير حياة الناس ويتغير الوادي

ـ الله يسمع منك . . يا ابن أخي .

ـ واشوف بيتك تضعضع يا ابو ثويني ، وخاف يشيله المطر والريح .

وبكثير من البراعة والهمة والتعاون، وبعد أن تجنّد عدد من الشبان، أصدقاء شعلان وأقرباؤه، بدأت على الظهرة عمليات بناء دائبة، رافقها الكثير من المزاح والتحديات، وقد اشترك فيها متعب الهذال نفسه بحماسة كبيرة، وبهمة لا تعرف التعب: رممت الأسوار الطينية، أضيفت الى الحظيرة أجزاء جديدة، أما الأسطحة فقد دُحلت عدة مرات وأصلحت الجوانب، كما جددت بعض الأعمدة الخشبية، ونظفت مساقط المياه. وفي غمرة العمل بدا لمتعب الهذال أنه بالإمكان إقامة غرفة جديدة، خاصة وان وضحة أشارت في الليلة قبل القائتة الى ان شعلان أصبح في سن ووضع يجب معهما التفكير باختيار امرأة له. ولذلك لم يتردد في أن يشرع فوراً بالبناء، ورافق العمل بعض الاشارات الخفية التي تدل على أن أموراً جديدة وهامة يمكن أن تحصل في بيت متعب الهذال خلال فترة من الزمن، وهذه الاشارات لم تكن تحتاج الى فراسة كبيرة لكي تستنتج، خاصة وأن الشبان أثناء جبل الطين أو نقل الحجارة كانوا يتصرفون ويبتسمون بطريقة توحي أنهم يعرفون كل شيء، وكان متعب الهذال يقابل كل ذلك برضى واعتزاز.

ومثلما تغيرت حالته كثيرا في الفترة السابقة ، فقد تغيرت من جديد : اصبح يأكل بشهية وينام نوماً عميقاً متصلاً . كما استعاد قوته وثقته ، وان كانت الاحلام لم

تتوقف عن ملاحقته وإتعابه ، لكنه في غمرة التعب والانشغال الكامل كان ينسى كل شيء .

قبل ان ينتهي البناء والترميم بيومين او ثلاثة ، ومثل عادتها كل صباح وكل مساء جاءت وضحة تحمل ابريق الشاي ، لكي « يشرب النشامة الذين تعبوا وعطشوا » ، قال لها هديب وهو يتناول الابريق والكؤوس :

ـ ابو ثويني رجع اكثر شباباً مما كان .

ـ اولاد الحرام اللي جاءوا طوّشوا رأسه . . والا كان اقوى من الشباب .

ـ راحوا وعسى انهم ما يرّدون .

ـ لا كانوا ولا كان يومهم .

وفي اليوم الأخير ، ذبح متعب الهذال خروفاً عند عتبة الغرفة الجديدة ، وتعالت صيحات الشباب وصخبهم وهم ينقّلون نظراتهم بين شعلان وأبيه ، ويتطلع بعضهم الى بعض ، قال أحد الشباب :

ـ ولّفنا المعلف ، ما بقي الا الفرس

رد متعب الهذال وهو يضحك بصوت عالٍ .

ـ وكلوا الله . ما يحول الحول الا ويعرّس .

سأل هديب بمكر :

ـ شعلان او ابوه ؟

ـ شعلان وابو شعلان يا ابن الحلال .

هكذا رد متعب الهذال ، وقد طغت على الجميع موجة من الفرح والرضا ، وكانت ليلة كبيرة من ليالي وادي العيون .

واذا كان البيت قد رمم تحسباً من الامطار التي قد تأتي ، فلم يكن متعب الهذال بحاجة الى من يقنعه بضرورة تحضير ارض البستان في الوادي وتهيئة بعض البذور . انطلق بنشاط ، قلب الارض مرتين ، فتح فيها أثلاماً ، رفع النباتات الطفيلية والاشواك ، ثم وضع كميات من الزبل وخلطها خلطاً جيداً مع التربة . نظف القناة الشمالية ، التي طمرتها الاتربة والرمال ، استعداداً للامطار وتوقعاً انها ستكون اكثر من سنوات غيرها . قال في نفسه وهو يحفر برغبة وهمة : « هذه الارض مثل الكنز لا

يُعرف ما بداخلها حتى تأتي الامطار .. فاذا جاءت الامطار مبكرة وكثيرة جاء معها العجب ، وتذكر سنوات معينة ، سنوات الخير ، فابتسم ورفع رأسه الى السماء وتنشق الهواء بقوة .

وفي هذه الفترة شعر متعب الهذال انه اكثر قوة ، ولام نفسه انه انشغل بقصة اولاد الحرام الذين مروا بالوادي قبل شهور . قال في نفسه « سالفة وانقضت ، وهذا الوادي ياما شاف وياما سمع .. واللي مروا بالوادي اكثر من التراب ، لكن ما بقى منهم اثر وعسى اولاد الحرام اللي مروا يغيب اثرهم ويغيب ذكرهم » . وأحس اكثر من اية فترة سابقة بروابط تشده الى الارض والنخيل واشجار التين والى الناس في الوادي ايضاً . قال لمقبل ابنه الصغير الذي كان يدور حوله ، وينظر باعجاب الى كل حركة من حركاته :

ـ ذيك النخلة ، الرابعة على اليسار ، بعمرك يا وليدي ، وكل ما تكبر انت يوماً تكبر معك ، وباكر انت تزرع نخلة لابنك وابنك يزرع نخلة لابنه ، وسنة بعد سنة ويظل وادي العيون اخضر ، ويظل الناس يمرون بالوادي ويشربون من ماء الوادي ، ويترحمون على الأموات ، ويقولون ، وهم بظل الشجر ، الله يرحم كل من زرع نخلة وعرقاً أخضر .

وظل مقبل ، مثل كلب صغير ، يدور حول ابيه ، يداعبه ، يقفز على ظهره اذا انحنى ، فاذا انقضى النهار واقبلت الظلمة التصق به ، امسك ثوبه بقوة لا يريد ان يتركه او ان يبتعد عنه ، فاذا وصلا الى العين ، وكان الاولاد قد انتهوا من السقاية ، وساروا بالدواب الى الظهرة كان متعب الهذال يتمهل قليلاً ، يغسل وجهه ويديه من ماء العين ، يترنم فتصدر عنه اصوات فرحة تعبيراً عن الارتياح والشكر ، ثم يواصل طريقه مصعّداً بالتل ، لكنه لا يتوقف عن الحديث الى ابنه ، وهو يدرك ان الصغير لا يفهم اكثر الاشياء التي يقولها ، ومع ذلك يستمر .

قالت وضحة مخاطبة هديب ، وكانا يلمحان طيف متعب يقترب :

ـ سبحان الرب المعبود ، ترى الرجل راح وِرْد

رد هديب بصوت خفيض ، لا يكاد يسمع :

ـ العمل يحيي الرجال ، يا ام ثويني .

وبدا ان كل شيء في الوادي عاد الى حالته الطبيعية ، لكن المخاوف ، ثم تلك الاحلام التي ملأت ليالي متعب الهذال ، لم تنته !

كانت من الامور المألوفة انه اذا جاءت قافلة او سافرت قافلة .. او حتى الرسائل التي قد تأتي من المسافرين ، ان تدفع سؤالاً الى الاذهان او الشفاه : « ما هي اخبار الخوش وما هي علومه ؟ » ان هذا السؤال ، لفرط ما تكرر ووجه الى الكثيرين ، اصبح له معنى خاص ووقع مختلف عن عشرات الاسئلة المماثلة التي تطرح للسؤال عن المسافرين . فالخوش اصبح معروفاً حتى للذين لا يعرفونه . صحيح ان له ملامح تختلف من واحد لآخر ، ولاسمه وقعاً متفاوتاً اشد التفاوت ، لكن لا احد يعيش في وادي العيون او يمر فيه الا ويجب ان تكون له صلة بهذا الانسان بشكل او آخر .

لماذا اصبحت للخوش هذه الصورة ؟ وهل هو انسان حقيقي من لحم ودم او مجرد شخصية من نسج الخيال ؟ واذا كان رجلاً حقيقياً فلماذا تحيط به هذه الهالة من الغموض ويثير هذا المقدار من الاسئلة ؟ هل لانه مسافر ؟ الانه لم يعد ولم تسمع اخباره ؟ ولكن المسافرين من وادي العيون اكثر عدداً من المقيمين فيه ، حتى لا يخلو بيت او مضرب في الوادي والظهرة والمنطقة القريبة من مسافر او اكثر . بعض هؤلاء امتد بهم الزمن وطالت غيبتهم ، انقطعت اخبار بعضهم فترات طويلة لكنهم عادوا في النهاية ، او على الاقل بدأت تأتي اخبارهم ثم رسائلهم ومعها تلك الاقمشة الملونة

التي لا ينسى احد من المسافرين ان يرسلها .

هناك اذن شيء يميز الخوش ويجعل له وضعاً مختلفاً عن الآخرين . يمكن لكل واحد من اهل الوادي ان يقول شيئاً ، وقد يكون ما يقوله مختلفاً عن قول الآخرين ، لكن يبقى صحيحاً مع ذلك . فالذين يقولون انه شجاع وان شجاعته مضرب المثل صادقون .. والذين يقولون انه كان اقدر الناس على العدو ، ويستطيع ان يأتي بالجمل الهائج حتى لو كان على مسيرة نصف يوم ، وان كثيرين رأوه متعلقاً بذيل جمل ، والجمل يمرجحه كما لو انه مجرد ثوب او كأنه بلا وزن ، ان هؤلاء صادقون ايضاً .. أما اذا وصل الحديث الى مدى تحمل البشر ، خاصة للجوع والعطش ، وذكرت بعض القصص عن رجال تحملوا ، فان اكثر القصص اثارة تلك المتعلقة بالخوش . هذه امور لفرط ما تكررت واستعيدت اصبحت مألوفة الى درجة كبيرة ، ومع الأيام فقدت اثارتها وبريقها ، الا في لحظات التحدي او امام الغرباء . لكن ما ظل مثيراً في امر الخوش طريقة اختفائه .

فبعد ان سافر في قافلة السالمي ، واستمر معها حتى الجوف ، لم يره احد بعد ذلك . اختفى دون انذار وبلا مبررات واضحة ، ولولا ان المسافرين الذين كانوا في القافلة اكدوا انه استمر معهم ، ثم تركهم في الجوف ، بعد مسيرة سبعة ايام من العيون ، لولا هذه التأكيدات القوية الجازمة لقال الناس ان الارض ابتلعته ، او ان حيواناً افترسه . طبيعي لم يسلّم احد باختفائه ، لكن الرجال الذين نقلوا تلك الاخبار كانوا من الثقاة المعروفين ، ثم التواتر الذي حصل بعد ذلك من قبل آخرين . أما القوافل التي جاءت من الجوف فقد ذكرت اشياء متناقضة مضطربة ، وهذه بدورها عززت الشكوك وزادتها ، ورغم ان عدداً من المسافرين ألحّ في السؤال عنه، وتبرع آخرون باستقصاء اخباره ، فان اياً منهم لم يصل الى جواب قطعي ، او الى مجرد جواب يمكن الاطمئنان اليه ، ولذلك انقطعت اخباره دفعة واحدة .

ما كان اختفاء الخوش او انقطاع اخباره ليثير هذا المقدار من الاهتمام والتساؤل ، ثم الشفقة ، لولا تلك الام ، امه . كان ابنها الوحيد ، ومنذ ان مات ابوه ـ وقد حصل هذا قبل سنوات طويلة ـ اكتسبت الام من صفات الرجال ومظهرهم الشيء الكثير ، اذ اضافة الى العناية ببضع نخلات ، وهي ما تبقى لها من مال الدنيا بعد رحيل زوجها ، فقد ربّت ثلاثة او اربعة رؤوس من الماعز وبضع

دجاجات ، وكانت تبيع للمسافرين الحليب والبيض ، وتقدم بعض الخدمات التي يحتاجها هؤلاء ، كأن تصنع حبالاً او ترفو الثياب الممزقة او تجمع بقايا الاشياء التي يتركها المسافرون ، وتظل تعالجها بصبر ودأب حتى تصنع منها شيئاً نافعاً . بهذه الطريقة الصعبة المكابرة ربت الخوش ، والخوش الذي لم يحس بفقد ابيه اول الامر لصغر سنه ، لم يحس بالغضاضة بعد ذلك ، لان كثيراً من الاطفال حوله كانوا بلا آباء ، إما لان هؤلاء مسافرون او لانهم ماتوا .

ظلت الامور تسير بشكل طبيعي ، رغم المصاعب ، حتى كبر الخوش واصبح اقرب الى الرجال ، والأم التي صبرت واحتملت وجدت في الرجل الجديد ، الشجاع القوي ، والذي ينظر اليه اهل الوادي باكبار ، سلوتها ، حتى قال الكثيرون ، بمن فيهم متعب الهذال ، ان الام بعد ان كبر الخوش اصبحت اكثر فتوة وشباباً . لكن ام الخوش التي تسمع مثل هذا الكلام ، دون ان يعني لها شيئاً ، تتصرف بطريقة لا تترك لاحد ان يتجاوز حدوداً معينة ، والناس الذين تعودوا عليها بهذا الشكل واحبوها ، ثم ما اكتسبته من صفات نتيجة العمر والتجربة جعلتها محبوبة اكثر من قبل وموضع احترام وتقدير .

كل هذا جزء من تاريخ الوادي الاقرب الى النسيان ، لان ما تلا ذلك كان هو الذي يحفر في وجدان الناس وذاكرتهم ، تماماً كما تفعل المياه في المنحدرات ، خاصة اذا جاءت سخية مفاجئة . اذ ما كاد الخوش يختفي بتلك الطريقة الغامضة حتى انتهى الفرح وجاءت احزان لا نهاية لها . فالمرأة التي بدأت تسأل المسافرين ولا تجد جواباً ، ما لبثت ان اخذت تنتظر في فم الوادي اكثر ساعات النهار ، لعل قافلة تأتي وتحمل اليها خبراً عن الخوش ، واذا كانت قد تعودت ان تظهر الحزم والصرامة ، وهي تسأل ، وكأن الامر عادي جداً ، تحولت يوماً بعد يوم الى امرأة من نوع آخر : اصبحت تلحف في السؤال ولا تترك احداً في القافلة الا وتسأله ، والذين لا يعرفون الخوش ولم يسمعوا باسمه تتحدث لهم عنه ، كان يلذ لها ان تتحدث الساعات الطويلة .

واهل الوادي الذين عرفوا الخوش وامه حزنوا اشد الحزن ان تنقطع اخباره بهذا الشكل ، وكانوا ، في البداية ، مثل امه حماسة للسؤال عنه ، وتكليف المسافرين ان يسألوا . كتبوا الرسائل الى الاقرباء والمعارف ليوافوهم باية اخبار عنه ، لكن الأيام

تنقضي ولا يأتي خبر ، مجرد خبر . والناس الذين يكادون ينسون الخوش في غمرة العذاب اليومي من اجل البحث عن الرزق ، يطالعهم كل يوم وجه العجوز ، فلا يستطيعون نسيانه يوماً واحداً . كان اكثر وجوداً من الناس الأحياء الموجودين ، وكان وجوده يزداد كثافة ما دام الحزن يغرق العجوز اول الأمر ثم يغيرها فتصبح امرأة لا يدري الانسان كيف ينظر اليها او كيف يتعامل معها . فالحديث الذي لا ينتهي عن الخوش ، بمقدار ما يثير من الابتسامات ، لما يتخلله من حوار واسئلة ، يثير الحزن ، لان العجوز في غمرة الاسئلة والحديث لا تلبث ان تنتحب ، وقد تتكلم بطريقة شديدة الانفعال ، وتختار كلمات بعينها ، وبعض الاحيان تردد ابياتاً من الشعر ، وقد تغنيها .

كانت تفعل ذلك دون ادنى شعور بالخوف او الحرج ، وبحماسة كبيرة وصوت عالٍ ، كأنها تخاطب عدداً كبيراً من الناس . وفي احيان اخرى تخاطب الدجاج والماعز وتتحدث اليها ساعات متواصلة ، وكأنها تروي قصة بلا نهاية .

من يسمع ام الخوش تتحدث لاول مرة يظنها امرأة شديدة الاتزان ، وحين تبدأ برواية قصة سفر ابنها ، ترويها وكأنها تعني امرأة اخرى ، أما التفاصيل الصغيرة الغارقة في ظلام الوادي البعيد المنسي ، والتي تطفو بشكل مفاجىء ، فكأنها حدثت في الليلة الفائتة . تستمر كذلك فترة من الزمن ، ثم فجأة تتغير لهجتها ونبرة صوتها ، تتلفت حولها بفزع ، تتلمس الارض كأنها تخاف ان تنفتح فتصرخ بانفعال :

ـ اسمعوا يا اهل الوادي : المنام ما يكذب . جاءني ثلاثة ملائكة ، كانوا في ثياب بيضاء وقالوا لي : الخوش يكون هنا يوم الخميس . الملاك الكبير له وجه مثل وجه الخوش ويضحك مثله ، وكان الصغير بقوة الخوش ، والثالث ما شفته لانه كان يعطيني ظهره .

وحين يطلب منها ان تكف عن هذا وان تصبر وتنتظر ترد باستهزاء :

ـ يا اهل وادي العيون انتم ظلّام وما عندكم رحم ، انتم تتركون اولادكم مثل ما تتركون الدواب ، وبعد مدة الدابة اللي تنذبح تجروبها وتذبحونها ، والدابه اللي ما تنذبح ترمونها بالحجارة الى ان تبتعد عن الوادي وتموت ، وانا ما اريد اصير مثل اهل الوادي .

وتظل العجوز تردد وتتغّم : « الخميس . . يوم الخميس . . هذا الخميس ، والناس ينظرون إلى بعضهم وينظرون إليها ، وتختلط ابتسامات الشفقة بالتساؤل ، ويقولون في انفسهم : « الدنيا عذبت العجوز ، واكبر العذاب انتظار من لن يأتي » ، لكن احداً لا يستطيع أن يقول كلمة من هذا النوع للعجوز ، لانها قد تقتلها ، ولذلك كانوا يتركونها تنتظر . . . وكانوا ينتظرون معها لعل شيئاً ما يقع .

الرسائل والدراهم وتلك الأقمشة الملونة التي يبعث بها المسافرون كانت مثل حبال خفية تربط المقيمين بالغائبين ، وتجعل المسافرين موجودين بأصواتهم وملامح وجوههم ، وتجعل الحياة ممكنة لهؤلاء الذين لا يتعبون من الانتظار في وادي العيون . كانت ام الخوش تتمنى انتظاراً من هذا النوع . ان ما تريده رسالة تأتيها ، قطعة من القماش الملون ، وليبق الخوش بعد ذلك حيث يريد . أما أن تظل هكذا ، لا تعرف شيئاً ، ولا يقول لها احد كلمة واحدة فإن ذلك اقسى عليها من الموت ، ومع ذلك فإنها شديدة الثقة والتأكد أنه سيأتي ، وهي اذ تبالغ في اكرام القادمين الجدد ، وفي الحوم حول القافلة منذ لحظة الوصول وحتى لحظة المغادرة ، فلانها تتوقع ان تسمع كلمة تؤكد لها ان الخوش لا يزال حياً ، وانه في مكان ما يتاجر ، يبيع ويشتري ، وصار عنده عدد لا حصر له من الابل والغنم .

كانت ام الخوش تفعل ذلك حين تأتي القوافل ، أما إذا رحلت القوافل فكانت تدور في الوادي منذ الفجر وحتى الغروب او بعده قليلاً ، وفي ذلك الطواف الذي لا ينتهي تخاطب الكبار والصغار ، تتحدث مع الاشجار والحيوانات ، وتسأل كل من يصادفها ان رأى الخوش او سمع شيئاً من اخباره . واذا كانت العادة ، في اغلب الأماكن ، ان يصبح هذا النوع من الناس مجالاً للسخرية والتندر ، وبعض الاحيان هدفاً لاعتداء الصبية وتسليتهم ، فان وادي العيون لم يفعل ذلك ؛ لان احداً لم يقل عن هذه المرأة شيئاً رديئاً ، وانما كانت موضع عطف واهتمام الجميع . كانت تدخل البيوت والخيام في الوادي والظهرة وكأنها تدخل بيتها ، وفي تلك البيوت تستقبل استقبالاً كريماً ، ويستمع اليها الرجال والنسوة ويتكلمون معها كلاماً عاقلاً موزوناً .

كان ذلك يجري دون اتفاق او تدبير سابق وانما نتيجة لتلك العلاقات التي تطبع الحياة في الوادي ، وتجعل الناس وكأنهم اسرة واحدة . صحيح ان قرابات من نوع او آخر تجمع الناس هنا ، لكن العلاقات التي تتحكم اقوى من تلك القرابات ، فاذا

سافر الازواج والاخوة كان اصدقاؤهم يهتمون بالنخيل وبزراعة بعض المحاصيل نيابة عنهم . انها عادة من عادات الوادي ، وهذا ما حصل بالنسبة للبستان الصغير الذي كان لام الخوش ، اذ بعد ان انشغلت بهذه القضية لم تعد قادرة على العناية بالنخيل ، أو بزرع القليل من الخضرة ، فتولى عنها ذلك عدد من الرجال . كانوا يقومون به دون ان يكلفهم احد ، وبصمت ، كأنهم يفعلون ذلك لانفسهم ، حتى اذا جاءت بعض النقود ثمناً للثمر الذي يباع للمسافرين اعطوها ما تستحق ، فتنظر الى النقود التي توضع في يدها بفرح وتسأل بلهفة الاطفال :

ـ ها الخوش هو اللي ارسل القريشات ؟

وحين يصمت الذي اعطاها ، خوف ان تجرحها او تبكيها كلمات النفي ، كانت تعابير وجهها تمتلىء بالحزن ويخيم عليها الصمت ، لكن تصرخ فجأة :

ـ هذه الفلوس ، فوق اللي عندي ، تكفي لزواج الخوش !

وتستسلم فترة قصيرة لهذه النشوة ، تضحك ، تزغرد ، تسافر ، تحلم ، ثم فجأة تجهش بالبكاء . كان بكاؤها حاداً مكتوماً في البداية ، ثم ما يلبث أن يصبح اقرب الى الاستغاثة ، حتى ان الانسان لا يطيق ان يسمعه ، فيترك الرجال المكان ، أما النسوة والصبية فانهم ينظرون اليها بدهشة ثم بحزن ، وكثيراً ما كانت النساء يشاركنها في نحيب مكتوم ، حتى اذا هدأت ران صمت ثقيل موجع . واذا كان البدو ، ووادي العيون بشكل خاص ، لا يعرفون البكاء ولا يحبونه ، ويستغربون كيف يبكي الناس او لماذا ، فانهم حين يرون ذلك يصبحون اقرب الى الضعف والحيرة ويغرقون في التشاؤم .

ان ارتباطاً غامضاً حدث ما بين حالة مثل هذه ونوع من البلاء حلّ بوادي العيون بعد ذلك ، حتى ليصعب على الانسان ان يفسر الأمر . واذا كان متعب الهذال قد حضر ذلك اللقاء بين ام الخوش وذاك الذي زرع البستان ورعى النخيل ، ثم ما تلا ذلك من النشوة والضحك فالبكاء ، فقد سمعه اكثر من شخص يقول :

ـ يا رب ، يا صاحب الخيمة الزرقاء ، انت العالي وتعرف ما بالقلوب ، احرس الوادي وجنبه البلاء .

وتذكر هو ، وتذكر آخرون المرة السابقة ، حين جاء احد البدو من الداخل ، من مكان بعيد ، وقد لفت نظر متعب الهذال الحَول في عينيه وافتراق اسنانه العليا .

هذا البدوي الذي حمل لأم الخوش مبلغاً من المال ، وهي بين سؤالها عن الخوش ، وفرحتها ان امراً جديداً يحصل ، رفض الرجل ان يقول شيئاً قبل ان يحضر بعض الناس ، فلما جاء عدد منهم ، وكان متعب الهذال من بينهم ، اوضح الرجل ان عبد الله المكتوم . والد الخوش ، كان قد يضعه في يوم من الأيام ، وقد جرى هذا قبل عشرين عاماً او اكثر ، وانه الآن جاء ليرد ما بذمته من مال ، ويريد ان يكون الموجودون شهوداً .

هذه الحادثة ، وما تخللها ثم ما تلاها من فرح وبكاء ، لم تمض عليها الا بضعة اسابيع حتى حلّ بالوادي مرض غريب قضى على عدد كبير من البشر والماشية ، وقال بعض الناس انه اصاب الاشجار ايضاً .

تذكر متعب الهذال هذا الحادث وما تلاه حين وصل الاجانب الثلاثة ، وتأكد ان امراً مشؤوماً لا بد ان يقع . لم يكن متأكداً من افكاره وهواجسه ، لكن شعوراً قوياً ملأه وسيطر عليه ، وظل تحت وطأة هذا الشعور فترة من الزمن يردد :

- اذا كان بدوي واحد اسنانه فرقاء وعينه حولاء جاب كل البلاء فهذه المرة . وبعد ان جاء اصحاب العيون الزرق والاسنان الفرق لا بد ان يفنى الوادي ويهلك البشر !

صحيح ان الكثيرين لم يشاركوا متعب الهذال افكاره وقناعاته اول الامر ، ولم تملأهم الهواجس التي ملأت رأسه ، لكن ما كان لاحد ايضاً القدرة على اقناعه بعكس ذلك ، وهو نفسه إذا كان عاجزاً عن تفسير هذه الرؤى والهواجس ، لا يستطيع أن يقتنع بغيرها . واهل الوادي الذين استقبلوا الاجانب بنوع من الترقب والحذر ، وكان حب الاستطلاع لديهم اقوى من الشك ، فان حالة متعب الهذال اختلفت عن ذلك كثيراً ، وهذا يفسر جزءاً من الافكار والسلوك الذي ملأ عقله ووجدانه في تلك المرحلة .

ما كاد متعب الهذال يتخذ تلك المواقف التي بدت غريبة لبعض الناس حتى سرت الهمسات ثم التساؤلات : « لم يكن الرجل بهذا الشكل ، وهؤلاء الشياطين الذين جاؤوا لا بد أن يرحلوا غداً أو بعد غد ، لكن « السودا » التي اصابت متعب الهذال لا احد يعرف متى تخرج منه » ويصمتون قليلاً ثم يضيفون : « اصبح مثل ام

الخوش لا يمكن التفاهم معه » .

ام الخوش تذرع الوادي من اقصاه الى اقصاه ، وقد بدت ، اكثر من اية مرة سابقة ، مشعثة الشعر ، شديدة الحزن والانفعال ، وكانت تردد كلمات بدت غريبة لكل من سمعها : « قبل حلول الحول القيامة تقوم والوادي يحترق » .

يتذكر الرجال هذا حين وصل الاجانب الثلاثة ، لان ام الخوش التي رابطت عند مضافة ابن الراشد لا تتركها لحظة واحدة في اليوم الأول ، تريد ان تسأل هؤلاء الاجانب عن الخوش ، هل رأوه او سمعوا عنه شيئاً ، والاجانب في انشغال كامل عنها ، يسألون عن مواسم الامطار وايام الحرارة ، واماكن المياه ، وعن الرمال كيف تتحرك وفي اي الاتجاهات ، والقوافل متى تأتي وكم تبقى ثم اين تذهب ، وغير ذلك من الاسئلة التي تهمهم ، وهي التي تنظر بعيون مدهوشة وتتابع كل حركة تصرخ بين فترة واخرى :

- يا جماعة الخير . . من منكم سمع علوم الخوش ؟

وحين لا تجد جواباً تصرخ بصوت اعلى :

- يا جماعة اللي سمع منكم علوم الخوش يعلمني . . وما يخاف .

ورجال الوادي الذين سمعوا هذا السؤال آلاف المرات ، وليس لديهم جواب عنه ، لا يعرفون كيف يداورون هذه المرأة وكيف يصرفونها . أما الاجانب الذين كان يخرجهم السؤال ، بين فترة واخرى ، عما هم فيه ، فلا يفهمون ما تقوله العجوز ، ولا يعرفون ان كان الكلام موجهاً اليهم ام الى غيرهم ، خاصة وان النظرة الاولى لوجه المرأة توحي بالحذر وما يشبه الخوف ، حتى اذا صرخ في وجهها ابن الراشد :

- يا بلية كفي شرك - الجماعة ما يعرفون الخوش وما عندهم علومه .

قامت ام الخوش ، اقتربت من ابن الراشد ، نظرت اليه باستهزاء ، ثم نظرت الى الضيوف الثلاثة الذين تحركوا الى الوراء حركة لا شعورية نتيجة الخوف وفيما يشبه الدفاع عن النفس . كانت نظرتها اليهم متفحصة متهمة ، ولقد استمرت فترة غير قصيرة ، والسكون يمتد ثقيلاً منذراً فوق الجميع ، حتى اذا ضاق ابن الراشد ذرعاً وتوقع شراً صرخ باحد رجاله :

- خذوا البلية من وجوهنا .

وبحركة عصبية ازاحت ام الخوش يديها الى الخلف ، كأنها تحاول ان تفلت من ايدٍ وهمية تصورت انها ستطوقها ، ونظرت بنصف وجهها الى اليمين ثم الى اليسار ، وبهدوء تراجعت بظهرها الى الخلف بخطوات صغيرة ، لكن ظلت تصوب عينيها بحقد واستهزاء الى ابن الراشد ، وما كادت تبتعد بضع خطوات اخرى حتى بصقت على الارض وقالت :

ـ سيحترق هذا الوادي . . وانت اصل البلاء .

ولكي يبقى ابن الراشد مسيطراً ، وفي محاولة لان يكتم انفعالاته ، قال وهو يضحك بعصبية :

ـ خذوا الحريمة . . خذوها .

يتذكر الرجال الذين كانوا في المضيف هذا الذي وقع ، ثم يتذكرون ام الخوش كيف بدأت تذرع الوادي ، وتتكلم بتلك الطريقة الصاخبة ، وحين تتعب من ذلك تختار مكاناً قريباً من مضافة ابن الراشد ، لكن دون ان تقترب الى الدرجة التي تعرّضها للاهانة او الطرد ، لعلها تظفر بسؤال هؤلاء الاجانب ان كانوا قد رأوا الخوش او سمعوا عنه شيئاً ، لكن ابن الراشد الذي داخله الخوف ان تتصرف ام الخوش تصرفاً قد يسّبب اذى لهؤلاء ، ثم الحذر الذي بدا من الاجانب انفسهم ، وابتعادهم قدر ما يستطيعون عن هذه المرأة « الشرّيرة » ، منعاها تماماً من طرح ذلك السؤال او الظفر بجواب عنه !

بعد ان انشغل الوادي اياماً بالاجانب الثلاثة ، وظلت الاسئلة والهواجس تدور مثل زوبعة الصحراء ، ما دام هؤلاء موجودين ، ثم بعد رحيلهم بفترة قصيرة ، بدأت الحياة تعود الى سابق عهدها ، اذ اخذ الوادي يتطلع الى هذه الجهة ويتطلع الى الجهة الاخرى منتظراً وصول القوافل والمطر والمسافرين ، لكن الهاجس الملعون الذي توارى في قلوب اكثر الناس برحيل الاجانب ، ظل يرفع رأسه ويلحّ على اثنين : ام الخوش ومتعب الهذال .

لقد تأكدت ام الخوش بعد رحيل الاجانب انهم ما جاءوا الآ ليبلغوا الوادي امراً متعلقاً بالخوش ، ولهذا السبب ابعدوها عنهم ، لم يتركوا لها فرصة لكي تسألهم وتعرف ، والا لماذا بدا الفزع على وجوههم عندما اقتربت منهم في مضافة ابن الراشد وصمتوا حين سألتهم ؟ هل قتلوه وجاءوا لكي يصالحوا على دمه ؟ واذا كان هناك من

يصالح بعد رحيل عبد الله المكتوم فليس غيرها ، لكن لم يسألها احد ، لم يتكلم معها احد ، وحتى لو لم يكونوا هم القتلة فلا بد ان يعرفوا الشيء الكثير عنه ! ثم الا يحتمل ان يكون الخوش قد اصبح غنياً ويملك الشيء الكثير وارسل هؤلاء لكي يبلغوا وادي العيون اين هو وكيف اصبح ؟ ولو قال هؤلاء شيئاً عن الثروة التي يملكها الخوش الا يجب ان تعرف ؟ اليست امه وارضعته من صدرها ؟ وهم ، من يعرفه مثلها ومن يحبه مثلها ؟ ولماذا يتقاسمونه وهو حيٌ وهي لا تدري ؟ .

كانت متأكدة ان شيئاً ما قد اصاب الخوش . كان ابن الراشد والسحيمي وعبد الله المعيوف يمازحونها من قبل . كانوا يقولون لها « اصبري . . الصبر مفتاح الفرج ، باكر يجي الخوش ويعرّس وتفرحين ، وكل وادي العيون يفرح . . بس وكلي الله ! » كانوا يقولون هذا ويقولون اكثر منه . وفي احيان اخرى كانوا يمزحون ويسألون ، اذا كانت تنوي الزواج بعد عودة الخوش ، فاذا قلبت شفتيها دلالة السخرية والاستنكار كانوا يقولون بتأكيد « سوف تحنين يديك ورجليك ، وسوف ترقصين سبعة ايام وسبع ليالٍ ، وحتى لو جاء الخوش ومعه حريمة راح تظلين وراه حتى تزوجيه مرة ثانية ! » وحين تسمع مثل هذه الكلمات تطوف في رأسها الصور والخيالات فتفرح ، تبتسم ، تتطلع الى البعيد ، تحس بنشوة ، لكن فجأة ترتعش وتعود بسرعة ، تتطلع الى وجوه الذين يكلمونها ، تتطلع اليهم بتلك الطريقة الوحشية ، وكأنها تريد ان تكتشف ما وراء الكلمات التي تسمعها . والرجال الذين يديرون وجوههم بسرعة ، خشية ان تلتقي نظراتها بنظراتهم ، كانوا يخافون تلك العيون .

اما الآن ، في مضافة ابن الراشد كان السحيمي والمعيوف وآخرون ، لم يتحرك احد منهم حين حاولت ان تسأل الاجانب الثلاثة ، تركوا ابن الراشد يطردها كما تطرد الكلاب . نسوا الكلمات التي كانوا يقولونها لها . نسوا ايام كان عبد الله المكتوم حياً ، ونسوا الخوش تماماً . لا . . . انهم لم ينسوا شيئاً ، لكن الشياطين الثلاثة جاءوا ليقولوا لهم ان الخوش مات ، او انه لا يريد ان يعود . لو انهم ابلغوهم بشيء آخر لقالوه لها ، يمكن ان توافق على ان يبقى حيث هو ، وان يتزوج ، أما اذا بقي فقيراً فقد كان ابوه قبله فقيراً ، الفقر لا يشين احداً . تحملت الكثير ، ولا تزال قوية وقادرة على التحمل . واذا كان قد مات فمن دفنه ؟ واين دفن ؟ ولماذا لا

تعرف ؟ هل يبدو هؤلاء الشياطين انهم هم الذين قتلوه او يعرفون من قتله .. ؟ كانوا يدفعون الليرات الرشادية والانكليزية ثمناً لقطع صغيرة من القماش وبعض الصناديق المصنوعة من سعف النخيل .. هل هم مجانين ليدفعوا كل هذه الفلوس لو لم يكونوا قد قتلوه ؟

قال الكثيرون من اهل الوادي « المرأة ودّعت . كان فيها رجاء قبل فترة .. أما اليوم .... ؟ » .

ويمد احد الرجال يده الى فمه حين يسمع هذا الكلام . يضع الابهام على الاسنان الامامية العليا ثم يسحبه بسرعة دلالة على انه لم يبق شيء .

وام الخوش التي اصبح ينظر اليها هذه النظرة اخذ يتجنبها الكثيرون ، يديرون وجوههم اذا مرت ، يصمتون اذا جلست في مكان قريب . ولم يتردد البعض في ان يطلب من الصبية ، وقد جرى ذلك بشكل خفي ، ان « يسرحوا » بها ! والصبية الذين كانوا يبدون التردد ، وبعض الاحيان الخوف في ان يسيئوا اليها خلال الفترات السابقة ، خشية تأنيب الكبار وعقابهم ، اصبحوا الآن شديدي الحماس لتنفيذ ما يُطلب اليهم . كانوا يتفنون في اختراع عشرات القصص والحيل ، لكي يبعدوها عن الرجال ، وعند ذلك لا يتركون طريقة او كلمة لاثارتها : « الخوش رجع .. رأيناه عند العين » « جاءت قافلة والرجال هناك يسألون عن ام الخوش » .

ان ما جرى في هذه الفترة بمقدار ما يثير من الضحك ، والذي لا يمكن مقاومته ، خلّف احزاناً لا نهاية لها ، لان المرأة التي تركض مثل كلبة لاية كلمة تتعلق بالخوش ، تصدق كل ما يقال لها . وتبدو في حالات كثيرة اقرب الى الاطفال في ابتساماتها وركضها ، حتى اذا اصطدمت بالفراغ ، بوحشة الامكنة ، باللاشيء ، اقتعدت الارض وبدأت تبكي . كان بكاؤها يقطع القلوب ، يسحقها ، والاطفال الذين تسببوا في كل ذلك ، وكانوا يركضّونها ويركضون معها ، وهم يضحكون ويصرخون ، حتى هؤلاء او بعضهم يصاب بحالة من الالم والانفعال حين يرونها قد انهارت وأصبحت كومة من النشيج .

الرجل الوحيد ، او من الناس القلائل ، الذي استمر على نظرته وموقفه ، لا بل زاد عطفاً عليها هو متعب الهذال . أصبح يتعمد ان يكون قريباً منها اغلب الاحيان ،

لكي يمنع عنها الاذى ، ويطرد الاطفال ، ولكي ينقذها من حالة الانهيار التي تهدّها اذا سقطت في موجة البكاء والنحيب .

كان يقول لها كلمات طيبة لكي يعيدها الى حالة من التوازن ، وبعض الاحيان يربت على ظهرها طالباً منها ان تكُف عن هذا البكاء الذي لا يليق بها ، وكان يقول لها ان الخوش نفسه لو رآها على هذه الحال لا بد ان يستبد به الغضب ، وشيئاً فشيئاً تكف وتهدأ ، ثم لا تلبث ان تعود الى حالة من الصفاء فتتكلم كلام العقلاء وتستمع الى ما يقال ، وقد تتذكر الاشياء القديمة وبعض الاشعار فلا تتردد في ان تقولها .

لم تخطىء توقعات هديب ولم يخب أمل متعب الهذال ، اذ سقطت على وادي العيون وعلى المناطق المجاورة امطار مبكرة وغزيرة . فتفاءل الناس وفرحوا ، وتوقعوا ان تكون هذه السنة من سنين الخير . وقد زاد في التفاؤل ان القوافل التي وصلت الوادي في أواخر أيام الخريف ، ثم بعد ذلك ، أكدت ان الأمطار وقعت على مسيرة أيام ، وان الأودية سالت والغدران امتلأت . وقد عزّز التفاؤل ان أسعار بعض المواد التي حملتها القوافل لم ترتفع ، كما هي العادة كل سنة في مثل هذا الوقت . اما الجو فقد أصبح اقرب الى البرودة المنعشة ، امتلأ الهواء بالرطوبة ، واصبحت الريح الخفيفة التي تهب من جهة الغرب والشمال ، في بعض الليالي ، تحمل معها رائحة الخصوبة ، وتخلق في الجسد والروح معاً حالة من العنفوان . كان هذا يظهر واضحاً في كل شيء ، في الانسان والحيوان وحتى في الطبيعة القاسية الجامدة . وتتذكر وضحة ان شعلان ، لأول مرة ، قال لها انه يريد أن يتزوج ، لكنه لم يلحّ ولم يتشبث ، ورغم انها لم تجبه بوضوح ، فقد ضحكت من الفرح ، واكدت انها حالما تفرغ من هديب ، الذي اتعبها ولم يقتنع ولم يوافق بعد ، سوف تتفرغ له ، سوف تختار له أجمل فتاة في وادي العيون ، فاذا لم تعجبه اية واحدة منهن فلن تتردد في الذهاب الى عجرة ، وسوف تستعين هناك بقريباتها .

أما متعب الهذال الذي تغيّر كثيراً ، خاصة بعد الأمطار الغزيرة ، فقد اصبح يقضي يومه كله في البستان الصغير الذي يملكه ، رغم أن لا عمل له فيه ، ورغم ان وجوده او غيابه لا يغيّر شيئاً ، لكن كان يروق له ان يرقب قطرات الماء وهي تنحدر الى باطن الأرض ، حتى اذا استقرت هناك ، بدأت بجنون تفعل اشياء لا يصدقها العقل ولا يستوعبها الانسان . فبعد أيام قليلة من وقوع الأمطار ، وكما قال متعب الهذال نفسه ، اهتزت الأرض اهتزازاً طويلاً موصولاً ، أقرب الى الارتجاف ، وبدأ باطن الأرض يتدفق الى خارجها . قال هذا بحمى وهو يتحدث الى هديب ، بعد ان رأى كثيراً من البذور التي نثرها قبل اسابيع ، وقد بدأت تندفع من داخل الأرض بقوة وترفع رؤوسها الصغيرة ، بل وكانت تكبر في كل لحظة . وفي محاولة لأن يقنع هديب ، ويعبر له عن الأحاسيس التي شعر بها في أوقات عديدة ، خاصة ارتجاف الأرض ، قال ان ذلك يشبه الالتحام بين رجل وامرأة ، ويشبه لحظة النشوة التي يحس بها الانسان .

ورغم ان متعب الهذال كان يعبر بصدق عما أحس به ، فقد تعمّد ان يستعمل هذه الطريقة وهذه الأوصاف ، في محاولة ماكرة منه ليحرض هديب على الزواج ، كما اتفق مع وضحة على ان يفعل . أما عندما اسرّت في أذنه ان شعلان يريد ان يعرّس ايضاً ، وقد حدثها في الأمر ، فقد ضحك متعب بصوت عالٍ ، وقال ان بناء الغرفة الجديدة فأل حسن ويدل ايضاً على بعد النظر .

في هذه الفترة خيّمت حالة من الرضى على أهل وادي العيون كلهم حتى ام الحوش اصبحت اكثر هدوءاً ، وقد أحس رجال القوافل بالأمر قبل غيرهم ، وقبل ان يدرك اهل الوادي ذلك . وابن الراشد الذي كان لا يوفّر احداً من تعليقاته ولسانه اللاذع ، والذي قال في أكثر من مكان ان متعب الهذال انتهى ، ولم يبق أمامه الا أن يسرح بالغنم ، ما لبث ان قام بزيارته في البستان اولاً ثم في الظهرة بعد ذلك ، وقد بدا خلال الزيارتين ودوداً طيباً ، فلم تخرج منه أية كلمة يمكن ان تفسر على أنها تعريض ، بل وبدا لكثيرين ان العلاقة بين الاثنين اقوى وأمتن مما تصوروا او افترضوا . أما عندما جاء ذكر الاميركان عرضاً فقد قال بنوع من الضيق :

ـ أيام وراحت يا ابو ثويني ، تتذكر ما تنعاد .

وأشار بعد ذلك ، بأكثر من طريقة ، الى انه لو تُرك وادي العيون وشأنه لعاش بسلام ورضا ، ولظل محطة أساسية في الطريق لا غنى عنها لأكثر القوافل .

وفي هذه الفترة ايضاً وافق هديب على أن يتزوج . لقد عبّر عن هذه الموافقة بطريقة غير مباشرة ، قال أمام متعب وضحة انه لا يعترض على فكرة الزواج ، ويمكن ان يتزوج غداً أو بعد غد ، اذا وجد بنت الحلال التي تناسبه . ووضحة التي اعتبرت هذه الموافقة كافية ، قالت لتحسم الأمر :

ـ اترك بنت الحلال عليّ .

وضحكوا ثلاثتهم وبدأت هي تستعرض في ذاكرتها المرشحات واحدة بعد واحدة ، وما زالت توافق وتستبعد وتتردد ، الى ان تقدم الليل ، فتركت الأمر للغد لكي تتابعه .

حتى متعب الهذال الذي قضى فترات طويلة يرقب الأشجار والزرع ، وانقطع عن القوافل ومضافة ابن الراشد ، احس أنه لم يعد بحاجة إلى الأخبار ، وإن الأخبار لو تأخرت عليه يوماً او اثنين فلن يغيّر ذلك شيئاً . أما حين بعث ابن الراشد يعاتبه ، ويذكّره انه زاره مرتين ، وان انقطاعه الطويل عن المضافة لا يمكن ان يفسر او يفهم من الآخرين على أنه موقف ودي ، فقد رد عليه مع شعلان ان الذي يؤخره هو الزرع فاذا نما واستوى فسوف يزوره .

استمرت الأمور هكذا من مطلع الخريف الى منتصف المربعانية ، وقد تأكد تماماً خلال هذه الفترة ان المياه ستكون كثيرة ، وستصل الى نهاية الوادي ، فالقناة الشمالية سالت من الأمطار ، والعشب ملأ الفلاة كلها ، أما الحيوانات فقد انتفخت وتوقع الكثيرون ان تلد الشياه اثنين اثنين . أما الكلاب فقد أصبحت تسلية للكبار والصغار معاً وهي تتعارك وتتهارش ثم تتجامع فتستعصي ! وفواز الذي ذكر اباه بوعده ، طالباً منه بأن يسمح له بالسفر في فترة قريبة ، فقد رد عليه في احدى الليالي وكان المطر كثيفاً متواصلاً ، قال وهو يقلب القهوة في محماسه :

ـ يا وليدي تنتظر الى أن يعرّس اخوك ، ونحصد الشعير وبعدها الله كريم .

ولما أراد فواز أن يعترض ، وقد بدا ذلك من نظرته ، رد أبوه وهو يضحك :

ـ الخان ضاق باللي فيه ، والجماعة فوق بعضهم من أيام ، يخافون من السفر

والسيل ، وانت تريد تسافر ؟

وباشارة خفية ، لكن شديدة التأثير ، رغم أنها دون كلمات ، غمز هديب بعينه ، طالباً من فواز ان يؤجل الموضوع ، وانه سيتولى عنه ترتيب كل شيء ، فأخذ الحديث مجرى آخر وتأجل السفر وتأجلت امور اخرى كثيرة .

* * * *

في الأيام العشرة الأخيرة من المربعانية ، وعلى حين فجأة ، دون توقع أو انتظار ، وصل الى وادي العيون ذلك الأميركي الذي سافر قبل شهور طويلة ، وصل ومعه اربعة آخرون وعدد من رجال الأمير . كان متعب الهذال قد سماه النحس ، وسماه آخرون الغراب، أما هذه المرة فقد جاء باسم جديد : عبد الله . لا أحد يعرف من أعطاه هذا الاسم او لماذا . كان رجال الأمير يسمونه بهذا الاسم ، وكان هو اذا تحدث الى أحد او سأله أحد أي سؤال يدق على صدره مرة أو مرتين ويقول : « عبد الله .. عبد الله ! » .

خلال أيام قليلة تغير كل شيء في وادي العيون : البشر والطبيعة والحيوانات .. فما كاد هذا الأميركي ورفاقه ومرافقوه يمضون بضعة أيام حتى وصل الى الوادي عدد كبير من الناس . بشر بأشكال وألوان لا تخطر على بال ، فيهم القصير المليء الأحمر الشعر ، والطويل الذي يستطيع ان يمد يده ويقطف الثمر . فيهم الأسود الذي يشبه الليل ، وفيهم الأشقر والأحمر ، أجسامهم تشبه الخراف المذبوحة ، عيونهم زرق ، وأشكالهم تدعو الى الخوف والتساؤل . جاءوا على الجمال والخيل ، وجلبوا معهم اشياء لا حصر لها من الصناديق والأحمال والخيام ، وخلال فترة قصيرة ، غير بعيد عن نبع الماء ، انزلوا الصناديق والأحمال ونصبوا الخيام . بدا المنظر الذي تكون خلال ساعات قليلة أشبه ما يكون بالحلم ، ومتعب الهذال الذي لم يفطن للأمر بسرعة ، لأنه كان في البستان ، انتفض وهو يسمع ما يقوله الآخرون ، ثم اصفر لونه ، وفي لمح البصر هرول الى العين ، الى مضافة ابن الراشد ، ليعرف اي شيء حصل في وادي العيون .

كثيرون يتذكرون لحظة وصوله ، يتذكرون كيف كان يرتجف مثل سعفة ، وكيف كان ينظر كذئب ، أما وهو يرقب إقامة المعسكر فقد كانت الشتائم تتساقط

على رؤوس الناس كما يتساقط المطر . كان يريد أن يحطم وان يدمر ، لكن الكثيرين منعوه . . وقال الكثيرون في وقت لاحق :

ـ كان متعب الهذال على حق . . . نعم كان على حق !

* * * *

ما كاد المعسكر يقام ، والاحمال تنزل وتنظم ، والرجال يخططون الأرض ، ويقيمون سياجاً من أسلاك ، ووراءه أخشاب بيضاء قصيرة ، ثم ينثرون مواد غريبة حول الخيام ، ويرشون الأرض بماء له رائحة نافذة ، حتى بدأوا يفتحون صندوقاً خشبياً كبيراً ويخرجون منه قطعاً حديدية سوداء ، وخلال فترة قصيرة أخذ صوت يشبه الرعد ، يهدر من هذه الآلة ، ففزع البشر والحيوانات والطيور ، وبعد عدة دقائق من الهدير والدويّ رفع أحد الأميركان يده مشيراً الى آخر فهمد صوت الآلة ، وخلّف في الآذان دوياً قوياً ظل يطن فترة طويلة من الزمن .

ما كاد هذا يتم ، وبطريقة سريعة تشبه لعبة يؤديها بعض السحرة ، والناس يراقبون كل ما يجري بصمت وخوف ، حتى بدأت الشمس تميل نحو الغروب ، وبدا أن وادي العيون يعيش ليلة لم يعش مثلها من قبل . لكن ما إن بدأت أصوات الحيوانات تملأ ساعة الغروب ، حتى هدرت تلك الآلة من جديد ، وبصوت افزع الجميع ، ورافق هديرها هذه المرة أضواء قوية تخطف الأبصار ، وخلال فترة قصيرة اشتعلت عشرات الشموس الصغيرة القوية ، وامتلأ المكان بنور ، لا يمكن للانسان ان يتصوره او يتحمله . تراجع الرجال والصبية ونظروا الى الأضواء مجدداً ليتأكدوا انهم لا يزالون يرونها، نظر بعضهم إلى بعض بخوف وتساؤل . أما الحيوانات التي كانت تقترب تلك الأثناء فقد تراجعت بذعر ، فهجّت الجمال ، واضطربت الغنم . قال متعب الهذال الذي كان يقف غير بعيد عن المكان ، قال بصوت قوي ليتغلب على الخوف وعلى صوت الآلة :

ـ ارجعوا يا أهل وادي العيون . . إذا لم ترجعوا حرقتكم النار وما بقى منكم أثر .

هذه الذكرى التي تبدو باهرة ، غير ممكنة التصديق ، في بداية الأمر ، تحولت مع الأيام الى شيء عادي ، لأن الرجال الذين ظلوا فترة من الزمن صامتين يرقبون كل شيء بذعر ممزوج بالترقب ، ما لبثوا أن تعودوا ، وتجرأ ابن الراشد وسأل

الغراب ليشرح له كيف تولدت هذه الأضواء، وهذا الصوت ، ورغم ان الشرح طال وتخللته تفاصيل كثيرة ، لم يستطع احد ان يفهم شيئاً .

توقع الناس وانتظروا حصول أشياء كثيرة في الليلة الأولى ، مثلما يتوقع الانسان الرعد بعد البرق ، لكن شيئاً من ذلك لم يحدث . وانقضت هذه الليلة ، وانقضت ليالٍ بعدها والخوف لا يزال قوياً في القلوب ، الا أن الحركة الغامضة التي بدأت في كل مكان لم تترك مجالاً لسؤال بعينه ، لأن كل حركة ، وكل سكنة لا بد أن يعقبها شيء ما . وهؤلاء الأجانب الذين يتحركون ويصخبون ، ويرفعون أيديهم باشارات كثيرة ، ويتصرفون بغرابة غير مألوفة ، لم يحسوا بوجود الناس حولهم او باستغرابهم ، كانوا في انشغال كامل عنهم ، وفي اللحظات القليلة ، خلال الحركة والانتقال من مكان لآخر ، وحين يصطدمون بالرجال والأطفال ، يمدون أيديهم الى الأكتاف يربتون عليها أو الى الخدود يداعبونها . كانوا بهذه التصرفات وكأنهم يداعبون حيوانات أو مخلوقات غريبة .

كل الذين رأوا متعب الهذال في الليلة الأولى لاحظوا اصراره على الجميع ان يبتعدوا عن المكان ، وان يظلوا منتبهين طوال الليل . إذ لا بد ان يحصل شيء ما قبل أن يطلع فجر اليوم التالي ، كما أصر ايضاً على ان يُبعد الأطفال والنسوة ، ويخرجوا الى الظهرة . أما هو فقد ظل متوقعاً في كل لحظة ان يتفجر المكان ، ويخرج منه هؤلاء ، بعد أن يسدوا المنافذ ، شاهرين اسلحتهم في محاولة لأن يقتلوا جميع الناس .

لقد رأى متعب الهذال رأي العين اشياء عديدة غامضة حصلت وراء الأسلاك ، ونبه عدداً من الرجال الى ذلك ، وظل طوال الوقت شديد الانتباه والحذر ، لأن شخصاً طويلاً أسود كان يترقب وينتظر اللحظة المناسبة لكي ينقضّ ويقتل ويفتك ، الا أن عيني متعب الهذال اللتين لم تعرفا النوم ولم تغمضا لحظة واحدة ، فوتت على ذلك الشخص ان يفعل شيئاً ،لكن في غبش الصباح لم يعد يرى الشخص نفسه ، وانما رأى مكانه ، أو الى جانب المكان الذي كان فيه ، عموداً !

كيف استقبل الرجال في وادي العيون هذا الذي حصل وكيف كان رد فعلهم ؟ اية مخاوف وأية أوهام استبدت بهم ؟ والناس في الظهرة هل كان وضعهم افضل من

الذين كانوا في الوادي ؟

إن هذه الأمور وعشرات غيرها لا يمكن ان تروى بكلمات ، لأن الكلمات تضعفها أو ربما تغيرها .فالخوف يزيد لحظة بعد أخرى ، والتوقع يسيطر على الناس ويشلهم ، والمفاجأة هي الشيء الوحيد الذي يتكرر بلا انتهاء .

بعد ثلاثة أيام من السهر والمراقبة ، في الليل والنهار ، دون نوم حقيقي ، وبأقل قدر من الأكل والماء ، رجع متعب الهذال الى الظهرة إنساناً آخر . كان شخصاً جديداً تماماً : اذ بعد ان نزل عن فرسه ، وبدا مترنحاً زائغ النظرات ، وفي حالة من الاعياء الشديد او ربما المرض ، سقط عند باب البيت ، ولم تجد محاولات زوجته في ان تقيمه من مكانه . فأتت له بفراش ومساند ، لكي ينام ويرتاح . أما محاولاتها اقناعه بأن يغسل وجهه ويتناول فنجاناً او اثنين من القهوة فقد انتهت دون جدوى ، لأنه بمقدار ما كان رافضاً مصراً كان خائر القوى ضعيفاً ، وبدا في أشد حالات الحزن والأعياء ، وكأن الدنيا في نهايتها . أما حين بدأ يتكلم فقد كان أشد ما يكون وعياً ويأساً ، يقولون : يوم القيامة ؟ اليوم هو يوم القيامة . يقولون : إذا مشى الحديد على الحديد ؟ اليوم رأيت الحديد يمشي على الحديد ! » وبعد ان يتوقف ليفكر يتابع بنبرة اشد : « كان علينا أن نفعل شيئاً منذ وقت طويل يا وضحة ، منذ أن جاءوا اول مرة . عرفت أنهم سيرجعون ، وانهم سيفعلون اشياء لا يفكر بها إنس أو جان . جاءوا . رأيتهم بعيني . في مثل لمح البصر اطلقوا عشرات الجن والعفاريت . وهذه العفاريت تتوقد وتهدر في الليل والنهار ،إنها أشياء مثل رحى الطاحون تظل تدور وتدور دون ان تتعب ودون أن يديرها أحد . ماذا سيحصل في هذه الدنيا ؟ وكيف سنقضي عليهم قبل أن يقضوا علينا ؟ » .

بدا موقفه اقرب الى العناد والبلاهة ، وبدا انه لا يليق بعمره ومنزلته ، فاذا كان الأمر أمر قوة فان أهل وادي العيون والظهرة من الكثرة والشراسة الى درجة أن أحداً لا يفكر بالاعتداء عليهم او غزوهم . أما اذا كان الأمر متعلقاً بالذكاء ورجاحة العقل فان مضارب العتوم والسحيمي والمرزوق والروضان لا تخلو بين اسبوع وآخر من متقاضين جاءوا من أماكن بعيدة ، راضين مختارين ، أن يكون واحد من أهل العيون حكماً بينهم . واذا كان الأمر متعلقاً بهؤلاء الغرباء ، الذين جاءوا الى الوادي ، ونصبوا الخيام يريدون الاقامة ، فلا بد أن توجد طريقة ما لاجلائهم او

التفاهم معهم على الماء ، خاصة وان رجال الأمير معهم هذه المرة ، وليس الحال كما كان حين جاءوا اول مرة .

في الهزيع الأخير من الليل ، سيطر حلم ملعون على متعب الهذال وأرقه فاستيقظ مرعوباً ، ودون ان يكلم أحداً التقط بندقيته وبخفة ركب فرسه ونزل الى الوادي .

لم تحدث جريمة قتل في تلك الليلة ، او في الليالي القليلة التي تلتها ، لأن حالة الذهول في البداية ، ثم حالة الانتظار بعد ذلك ، جعلت كل شيء مؤجلاً . ومتعب الهذال الذي لم يتعود ان يحمل بندقيته إلا نادراً ، اذا كان على أهبة السفر او اذا سمع صوت ذئب قريب من الغنم ، وفي لحظات التحدي ، والتي قليلاً ما تقع ، جعل وضحة شديدة الخوف حين رأته يحمل البندقية ويخرج ، ليس لأنها بطبيعتها تخاف من هذه المشاهد شأن أغلبية النساء ، وتؤثر السلامة على اي مكسب ، وإنما لأن الحالة التي كان عليها متعب الهذال جعلتها شديدة الحذر ثم الخوف ، قالت لفواز الذي استيقظ على ضجة ابيه ، بحزم أقرب الى الأمر :

ـ اذهب وراءه . لا تتركه ، ولا تجعله يراك او يحس بك . . .

وتغيرت نبرتها :

ـ قد يحتاج إليك .

كانت وضحة قادرة على اتخاذ القرارات الضرورية في اوقاتها ، وان بدت امرأة مسالمة ، حتى ليظن من يراها انها لا تستطيع شيئاً . وكلماتها القصيرة الواضحة في عتمة الليل الأخيرة ، جعلت فواز قوياً، لكن عصبياً ايضاً ، ودون اية كلمة وبلا انتظار تبع اباه .

على غير عادته نزل متعب الهذال الى الوادي سالكاً اطول الطرق واصعبها ، وكأنه باختياره ذاك الطريق اراد ان يرى المشهد كله . فبعد ان رأى المعسكر من ناحية الظهرة ، امعن النظر بالوادي والتلال المحيطة به يريد ان يراه من الناحية المقابلة ، او ربما كان يخشى امراً ، ويضمر شراً . قال فواز لنفسه « اذا اطلق النار يشتعل الوادي كله ، لن نكون وحدنا ، لأن اهل الوادي لا يتركون الانسان يحارب وحده ، انهم يحاربون معه حتى النهاية ، وبعد ان تنتهي الحرب يسألون لماذا حاربوا » . لقد سمع مثل هذا الكلام مرات كثيرة ، روى ذلك المسنون والشباب ، والصغار الذين لم يروا حرباً ولم يعيشوا في تلك الزوابع التي يتحدث عنها الكبار ، كانوا في شوق لأن يروا شيئاً من ذلك . أما حين افلتت كلمات من أفواه الفتيان والصغار عن هؤلاء الكفرة وضرورة قتلهم ، فقد نظر الكبار الى الصغار نظرة مستغربة اقرب الى التأنيب ، مؤكدين انهم لا يخافون ، لكنهم لا يستطيعون ان يرفعوا سلاحهم في وجوه الاصدقاء ، وما دام الامير قد ارسل هؤلاء فهم اصدقاء اذن . صحيح ان احداً لم يشعر بالراحة لمجيئهم ، ودخلت الوساوس والظنون الى كل عقل وكل قلب ، لكن لم يفكر احد ايضا ان يرفع السلاح . أما الآن ومتعب الهذال يخب في الظلمة والبندقية على كتفه فلا بد ان يقع امر غير عادي .

لم يكن متأكداً من شيء ، ولأنه بدا متردداً مأخوذاً ، وكأنه لا يصدق ، فان الدروس الأولى التي يتعلمها الانسان في الصحراء ، ان لا يهدد بالسلاح ، ان لا يمزح به ، ليس لأنه يخاف السلاح وانما لأنه يحبه الى درجة لا يقبل ان يكون وسيلة للتهديد او المزاح ،هذه الدروس تتبدد وتضيع ، وكأنه لا يعرفها . كان متعب الهذال ينهر اولاده ، او أي انسان آخر في وادي العيون ،حين يراه يحمل سلاحاً ويوجهه في هذا الاتجاه او ذاك وهو يمزح . قال لشعلان مرة : « لا تلعب بالسلاح ابداً ، لان من يلعب به مرة يلعب به كل مرة . والناس الذين يهابون السلاح الذي يقتل ، والرجل الذي يقتل ، لا يهابون ولا يحترمون الرجل الذي يلعب بالسلاح » . وقال له مرة ثانية « اذا رفعت السلاح فاضرب . . . او لا ترفعه ابداً » .

في ظلمة الفجر ، وهو يخب حاملاً سلاحه ، ثم بعد ذلك الانتظار الطويل ، عند نهاية الوادي ، وهو يربض في مكان وابنه يربض في مكان آخر ، والمكانان لا يبعدان عن بعضهما اكثر من مائة متر ، وحصانه الى جانبه ، وبين فترة واخرى يرفع

سلاحه ، يصوبه الى المعسكر ، ثم ينزل السلاح ، ويبدو في نزوله منكسراً ذليلاً ، حتى اذا رفعه في المرة التالية ، ربما بتصميم اكبر ، كان بعد ذلك ينزله بذل اكبر . وما زال يرفع بندقيته وينزلها ، يجلس ثم ينهض ، يغير من وضعية الرمي مرة بعد اخرى . . ولا يفعل شيئاً ، حتى اذا ارتفعت الشمس وملأت الدنيا ، لم يعد فواز يتوقع ان يفعل ابوه شيئاً ، كما لم يعد قادراً على ان يظل مختبئاً ، فما كاد ينهض من مخبئه ويصرخ منادياً على ابيه ." وما كاد يلتفت ويراه حتى اصابته حالة من الفزع والارتباك . كان يود ، في تلك اللحظة ، لو تنشق الأرض وتبتلعه ، لو يموت ، او لو يطلق النار على نفسه او على حصانه او على المعسكر . أما حين تقدم فواز من ابيه فقد رآه مصفر الوجه ، زائغ النظرات ، وكانت شفته السفلى ترتجف من العصبية والانفعال . وكانت يده تزحف بسرعة على ماسورة البندقية صعوداً وهبوطاً ، وهي اقرب الى التشنج . لم يكن في تلك اللحظة مستعداً لأي حديث ، حتى عندما سأله فواز ان كان رأى ذئباً أو عدواً ، فقد حرك رأسه دلالة النفي ، دون ان يتكلم ، لكن قالت عيناه اكثر من اللوم واقسى من العتاب . قالت عيناه « باطن الأرض خير من ظاهرها ، ولا اريدك ان ترى ضعفي . . ان تراني هكذا » .

بعد وقت غير قصير والصمت يقف قوياً قاسياً بين الاثنين ، عدا حركات متعب العصبية في رحلة يائسة على ماسورة البندقية ، خرج صوته متعباً :

ـ هل وردّت الخلال ؟

لم ينظر الى ابنه حين سأله وهو يسمع اجابته ، قال الشاب :

ـ اليوم دور شعلان وابراهيم .

رفع متعب ، لأول مرة الى ابنه ، عينين حزينتين مليئتين باسئلة خرساء: منذ اي وقت انت هنا تراقبني ؟ من الذي طلب اليك ان تأتي وما الذي جاء بك في هذه الساعة ؟

ومن جديد تراجعت نظراته وهو يخفض رأسه . كان حائراً متعباً ،كان يريد ان يقول اشياء كثيرة ، وكان يريد ان يبقى صامتاً .

واذا كانت ثمة لحظات يشعر الانسان فيها انه عارٍ ، او انه يرتكب اثماً ، ولا يريد احداً ان يرى عريه او يراه وهو يرتكب الاثم ، في مثل هذه اللحظات يكون الانسان قاسياً ومجنوناً تجاه نفسه وتجاه الآخرين . قال لفواز بقسوة اقرب الى الجرح والاهانة :

ـ خذ البندقية وارجع الى الظهرة .

وبفظاظة ، ودون انتظار ، اخرج الطلقة وسحب المشط ، ثم رمى اليه البندقية ، كما يرمي عصا . سقطت البندقية بين ساقيه . تركها برهة قبل ان يلتقطها ، تابع متعب الهذال وهو يستدير :

ـ يلله . . خذها واغرب من وجهي .

احس فواز ، تلك اللحظة ، ان اباه انتهى ، انه سقط في بئر عميقة لا قرارة لها ، وانه لا يريد ان يرى بشراً او يسمع صوتاً ، حتى فرسه التي كانت في الظل الى جانبه ، وبدت وديعة مستأنسة ، وكأنها لا تريد مفارقته ابدا ، بدا وكأنه يضيق بها، ولا يريدها ان تبقى الى جانبه ، اذ ما كاد فواز يلتقط البندقية ويهم بالمسير حتى قال له بحدة .

ـ اربط الدهماء تحت ذيك النخلة .

وأشار دون ان يلتفت الى نخلة بعيدة ، ثم انقلب على جنبه ، كأنه يدخل في ملكوت النوم والغيبوبة وربما الموت .

* * * *

لم يعد متعب الهذال الى الظهرة في اليوم الأول ولا في اليوم الذي يليه ، وقد سبب غيابه مزيداً من الشعور بالاثم والخطأ لدى فواز ، اذ لو لم يره هكذا ، ضعيفاً يائساً ، لأخذت الأمور مجرى آخر . لو فعل ما كان يدور في رأسه ربما اشتعل وادي العيون وتغيرت أمور كثيرة ، أما الآن ، وهو يغيب ، لا يعرف اين او الى متى ، فان هذا الجرح في روح متعب الهذال لن يشفى ابداً .

ذكر بعض الناس انهم رأوه مرتين يمر قريباً من المعسكر . كان شديد الغضب ، حانقاً ، ولم يتردد في الوقوف وتوجيه الشتائم للاميركان يريد ان يستفزهم ، لكن الذين سمعوا شتائمه رفعوا رؤوسهم للحظة ، التفتوا اليه التفاتة سريعة ثم عادوا الى ما كانوا به منشغلين . أما في المساء ، وفي مضافة ابن الراشد فلم يترك شتيمة ، ولم يوفر احداً . قال ان الحريق بدأ في وادي العيون منذ ان جاء ابن الملعونة النحس اول مرة . كان على الناس ان يفعلوا شيئاً منذ ذلك الوقت ، قبل ان يؤكل الأخضر واليابس ، أما اذا ظلوا كذلك ، اذا صمتوا وانتظروا فسوف يهلك الجميع . وقال

للرجال ايضاً انهم اذا لم يفعلوا شيئاً فسوف يتولى الأمر وحده . أما حين اقترح احد المسنين ان يذهب وفد لمقابلة الامير ، فقد هز متعب الهذال رأسه دلالة السخرية ، وقال :

- إلحق العيار لباب الدار . الامير قريّب ، لكن ما منه فائدة .

جرى مثل هذا الحوار مرّات عديدة ، وكان اغلب المرات حواراً يائساً ، اذ لا ينتهي الى نتيجة . فالحركة في وادي العيون وحوله لا تهدأ ولا تتوقف ، وابن الراشد يبقى اياماً في الوادي ثم لا يلبث ان يغيب غيبات طويلة غامضة . واذا كان متعب الهذال يشتم ، يتحدى ، يغلظ في القول لابن الراشد ، فانه كان يخاف من غيباته اكثر مما يخاف من وجوده ومحاولاته اقناع اهل الوادي ان يرحلوا . كان لا يعرف ماذا يدبر في هذه السفرات ، وأية مصائب يمكن ان تحل بالوادي نتيجة زياراته للامير او غيره .

ظلت الأمور تراوح بين الأمل واليأس ، بين الخوف والرجاء ، اذا جاء طارش من هذه الجهة وانفرد به متعب الهذال ، وسأله عما رأى وعما سمع ، ينتهي الى نوع من القناعة ينقلها بأسلوبه الخاص الى اهل وادي العيون . واذا جاء طارش من الجهة الاخرى ونقل اخباراً من نوع مختلف يحاول متعب الهذال ان يرى فيها املاً ، فان وجده ،عاش أياماً وقد تحول الى انسان لا يعرف كيف يستقر ، كيف ينقل احاسيسه الى الآخرين . فاذا رجع بعد ذلك ابن الراشد ، واراد ان ينقل لأهل الوادي اخبار الشياطين الذين سيبدأون العمل بعد أيام أو أسابيع ، هب في وجهه متعب الهذال ، فلا يتركه حتى يفرغ ما في جوفه من شتائم وتهديد . وابن الراشد الذي يقابل متعب الهذال بموقف ضاحك ومليء بالمزاح والمداعبة ، لا يلبث ان ينقل للناس اخباره واقتراحاته ، مشيراً عليهم ان يكونوا حكماء وعاقلين فلا يضروا انفسهم بانفسهم ، وعليهم ان يكفوا عن سماع هذا الشايب الخرف . فاذا نقل لمتعب ما قاله ابن الراشد ، مع بعض التعريض ، كان يهدّ عليه في الليل او النهار ، ضارباً عرض الحائط بكل المجاملات التي تعودها الوادي سنين طويلة ، وبطريقة مليئة بالخشونة والتحدي تبدأ تلك المبارزة التي يتابعها اهل الوادي بشوق بين الاثنين .

كان ابن الراشد بصمت ، يكتفي بكلمة هنا وبكلمة هناك ، رداً على ما يقوله

متعب الهذال . فاذا زادت الأمور عن حد معين ، كان يعرّض بمتعب ، لكن بطريقة ساخرة ، مع بعض التهديد الضمني . كان يقول له :

- يا ابن هذال ، لا تخف ، وكّل الله ، حقك يصلك ، وانت تعرف : اللي عند الأجاويد ما يضيع .

فاذا رفض متعب الهذال ان يسمع ، اذا سخر ، كان ابن الراشد يغيّر لهجته :

- يا ابن هذال ، انت شيخ الوادي ، انت اعقل من فيه ، ولازم تعرف ان الحكومة تتعامل مع الناس بالناموس أو الدبوس .

- وتهددني يا ابن الراشد ؟

- يا ابن هذال ، قلنا لك : الرأي رأيهم ، ونحن عبيد مأمورين ، وانت بلشتنا بلشة حصران : ركوع وتسليم . ما خلصنا من سالفة ، من قضية ، الا بدأت من جديد . يا ولد العم اترك هذه البلشة واترك الحكومة بهمها .

- واذا ما تركتها يا ابن الراشد ؟

- اول الغضب جنون وآخره ندم .. يا ابن هذال .

- هذه ديرتنا ، يا ابن الراشد ، نعرفها ، نعرف رجالها وحزومها ، نعرف خيرها ومطاويها ، وانت أدرى من غيرك ، والاحسن ان تعلّم الجماعة ... هناك .

- يا ابن هذال ، يا ولد العم ، ان بغيت الفراق فاطلب ما لا يطاق .

- والله يا ابن الراشد كل بني آدم اخرته حرقة ، وانت تعرف ابن هذال .

وبطريقة ساخرة وخفية يضع ابن الراشد نهاية لهذا الحوار الذي لا يمكن ان ينتهي الى نتيجة :

- الرسول مبلغ وغير ملوم يا ابو تويني ، وانت تعرف : منك الصبر وعلينا الوفاء .

ظلت الامور مضطربة قلقة لبضعة اسابيع ، بعد ان اقيم المعسكر ، واصبح الاميركان يقضون وقت الظهيرة من كل يوم في الشمس منبطحين على وجوههم ، لا تستر اجسادهم سوى سراويل قصيرة . كانوا يفعلون ذلك غير مبالين بالناس حولهم من صبية ورجال ، وكأن الواحد منهم داخل خيمة .

بدا الأمر شديد الغرابة ، وقد اثار من الحنق والغضب السيء الكثير ، حتى ابن الراشد الذي كان يدافع عن عبد الله ، ويبذل محاولات متعددة معه ، ويؤكد له ان الناس لا يقبلون ان يروا الرجال على هذا الشكل ، انتهت محاولاته الى الفشل . واذا

كان الرجال قد استمروا بالمرور قرب المعسكر ، وكذلك الصبية ، فان النسوة اللواتي تعودن الذهاب الى العين ، وجلب الماء ، توقفن تماماً ، واعتراهن ذعر حقيقي . وبدا متعب الهذال بنظر الناس حكيماً واكثر معرفة بما ستؤول اليه الأمور .

بدات الهمسات ثم التحديات ، ثم التفكير بذهاب وفد الى الامير « يا طويل العمر : نوافق على ان يأخذوا ماءهم من العين ، لكن نموت ولا نوافق على ان ينزلوا على الماء . نساءنا يا طويل العمر ، اعراضنا يا طويل العمر ، واذا اردتم ان تحلوا المشكلة حلوها . . واذا ما اردتم نحلّها بايدينا » .

هكذا كان يجري الحديث في المضافات وبيوت الشعر ، والرجال الذين شعروا بالجرح وما يشبه الخوف مما يرون ، توجسوا شراً ومنعوا النساء من ورود الماء نهائياً ، وكلفوا الصغار بذلك ، لكن نبه عليهم ايضاً ان لا يتوقفوا وان لا ينظروا جهة المعسكر .

كان متعب الهذال في الظهرة ، كان بعيداً عن العين ، وحتى لو كان قريباً لم يكن ليغير اقواله وقناعاته . أما الرجال الآخرون الذين كانوا يسكنون قريباً من العين ، في بطن الوادي ، وحول البساتين ، فقد شعروا ان الامر اكثر خطورة مما قدروا في البداية، وأنه لا يحتمل تأجيلاً او انتظاراً . خاصة وان الذين جاءوا من طرف الامير مع هؤلاء كانوا اعجز من ان يفعلوا شيئاً ، كل ما يملكون ان ينقلوا ما يقوله الناس الى المترجم ، وكان المترجم اشد كبرياء وخشونة من الاميركان انفسهم .

سيطرت حالة من الخوف على الوادي كله . اصبح الرجال اقرب الى العصبية والنزق ، واصبح متعب الهذال شخصاً لا غنى عنه ، فاذا غاب عن الوادي يوماً واحداً ، لكي ينام في الظهرة ، شعر الناس انهم بحاجة اليه ، وانه وحده القادر على أن يقول كل شيء ، وان يعبر عن افكارهم وما يدور في عقولهم ونفوسهم .

كانت الحيرة ، في هذا الجو المضطرب الغامض هي السيد ، فرغم كلمات الليل الكبيرة والتحديات ، ثم الاتفاق والوعود ، فان للنهار سلوكه ومخاوفه وطريقته في التصرف ، اذ ما يكاد اليوم الجديد يبدأ حتى يسيطر اتفاق ضمني بين الرجال على تأجيل الذهاب الى يوم آخر ، لعل شيئاً يحصل في ذلك اليوم وينهي هذا الكرب الذي يجثم على الوادي . أما اذا وصلت قافلة ، فقد كان يرافق وصولها اخبار واحداث تشغل الناس عما هم فيه ، ثم تبدأ عمليات البيع والشراء والتبادل ، حتى

اذا جاء المساء انعقدت السهرات وبدأت الأحاديث والاخبار . لكن تظل قضية هؤلاء الاجانب الحديث الذي يطغى على كل الأحاديث ، وكان يثير من الاهتمام بقدر ما كان يثير من التساؤل والخوف . ورغم ان المسافرين هم الذين كانوا يتولون الحديث ، اغلب الاحيان ، لانهم سافروا ورأوا ، ويمكن ان ينقلوا للآخرين شيئاً ، فان الرجال في وادي العيون يملكون الكثير الكثير ليقولوه ، خاصة عن هؤلاء الشياطين الذين جاءوا فجأة ولا يعرف الى متى سيبقون او ماذا سيفعلون ! وكان المسافرون يبدون اهتماماً كبيراً لأنهم سينقلون ما يسمعون الى الامكنة الاخرى والى الناس الآخرين الذين لم تصلهم بعد اخبار هؤلاء الشياطين .

كانت الاحاديث عن هذه المجموعة من الشياطين تبدأ محايدة عامة ، ثم لا تلبث ان تصبح ذات الوان واضحة شديدة القسوة ، ويشترك فيها اكثر الرجال ، فتعطى لكل واحد من هؤلاء صفة تصبح اسماً ، وهذه الصفات والاسماء التصقت بهم بسرعة فائقة . واذا كانت العادة في وادي العيون ان تطلق الصفات على الكثيرين ، وتأتي بالمعايشة الطويلة ، وبعض الاحيان دون ان يقصد اليها احد او يتعمدها ، فقد كان اطلاق الصفات امراً ضرورياً لمواجهة الحالة الجديدة ، وتمييز هذه المخلوقات التي بدت في الأيام الأولى شديدة الشبه ، حتى ليصعب التفريق بين واحد وآخر ، الا ان المراقبة المستمرة والتدقيق الذي لا يتوقف ولا يتعب بهؤلاء وتصرفاتهم جعلت اطلاق الاسماء والصفات امراً في غاية اليسر . « فالغراب » او « ابن الملعونة » هو الاسم الذي سقط على ذاك الذي جاء اول الأمر ، والذي تسمى فيما بعد باسم عبد الله . أما الآخرون فالاكحل والبطين والجربوع والأفصع والمغزل والدجاجة وابو الحصين ، وغير ذلك من الاسماء . أما كيف تم اختيارها ومن اطلقها فلم يكلف احد نفسه عناء البحث ، حتى الصفات التي لا تنطبق بدقة على بعض هؤلاء ، ما لبثت ان اصبحت شديدة الانطباق وتكاد تكون وحدها الملائمة !

بهذه الطريقة كانت تجري الأحاديث وتروى القصص عن هذه المجموعة التي وصلت ، رغم ان معظم أفرادها بعدما استراحوا فترة من الوقت اخذوا يقضون الجزء الأكبر من نهاراتهم في اعمال غامضة وبعيدة عن الانظار والمراقبة ، اذ كانوا منهمكين في داخل الخيام يرسمون ويكتبون ، وكانوا بين ساعة واخرى يحملون اوراقاً كبيرة من خيمة الى اخرى ، وبعض الاحيان يفرشونها على الأرض ويدققون

فيها وقتاً طويلاً ، ثم يمسكون بعصي صغيرة ويقيسون . كانوا يفعلون هذا غير آبهين بنظرات الناس الذين كانوا يقفون وراء السياج يرقبون كل حركة وكل سكنة . وكان الاطفال والصبية اكثر الذين يتابعون ، ومع كل حركة يصرخون ويشيرون متوقعين ان يحصل شيء ما بعد ذلك .

كانت هذه الأحاديث تدور وتنتقل بسرعة من بيت لآخر ، ومن خيمة لأخرى . والمسافرون في القوافل يستمعون باهتمام ويستولي عليهم حب الاستطلاع في أن يروا بأنفسهم هذا الذي يتحدث عنه اهل وادي العيون . فاذا انقضت الليلة وجاء اليوم التالي ، اقترب المسافرون من المعسكر ، وبدأوا يراقبون ، فاذا ما استعادوا في مخيلاتهم القصص التي سمعوها في الليلة الفائتة بدوا شديدي الرغبة لمعرفة من يكون الافصع ومن يكون الجربوع ، وكثيراً ما داخل بعضهم الفرح حين يشير الى احد هؤلاء ويقول بلهجة هي بين التأكيد والتساؤل : « هذا هو البطين » او « هذا هو الافصع .. اقطع يدي اذا لم يكن هذا هو الافصع ! » فاذا انطبقت الصفة على الموصوف ، كان الرجل ينظر الى الآخرين بزهو يصل حدود الفرح الطفولي ، وقد يتصرف بهياج ويصرخ . أما اذا كانت الاصوات عالية والمراهنة ارتبطت بأن يعرف صاحب الاسم او الصفة انه المقصود ، ونظر مستطلعاً ، فعندئذ كان يبلغ الفرح درجة لا يتصورها احد ، اذ تعلو الصيحات وترافقها اشارات من ايدي الصغار والكبار ، وكلمات الاستحسان ، وغير ذلك من التصرفات غير المتوقعة .

كان هذا بعض ما يحصل في محاولة للتغلب على الكرب والمخاوف ، أو لنسيان هذا الهمّ الذي يكبر ويزداد كل يوم ، فاذا سافرت القافلة ، وعاد اهل الوادي الى مواجهة الحقيقة القاسية ، بكل ما فيها من هموم ومخاوف ، بدأوا يفكرون ويبحثون عن طريقة لمواجهة هذا البلاء الذي يحاصرهم ويقترب منهم .

الأيام تمر ثقيلة متباطئة . حرارة الجو تزداد وتدفع باعداد جديدة من البدو الذين تركوا الوادي في اول الشتاء، طلباً للمرعى ، الى العودة والاقتراب من الماء ، لان الصحراء تصبح يوماً بعد آخر ، ابتداء من نهاية الربيع ، جحيماً لا يطاق . والذين تعودوا على ان يتابعوا الغيوم ، وينزلوا عند كل ماء ، من اجل ان يطعموا حيواناتهم ، ويبقوا على قيد الحياة ، والذين عرفوا لكل مكان اياماً في السنة يقيمون فيه خلالها ، يعرفون متى يتركون هذه الاماكن والى اين يجب ان يتوجهوا . وأهل الوادي الذين تعودوا على هذه الرحلات وعرفوا مواعيدها ، يعرفون ان نهاية الربيع والصيف كله ، ثم جزءاً من الخريف ، الاوقات التي يضيق الوادي ويتزايد البشر فيه . حتى قوافل المسافرين التي تدفعها السرعة ويدفعها الحنين لان تواصل رحيلها بعد يوم او يومين من الراحة في وادي العيون ، اذا كان الفصل شتاء او ربيعاً ، فانها في الاوقات الاخرى تطيل الاقامة وتطيل السؤال ، وتنتظر ان يكبر القمر ويساعدها على سير الليل بدل سير النهار الشاق . ومعنى الاقامة الطويلة في الوادي ، خاصة في مثل هذا الوقت من السنة ، ان الافواه التي تستقي من العين والآبار تتضاعف ، وتزدحم حول الماء ليل نهار ، وما يولده ذلك من نزاعات ومصاعب واختلاف . ورغم الطيبة التي تميز أهل الوادي ، فانهم في مثل هذا الوقت يصبحون بشراً من

طبيعة مختلفة ، يصبحون اكثر حدة واكثر شراسة ، ولا يخفون ضيقهم باشياء كثيرة ، كما تزول الابتسامات عن وجوههم وتفارقهم الرغبة في ان يتحدثوا او ان يطيلوا الحديث .

إنها اذن ايام الانتظار قبل ان يهجم الصيف بحرارته وعذابه ، وهو انتظار اكثر صعوبة من اية ايام سابقة ، خاصة بعد ان جاء هؤلاء الشياطين واقاموا معسكرهم قريباً من العين ، ولا يعرف ماذا سيفعلون وكيف ستكون حال المياه اذا استمروا مثلما يفعلون الآن ، ينقلون عشرات الاحمال كل يوم الى المعسكر ، ويسرفون في استعمالها ، كما لو انها شيء مبذول لا يعني اي انسان .

انقضت ايام عديدة ، وطلائع الذين رحلوا بدأت بالوصول ، والموعد الذي تعود ان يجيء فيه الأمير ينقضي دون خبر او اشارة من اي نوع ينبيء عن وقت وصوله ، والمسنون الذين اشاروا بهذا الرأي بدوا اكثر قلقاً وخوفاً ، فلما عاد متعب الهذال الى جنونه ، وبدأ يلح كل يوم على ان يذهب وفد الى الأمير ، لم يجد اعتراضاً في البداية ، ثم وجد تأييداً وموافقة في نهاية الامر . وفي مضافة ابن الراشد اتفق الرجال ان ينتدبوا عدداً منهم لمواجهة الأمير وان يعرضوا عليه كل شيء .

كان المكان الذي يقيم فيه الأمير على مسيرة ثلاثة ايام من وادي العيون . واذا كانت من عادة الأمير الخروج الى القنص في مثل هذا الوقت من السنة ، والمرور بالوادي في طريق الذهاب والعودة ، فقد فكر بعض المسنين بالانتظار الى ان تحين هذه الفرصة ، لان سفر عدد منهم الى هناك لا يغني عن ان يشاهد الأمير بنفسه هذا الذي يشكون منه ويخافونه . فالمعسكر بالمكان الذي اقيم فيه ، وهؤلاء الاجانب بالاجساد العارية ، اغلب ساعات النهار ، يتنقلون دون تردد او حرج ، ثم هذه الآلات الملعونة التي تخيف الحلال بهديرها الذي لا يتوقف ، والتي تسبّبت مرات كثيرة بهياج الابل وهربها ، ثم العناء الذي لحق اصحابها نتيجة ذلك ، هذه الامور لا يمكن ان تتلخص بكلمات ، او تصوّر لانسان بعيد . يجب ان تشاهد ، ان ترى بكل تفاصيلها وجنونها لكي يُدرَك مدى الهمّ الذي تولده . لكن مع ذلك قرروا ان يذهب وفد منهم .

كان الرجال يوصون بعضهم ، ويلحّون في التوصية ، ان يكون الحديث مع الأمير هادئاً متزناً ، وان يتولاه ابن الراشد ، باعتباره اكثرهم معرفة بالحديث ومن

الكبار فيهم ، اضافة الى ما يتصف به من معرفة قوية بالأمير ودالة عليه ، ثم هو الذي استقبل هؤلاء الاميركيين وعرف كل شيء عنهم . والرجال حين يلحون في مثل هذا الامر انما يقصدون ، بالدرجة الاولى ، ان لا يتركوا لمتعب الهذال حرية الكلام والتصرف ، لان العصبية التي ميزت سلوكه ، والشتائم التي يكيلها للاميركيين ليل نهار ، ثم هذا التحريض الدائم لاهل الوادي ان يفعلوا شيئاً للوقوف في وجه الشياطين ، حتى لو اضطروا الى حمل السلاح او الذهاب الى العاصمة ومقابلة السلطان . . . ان هذه الحالة التي ميزت متعب جعلت الرجال يتخوفون ويتحسبون ، ولو كان الامر يحتمل ان يمنع ابن هذال من الذهاب ، او يطلب اليه البقاء الى ان يأتي الأمير ، لما تردد بعض المسنين في ان يقول ذلك ، لكن الجميع احسوا ان متعب الهذال لن يهدأ له بال ، ولن يكف عن الهياج والتحريض ، وحتى اللجوء الى الاهانة ، لو ظل بعيداً . ثم ماذا لو ذهب وحاول مع الأمير ؟ انه برغم هذه الصفات يملك مقداراً كبيراً من رجاحة العقل وحسن التصرف . يعرف المجالس وما يمكن ان يقال وما لا يقال ، لذلك فان التخوف الزائد او التحفظ المبالغ فيه قد يعطي نتيجة معاكسة . فان كان متعب الهذال في الوفد فهو خير الف مرة من ان لا يكون ، وان يتحدث مع الامير خير من ان يمنع . أما هذه التوصيات الأخيرة ، التي يؤكد عليها الرجال الآن ، وقبل ان يصلوا دار الامارة ، فانها نوع من التحسب والتحفظ قد يفيد وقد لايفيد .

بدا الأمير ، قبل ان يتكلم ابن الراشد ، وكأنه يعرف لماذا جاء الرجال وماذا يريدون ، اذ ما كاد يجري الحديث عن القنص والجو ثم وادي العيون ، حتى بدأ الأمير :

- ستكونون يا أهل وادي العيون اغنى الناس واسعدهم ، وكأن الله لا يرى غيركم . . .

وتغيرت لهجته :

- لقد صبرتم وتحملتم كثيراً . . . الشهادة لله ، أما الآن فسوف تعيشون وكأنكم في حلم ، وسوف تتحدثون عن الأيام القديمة وكأنها سالفة من السوالف . . .

وعاد الى لهجته الاولى :

- والخير ، يا جماعة الخير ، اذ عمّ عمّ .

كان ابن الراشد قد هيأ الكلمات التي يريد ان يقولها ، كيف يبدأ وكيف يسوق الحديث حتى يصل الى النقاط الحساسة ، وكان يريد ان يثير الشك في نفس الأمير اذا لم يقنعه ، ثم كان يريد ان يطلب اليه المجيء ، وبسرعة ، لكي يرى بنفسه ، ويتأكد من كل كلمة يقولها له الآن . أما وان الأمير قد بدأ هذه البداية وساق الحديث في هذا الاتجاه ، فقد اسقط في يد ابن الراشد ولم يعرف كيف يستطيع البدء ليصل الى ما كان يريده . قال في محاولة يائسة :

- انت تعرف ، يا طويل العمر : المال ما هو كل شيء في هذه الدنيا ، قبل المال : العرض ، الاخلاق ، العادات التي تعودنا عليها . . .

كان يريد ان يتابع في هذا الاتجاه ، لكن الضحكة المجلجلة التي انطلقت من فم الأمير ، غيّرت الجو مرة اخرى ، وجعلت الرجال في حيرة من امرهم . قال ابن الراشد بارتباك :

- مهما قلنا ، يا طويل العمر ، العين غير الاذن ، والتجربة غير السالفة .

اعتدل الأمير في جلسته ، رسم على وجهه سمات الحزم والقسوة :

- اذا تكلمت ، يا ابن الراشد ، عن الاخلاق فانت تعرف اننا اكثر الناس حرصاً على الاخلاق ، واذا اردت الدين فالدين عندنا ما هو عند غيرنا .

- ولكن يجب ان تأتي وتشوف كل شيء بنفسك .

- لا تخف اصلكم . لكن ما اريده منكم ان تقدموا للجماعة كل المساعدة ، لانهم جاءوا من تلفات الدنيا ليساعدونا .

قال متعب الهذال بعصبية :

- الله يخزيهم . . ما نريدهم ولا نريد مساعدتهم .

التفت اليه الأمير وقال بسخرية :

- ولكن حنا نريد مساعدتهم ، وانت اذا كنت لا تريد فأرض الله واسعة .

- اي والله . . . ارض الله واسعة . . .

قال ابن الراشد في محاولة لتهدئة الموقف :

- ولكن ماذا يريدون يا طويل العمر ؟

قال الأمير بنفس السخرية :

- هم ما يريدون اي شيء ، حنا طلبناهم وجاءوا لمساعدتنا .

- واية مساعدة . . يا طويل العمر ؟

هكذا ، ببراءة ، سأل ابن الراشد ، فاجابه الأمير :

- تحت ارجلنا ، يا ابن الراشد ، بحار من النفط ، بحار من الذهب ، والخويا جاءوا ليخرجوا النفط والذهب .

تطلع ابن الراشد الى الأمير وهز رأسه دلالة الدهشة والثقة ، ثم تطلع الى الرجال الآخرين ليرى وقع كلمات الأمير عليهم ، قال بنفس البراءة مخاطباً الأمير :

- وكيف عرفتم يا طويل العمر ؟

رد الأمير بثقة وعصبية :

- من يدرينا لولا مساعدتهم ؟ هم قالوا لنا : تحت هذه الارض بحار من الخير ، ولانهم يحبون الخير ، ولانهم اصدقاء قالوا : الجماعة يستاهلون المساعدة وجاءوا .

- وهذا الذهب في وادي العيون يا طويل العمر ؟

- في وادي العيون ، هنا ، وفي كل مكان من هذي الارض المباركة ، وصاحب الجلالة عندما انتزع هذي الارض بحد السيف ، وحارب الاعداء والكفار ، كان يعرف من اجل اي شيء يحارب .

قال متعب الهذال ببرود وتحد :

- حنا اللي حاربنا ، بسيوفنا اخذنا هذي الارض شبراً وراء شبر .

تضايق الأمير من هذا التعريض وبتلك اللهجة ، قال متجاهلاً كلام متعب الهذال :

- بعد ما منّ الله علينا بالنعمة لازم نشكره ، لا ان نخلق المشاكل ، ونقول : فلاني وتركاني .

وتغيرت لهجته وتابع :

- انتم كبار واعقل أهل وادي العيون ، وواجبكم ان تسهّلوا عمل الاصدقاء وتخدموهم بعيونكم . . وإن شاء الله ما تحل السنة الجديدة الا والفلوس لآذانكم .

قال متعب ساخراً :

- والله ، يا طويل العمر ، قبل ما تجي هذي العفاريت كانت حالنا على احسن حال ، لكن من يوم ما حلوا بهذه الديرة اشوف الدنيا مثل بول البعير : كل يوم إلى الوراء

رد الأمير بحدة :

ـ اسمع يا ابن هذال ، وهذا الكلام لك ولغيرك ، والحاضر يبلغ الغايب : اي واحد يخلق مشاكل ما له عندنا الا دواء واحد : هذا .

وأشار الى سيف كان معلقاً على الجدار ، وهز سبابته تهديداً في نفس الوقت وسأل من جديد :

ـ ما قولك يا ابن هذال ؟

ضحك متعب الهذال ضحكة صغيرة ، وكأنه يريد من خلالها ان يستمد قوة اضافية ترقد في اعماقه . وان صمت ثقيل على الغرفة ، سأل الأمير بعصبية :

ـ ها . . ما تقول يا ابن هذال ؟

ـ انتم الحكومة ، عندكم العسكر والسلاح ، واللي تريدونه يصير ، ويجوز باكر ، بعد ما يطلّع لكم النصارى الذهب من تحت القاع ، تصيرون اقوى ، لكن اعلم ، يا طويل العمر ، ان الاميركان ما يعملون شي لله

كان يريد ان يتابع لكن الأمير قاطعه بعصبية :

ـ اتركنا من هذا الكلام واجب عن سؤالي : فهمت ما قلته لك ام لا ؟

رد متعب الهذال بحدة :

ـ اسمع يا ابو رضوان ، انا شيبة بعمر والدك ، وصوتك لا تتركه يفلت ، وما بيننا اصفى حتى تسمّعه ، واذا اردت تحمر عينك فما كل الناس تخاف العين الحمرا ، وحنّا جينا نقول لك ما شافت عيوننا .

كان لهذه الكلمات تأثير قوي لم يقتصر على الأمير والرجال الذين حوله ، اذ امتد الى ابن هذال نفسه ، فشعر انه قوي الى درجة لا يخاف شيئاً او احداً ، وانه مستعد لقول كل ما يريد ، مهما كلفه ذلك ، وهذه الطريقة في الحديث تنقل عدواها بسرعة ، وتترك نتائجها دون ما خطأ ، اذ ما لبث ان تابع :

ـ . . . وديرتنا يا ابو رضوان صغيرة ونعرف بعضنا ، الكريم حنّا مثله كرام واللئيم ما له عندنا الا العصا ؛ والكفار من يوم ما حوّلوا بديرتنا ، وقبلهم الثلاثة اللي جاءوا في الشتاء ، ما شفنا الا المصايب . . .

وتغيرت نبرة الصوت مرة اخرى :

ـ حنّا اليوم بآخر الربيع ، العربان تركت البادية وطلايعها وصلت لوادي العيون ، وما اظن ان في البيار ما يكفي البشر ، فكيف تريدنا ان نترك الكفار يرفعون من البيار

كل مطلع شمس مابة حمل وحمل ويرمونها في الارض ونسكت عليهم ؟

ضحك الأمير في محاولة لان يسيطر على الجو من جديد ، وقال وهو يمسح انفه :

ـ اسمع يا ابن هذال . . اذا كان ما يشغلك الماء فابشر ، بدل البيار الثلاثة الموجودة نحفر لك مابة بير ، واذا ما كان بهذا المكان بمكان غيره ، وفيك حيل وشيل ، هذه مسألة بسيطة ، لا تخف ، وبعد اليوم ما احد يعطش ، وحنّا ما نريد ان يبقى وادي العيون مربط الابل والدواب ، الخويا يريدون ان يحفروا في الوادي ، وعندها يأتيكم الخير .

قال ابن الراشد :

ـ والله ، يا طويل العمر ، اللي يهمنا هو الماء .

قال متعب الهذال بحدة ليقطع الطريق على هذه الروح المستسلمة :

ـ اسمع يا ابن الراشد ، ما يهمنا الماء وغير الماء ، وانت تعرف : انا بالطهرة ، وحريمي ما ينزلن للعين ، وكل ما عندي بستين صغير ، يمكن ان اتركه وامشي ، الناس في الوادي يهمها الماء وغير الماء ، يهمها العرض ، الناموس ، وما نريد احد فوقنا ، وما نريد ننكشف للخنازير صبح وعشية ، واليوم بهذا الشكل ، بعد كم يوم ما نعرف ويش يصير .

قال الأمير وقد ادرك نقاط القوة والضعف :

ـ يا جماعة الخير ، الحكومة اعلم واقدر منكم ، ومثل ما قلت لكم : الاخلاق والدين حنّا احرص منكم على الاخلاق والدين . . . والماء ابشروا .

قال متعب الهذال بيأس :

ـ القضية ، يا طويل العمر ، من اولها الى تاليها ، اننا ما نقدر نعيش معهم . لو كانت القضية يوم او اثنين تهون ، لكن ان نعيش جميع ،ما نحتمل . واذا كنا ، حتى اليوم ، ما حملنا سلاح في وجوه بعض لا احد يدري باكر ويش يحصل .

قال الأمير بلهجة هجوم جديد :

ـ تركناك تقول كل اللي ببطنك يا ابن هذال ، خلنا نسمع رأي الرجال .

قال ابن الراشد ، وكأنه يستعيد درساً حفظه من قبل :

ـ حنا مع الحكومة ، يا طويل العمر . اللي تختاره الحكومة فيه خيرة الله ، ونوافق عليه . . فاذا كنتم ناويين تأمين الماء وحفر بيار جديدة وتوفرون للبدو والمسافرين والبساتين الماء ، نسد عيونا عن النصارى وما لنا شغل بهم ولا بينا شي .

قال سالم المكتوم :

ـ المسألة بسيطة يا طويل العمر ، لما شفنا انك بطيت علينا وما تريد القنص قلنا من كل بد نصل الأمير نسلم ونطمئن ، وانت يا طويل العمر قلت ما يكفي وزود .

قال عبّيد السويلمي : .

ـ اذا كان الذهب تحت وادي العيون فباطن الارض خير من ظاهرها ، وما علينا الا ان ندعو لصاحب الجلالة بطوّل العمر .

رد متعب الهذال بسخرية :

ـ اي والله باطن الارض اخير من ظاهرها ، اهل الوادي لازم يختارون : الماء او الذهب .

صمت لحظة ثم اضاف :

ـ والظاهر ان أهل الوادي يعرفون . . واختاروا الذهب .

ونتيجة كلمات السويلمي وابن هذال ، وبهذه التورية الطريفة وقع ما يشبه الاتفاق الضمني ، ان ما اراد الرجال ان ينقلوه للامير قد قالوه ، وان كان بهذا الشكل الذي ترك مرارة لا تمحي من قلب متعب الهذال ، وظل يتذكر هذه الحادثة ويسخر من الرجال والأمير حتى وقت متأخر ، لان ما اتفق عليه الرجال خالفوه تماماً .

قبل ان ينقضي ذلك اللقاء ، وباستغلال الجو المرح الذي ولدته الكلمات الأخيرة ، قال الأمير :

ـ الليلة عشاكم عندنا .

كانت هذه الكلمات ايذاناً بانتهاء المقابلة ، ودعوة العشاء تعبيراً عن الرضى الذي احس به الأمير ، ولكي يزيل اية مرارة من نفس ابن هذال قال له بدعابة :

ـ واذا كان عندك شي جديد ، يا ابن هذال ، عن الخويا ، فاجله الى العشاء .

رد متعب بسخرية :

ـ اللي عندي ، يا طويل العمر ، ما يرضيك ، لكن ما عندك وما عندهم يرضي ويزيد . . وهذا يكفي :

ـ عدت يا ابن هذال ؟

ـ انت اللي طلبت مني العود ، واذا كنت ما تريدني اعود اريحّك فارضى وترضى .

ـ انا راضٍ ، اريدك انت ان ترضى .

ـ الرضا نسيناه ، يا طويل العمر ، كل ما نريده الستر والسلامة ، واظن ان الستر ضيعناه من يوم ما جاء الخويا ، وما بقيت الا السلامة ، وانت تعرف ان الانسان لا يدري متى يموت وفي اية ارض يموت .

ـ وكل الله يا رجل .

ـ وعليه توكلت واليه انيب .

كان من الممكن لهذه المناقشة ان تستمر وتطول ثم تتشعب ، لكن والأمير يقف ، ثم هذه العبارات التي تتردد دون معنى او ضرورة ، اغلب الاحيان ، وضعت حداً ، اذ استأذن الرجال وخرجوا .

كانت مشاعر الحرج والدهشة والفرح والانتظار تسيطر على الرجال الا متعب الهذال ، فقد احس ان الدنيا تضيق حتى تكاد تطبق عليه ، ورغم الضجة التي حوله كان الصمت يملؤه والفراغ يحيط به من كل جانب . لاول مرة في حياته يشعر انه وحيد ، انه ذرة من الرمل لا تعني شيئاً ، ولا يعني احداً . أما الكلمات التي قالها فهي بمقدار ما اغضبت الآخرين ، خاصة الأمير ، فانها تغضبه وتجعله يحس بالتفاهة واللاجدوى . كان يود ان يتكلم مثلما تعود دائماً . ان يصرخ ، ان يقول كل ما يدور في عقله . فجأة اصابه الخوف ثم الخرس . ما قاله لا يعني شيئاً مهماً ، مجرد اصوات عمياء . لو لم يكن كذلك لما اندفع المكتوم والسويلمي والآخرون لان يتكلموا مع الأمير بتلك الطريقة . لماذا جاء معهم ؟ وماذا يربطه بهم الآن ؟ الذهب ؟ انه لا يريد مثقالاً واحداً من الذهب . وهؤلاء الكفرة هل يمكن ان يعطوا الذهب دون مقابل ؟ واذا كان لا بد من دفع المقابل . . . فماذا يكون ؟

عبرت في رأسه هذه الافكار والتساؤلات والمشاعر ، وعبرت اخرى غيرها ، واذا كان الرجال الذين معه قد شعروا بالحرج وفضلوا الصمت او الاحاديث الجانبية العابرة ، فانه لم يكن يرى اياً منهم او يسمع كلمة من كلماتهم . كان بعيداً مشغولاً ، وكان ضائعاً متعباً ، أما حين اقترح ابن الراشد ان يذهبوا الى السوق ، ان يزوروا بعض الاصدقاء ، فقد رد متعب بعصبية ، وكأنه يواصل حديثاً :

ـ . . . لا اريدكم ولا اروح معكم . . . وهالحين اركب ناقتي وامشي لوادي العيون .

ولم يأبه لنظرات الرجال وإلحاحهم عليه ان يبقى ، لان سفره المفاجىء وعدم تلبية دعوة العشاء سيتركان مرارة وغيظاً في نفس الأمير . واذا كانت الامور قد سارت بسلام حتى الآن ، وانتهى اللقاء بان خرج الجميع راضين او متظاهرين بالرضا ، فان غياب متعب الهذال بهذا الشكل ، دون اعتذار او تفسير ، سيعقّد الموقف من جديد ، لكن متعب الهذال لم يكن مستعداً للمناقشة ، اذ ركب ناقته العمانية البيضاء ، وانطلق دون ان يلتفت ، دون ان يسمع نداءات الرجال . . . او كلماتهم .

أية أحزان استبدت بمتعب الهذال في الصحراء الملعونة خلال يومين وليلتين حين كان عائداً الى وادي العيون ؟ أية لحظات أسى سيطرت عليه وربما دفعته الى الغناء أو البكاء ؟ لا أحد يدري ، لأن متعب الهذال حمل سره معه ورحل . لم يتكلم عن ذلك لانسان ، ولم يطلع أحداً على أفكاره ، حتى بعد أن عاد الى وادي العيون . لقد استبدت به حالة من الصمت اقرب الى الذهول ، وبمقدار البراعة التي كان يتميز بها حين كان يتكلم من قبل ، فانه أصبح اكثر قدرة وبراعة على الصمت ! كان الرجال حوله يتكلمون ويسألونه او يتساءلون ، لكنه في غياب كامل عن الأصوات والحركات ، لا يسمع ولا يجيب . حتى التعابير التي يمكن ان يلمسها الانسان في وجوه الآخرين ، مهما حاولوا اخفاءها ، أو لو كانوا لا يفهمون ما يقال لهم ، غابت تماماً عن وجه متعب الهذال . كان حجراً او اقرب الى الحجر : وجه شاحب ، متخشب ، جامد الملامح ، ولولا رفة العينين ، تظهر بين فترة واخرى ، لظن من ينظر الى وجه ابن هذال ان وجه ميت يرى . أما محاولات الناس ، بمن فيهم وضحة ، في حمله على الكلام ، فقد كانت تنتهي الى الفشل الكامل . وكان اذا ضاق بكلام الذين حوله ، وهذا ما تكرر كثيراً بعد عودته ، بعد لقاء الأمير ، ينسحب بهدوء ، ويتصرف كما لو كان وحيداً ، اذ يذهب الى مكان

منعزل او يذهب لكي ينام .

كان وادي العيون ينتظر عودة الرجال ليعرف ماذا جرى ، أما الآن ، وبعد ان عاد متعب الهذال وحيداً ، ثم موقف الصمت التام الذي اتخذه ، فقد ترسب في أعماق كل انسان في الوادي شعور حاد بالمرارة ثم الخوف . وإذا كان الناس تجاه المصائب التي يتوقعون ، ينتظرون بارقة امل ، ويتشبثون بها ، حتى لو كانت كاذبة واهية ، ولا تقوى على منع وقوع تلك المصائب ، فان وجه ابن هذال بدّد كل امل ، وقضى على كل بارقة . حتى فكرة انتظار الرجال الآخرين التي راودت اذهان بعض الناس ، ما لبثت أن انهارت وتلاشت ، وسيطرت بدلاً عنها حالة من الحزن اقرب الى اليأس « ماذا يمكن ان تضيف كلمات ابن هذال لو تكلم ؟ ان وجهه وعينيه اقوى من الكلمات وأقسى منها » « اذا تكلم سوف تكون كلماته قاتلة ، لقد رأى اشياء كثيرة في هذه الحياة ، ولا بد أن تقتله علته » . « ولو تكلم الرجال بغير ما تكلمت عينا ابن هذال فلا بد أن يكونوا كاذبين ، ومتعب الهذال لا يكذب ، لأنه لا يعرف الخوف . . . وهم يخافون » .

بعد أن عاد متعب الهذال ، وبعد ذلك الغرق المهول في الصمت ، شعر كل من في الوادي ان نهاية ملعونة مدمرة تتربص بالجميع ، وتنتظرهم كل لحظة . ومثل هذه النهاية يقف الانسان تجاهها عاجزاً منتظراً ، حتى الحزن الذي يبدو متدفقاً كثيفاً في بعض اللحظات ، يعجز عنه الانسان في لحظات أخرى ، بل ويتمناه ، لأن يأساً مروعاً متشنجاً يربض على الحواس فيشلها ، ويجعل الحركة ميتة والزمن عذاباً .

قالت وضحة ، وهي ترمي الدثار السميك فوقه ، رغم الحر الذي اخذ يملأ ذرات الهواء :

ـ اذا مرت هذه الحمى دون ان تقتله يمكن ان يعيش ويبلغ المائة .

وهزت رأسها دلالة الشك والخوف .

وحين سألها هذيب ، وحين سألها أولادها ، عما جرى ، هزت كتفيها دلالة انها لا تعرف شيئاً ، وانها لا تهتم بما يجري ، وبعد فترة صمت قالت كأنها تخاطب نفسها :

ـ من يوم ما جاء اولاد الحرام الثلاثة دخله عفريت ، وبدل ان يخرج العفريت من

رأسه حضنه كما تحضن الدجاجة بيضها ، والآن الحمى تقتله ، وهذي هي حمى العفاريت .

لم يفهم أحد بوضوح ما قالته وضحة ولم يجرؤ على معاودة السؤال . كانت عصبية شديدة الهم ، تركض من مكان لآخر ، وعلامات الخوف ظاهرة على حركاتها وتصرفاتها . أما الاجابة التي كانت ترددها لكل من يسألها عن حال ابو تويني ، فقد بدت لفرط ما كررتها تثير الفزع ، كانت تردد :

ـ الرجل خلص . . راح ، الا إذا كان رب العالمين يريد يسويه مثل ايوب .

حين عاد الرجال ، بعد خمسة ايام ، كان اللغط يعمّ وادي العيون ، وكانت الحمى تفتك بمتعب الهذال ، ولم يكن احد من الناس الذين اجتمعوا في مضافة ابن الراشد مستعداً لتصديق أية كلمة من الكلمات الكثيرة التي قيلت . تبددت كلمات الغنى والذهب كما يتبدد الدخان في الهواء ، وارتفعت راية سوداء مثل سؤال كبير : « اذن . . جاء هؤلاء ليبقوا ؟! » وتحولت حركات ابن المكتوم والسويلمي وابن الراشد الى حركات عمياء وكلمات كاذبة « الذهب ؟ من أين لهذه الأرض الذهب اذا لم يشتغل الناس ولم يركضوا من مكان لآخر ؟ النفط ؟ ما يأتينا يكفينا لنوقد هذه الفوانيس التي تختنق برائحتها أكثر مما تضيء » .

تذوي التفاصيل ، تتراجع ثم تغيب . وحتى تلك التي لا تزال عالقة بالذاكرة ، ربما ولدتها الرغبة أو ولدها الخيال الجامح ، لأن أية محاولة لاستعادة صور الأشياء ، والأماكن والملامح تصطدم بالنسيان الذي يتمدد كالهواء الساخن ، يجعل كل ما جرى اقرب الى الحلم .

انها مأساة من نوع خاص ، تشبه حالة فقدان الذاكرة ثم استعادتها في وقت متأخر ، فتظهر فوضى الأشياء وتداخلها ولعنتها ايضاً . ومع ذلك ، واذا كانت حياة متعب الهذال تهم احداً ، واذا كان وادي العيون قد وجد في وقت من الأوقات ثم تلاشى تحت وطأة الزمن الأخر ، فان اللحظات الأخيرة هي وحدها الباقية ، وقد تكون وحدها التي وقعت فعلاً .

ففي اواخر تلك الليلة ، من ليالي الصيف المتأخر أو بداية الخريف ، وعلى غير انتظار ، سمع دوي مجنون يملأ الوادي . كان دوياً يشبه الرعد البعيد ، أو يشبه سقوط اعداد كبيرة وهائلة من قرب الماء الممتلئة على أرض سبخة ، فيرتج الهواء وتصطخب الأذان حتى يصعب تمييز الصوت أو مكانه . واذا كان متعب الهذال قد قرر ان يبقى في الظهرة طوال الفترة التي امتدت بين عودته وأواخر الصيف ، رافضاً باصرار لا يقاوم كل المحاولات التي جرت لحمله على النزول الى الوادي ، بعد هذا

الرفض والعزلة ، ونتيجة مرض لم يفارقه يوماً واحداً ، حصل ما يشبه الاتفاق الضمني : أن يُنسى الرجل ، ان يعتبر ميتاً او كأنه لم يعد موجوداً ، ولذلك عاد الوادي الى حياته السابقة . صحيح ان بعض الصعوبات قد نشأت في ذلك الصيف ، لكن أمكن التغلب عليها ، وبدا أن هذه المجموعة التي جاءت تبحث عن النفط ، وبعد ان انتهت من إعداد متطلبات المرحلة الأولى ، قررت البدء .

ليس مهماً كيف كانت البداية ، لأن الدوي الذي ملأ تلك الليلة ، أواخر الصيف ، يعتبر البداية الأكثر رسوخاً في الذاكرة ، وهي وحدها التي حملت متعب الهذال على أن يكسر أطواق العزلة وينزل الى الوادي .

قد تكون هناك تفاصيل كثيرة من نوع أو آخر سبقت هذه البداية ، وقد تعتبر ذات اهمية خاصة ، لكن لم تكن كذلك لمتعب الهذال . فالمحاولات العديدة ، والتي تدخّل فيها أقرباء ومعارف كثيرون ، في أن يبيع البستان الصغير الذي يملكه في وادي العيون ، وبمبلغ بدا كبيراً في ذلك الوقت ، هذه المحاولات باءت بالفشل .

كل ما كان يقوى عليه متعب الهذال هو أن يهز رأسه دلالة الرفض ، وفي الحالات التي لجأ فيها بعض الأقرباء الى الضغط عليه كان يضحك بسخرية ويغادر المجلس . أما ما نقل عن لسان الأمير أن ابن هذال يبيع رضي أم لم يرض ، فقد قابلها بهزات رأس دلالة ان ننتظر ونرى . ولذلك فإن الدويّ الذي سمعه في تلك الليلة ولد في نفسه انفعالات كثيرة ، إذ لا بد أن يكون قد فكر او حلم بحدوث انفجار في المعسكر قضى على كل شيء ، وقد يكون تصور أن امراً خطيراً قد حدث في تلك الساعة ، ونتيجة لذلك كان الدوي ولا بد أن يراه بنفسه ، وقد تكون هناك تصورات أخرى خطرت في باله ، وإلا كيف يفسر ذلك الحماس الذي دفعه لأن ينسى عزلته وينزل الى الوادي ؟

مع أضواء الفجر الأولى كانت كائنات حديدية ضخمة تتحرك . كان دويها يصم الآذان ويملأ الصحراء كلها . كانت هذه الكائنات غريبة الشكل كبيرة الحجم الى درجة ان أحداً لم يتصور وجود مثل هذه الأشياء . أما الأضواء التي كانت تنبعث منها فانها تشبه النيازك . كانت تتحرك في رتل سالكة نفس الطريق التي كانت تسلكها القوافل ، وخلال وقت قصير ، والدوي يزداد ويقترب ، وصلت هذه الكائنات الى الوادي .

لا يمكن لأحد أن يصف اللحظات التي وصلت فيها هذه الآلات ، كما لا يُعرف أبداً الشعور الذي سيطر على الناس وهم يراقبون هذه الكتل الصفراء الضخمة تتحرك وتدوّي ثم تتوقف عند حدود المعسكر . ليس بمقدور احد أن يصف او يحدد . ومتعب الهذال الذي وصل الوادي بخفة قط ، والذي راقب كل شيء بانتباه ، وظل على مسافة من هذه المخلوقات العجيبة ، لا يقترب منها خوف ان تفعل شيئاً لا يمكن مقاومته او التغلّب على شروره ، أحس في أعماقه ، حين توقف الدوي ، ان الدنيا انتهت .

إذ ما كادت الآلات تتوقف وتتفتح منها كوى ومصاريع ، ويخرج رجال معفرون ، وينظرون الى ما حولهم ، حتى خيم الذهول والصمت : أين كان هؤلاء الرجال ؟ كيف استطاعوا الدخول الى هذه الآلات والخروج منها ؟ وهل هم رجال حقيقيون أم عفاريت ؟ ولماذا كانوا هناك وماذا سيفعلون ؟ وهذه الكتل الحديدية الصفراء هل يمكن لانسان ان يقترب منها ويظل سالماً ؟ وماذا تفعل وكيف تتصرف وهل تأكل مثل الحيوانات أم لا تأكل ابداً ؟

كان الصبية أسرع من غيرهم في الاقتراب من الآلات ، ثم لم يترددوا في أن يضعوا أصابعهم فأيديهم كلها عليها . مدوا ، أول الأمر ، اصابع خائفة ، بهدف لمسها ، وحين احسوا بقسوة الحديد مدوا أيديهم ، ثم لم يترددوا في أن يدقوا دقاً خفيفاً ، وكأنهم يدقون أبواباً لا بد أن تنفتح ، حتى إذا اطمأنوا قليلاً بدأوا يدورون حولها ويتحسسونها في أماكن عديدة بالأيدي او بعصيّ صغيرة ، وتجرأ احد الصبية وقذفها بحجر .والرجال الذين كانوا يراقبون الأطفال بعصبية في البداية ، خوف ان يقع لهم مكروه نتيجة هذا العبث ، لم يلبثوا أن أصبحوا راغبين في أن يفعل الصبية ما يفعلون ، لأن ذلك قد يمكنهم من معرفة الغاية التي جاءت من أجلها هذه الآلات وماذا ستفعل .

إنها لحظات من المراقبة الدقيقة الحادة ، تخللتها المخاوف والدهشة . أما حين خرج بعض العاملين في المعسكر ، مع أولئك الذين كانوا داخل هذه الآلات ، ليلقوا نظرة ، فقد تراجع رجال وادي العيون والصبية بضع خطوات ، ووقفوا منتظرين خائفين ، وبطريقة مليئة بالزهو والثقة كان الرجال الجدد يدورون حول الآلات ، ويفتحون مصاريعها ويرفعون اغطيتها ، والآخرون ينظرون باهتمام .

في إحدى اللحظات قفز واحد من الرجال ودخل في الآلة ، وخلال لحظة خاطفة انطلق الهدير ، ثم بدأت الحركة . كانت تلك الآلة تدور بطريقة شيطانية ، كانت ترتفع وتنخفض وتهدر وتئز ، وأهل وادي العيون الذين ابتعدوا مسافة كبيرة ، كانوا ينظرون بعيون خائفة مدهوشة ، وقد عقد الصمت ألسنتهم ، ولا يعرفون متى تنفتح ابواب الجحيم وتبتلع كل ما هو فوق الأرض .

ولأول مرة ، منذ شهور طويلة ، يسمع اهل الوادي من جديد صوت متعب الهذال :

ـ وصلت العفاريت ولازم نصرها ، واذا بقينا مثل الخشب راح تاكلنا وما تخلي منا اثر .

ربما كان يريد ان يتكلم أكثر من ذلك او غير ذلك ، لكن الصمت الذي خيم ، بعد أن توقفت الآلات ، والنظرات المتسائلة الخائفة التي انصبت عليه من الذين حوله ، جعلته يشعر باللاجدوى . لا احد يفهمه ، لا احد يقف الى جانبه ، ولن تجدي أية كلمات يمكن ان يقولها . وبطريقة عصبية ، عبرت عنها هزات رأسه اليائسة المعذبة ، تراجع الى الوراء ، وكأنه شعر بالندم ، لأن هذه الكلمات افلتت منه دون ارادة ، وحين أمسك به بعض من كان حوله ، وطلب منه ان يفسر طبيعة هذه المخلوقات العجيبة ، وماذا ستفعل ، نحّى الأيدي بخشونة ، وكأنه لا يطيق ان تمسه يد أو ان يسمع كلمة . والرجال الذين تعوّدوا ان يكون متعب الهذال على هذه الصورة ، لم يستغربوا تصرفاته ، ولم يتوقعوا شيئاً هاماً يمكن أن يقوله لهم ، لذلك انصرفوا عنه ، وانطلق هو الى رابية قريبة وجلس . كان في موقعه القريب البعيد ، وبجلسته المتوترة ، يرقب كل شيء ويفكر ، وكأنه يشهد نهاية حقبة طويلة من الحياة والزمن .

إنها نهاية عالم ، او ربما نهاية مرحلة من المراحل الطويلة التي سيطرت على الحياة في هذه الصحراء البعيدة المنسية . لم يقل هذا احد بصراحة سوى متعب الهذال ، أما الآخرون ، في وادي العيون وما حوله ، فقد احسوا بذلك وان لم يعبروا بكلمات أو أفكار . كانت تتملكهم مشاعر الضغينة والنزق والخوف ، وكانوا ينظرون حولهم بتساؤل ، لكنهم لم يدركوا ولم يقدروا بوضوح اي شيء يمكن أن

يحدث ، او ربما كانوا يأملون ان يقع في اللحظة الأخيرة امر قد يغيّر كل ما يدبّر ويخطط فتعود الأمور الى ما كانت عليه في الوادي وينتهي هذا الحلم القاسي الطويل .

رغم مرور الساعات الطويلة ، والناس ينتظرون ، فان الأميركيين ظلوا قابعين داخل المعسكر في حالة من الصمت والتحفز . كان يتخلل هذه الساعات خروج مجموعة من خيمة لأخرى ، ان ترتفع النداءات، وبعض الأحيان ترتفع اغانٍ او أصوات مترنحة ، لكن هذا لا يدوم طويلاً ، ويغرق المعسكر مرة أخرى في الصمت . والناس حول المعسكر افتعدوا الأرض في جماعات صغيرة ، تحت ظلال النخيل والتين ، وكأنهم ينتظرون شيئاً ما . كان كل واحد على يقين راسخ ان امراً ما لا بد أن يقع ، وهذا التيقن دفع بالكثيرين لان يرسلوا أولادهم لاحضار بعض الأكل ، وتحمس بعضهم لان يعد القهوة في الهواء ، بعيداً عن المضارب والبيوت ، لأن الرغبة بالمتابعة وعدم ترك أي أمر يحدث دون أن يكون الانسان موجوداً ، سيفوّت فرصة لا يمكن تكرارها .

ومتعب الهذال الذي ظل على الرابيةالبعيدة المطلة، يراقب ويفكر ، لم يستجب للنداءات في أن ينزل ويأكل ، أو ليشارك في قهوة الصباح ثم قهوة قبل الظهر ، فقد ظل صامتاً مهموماً ، وظلت حواسه مستفزة مليئة بالانتظار ، وكان اكثر الجميع توقعاً . أما حين ارسلت اليه بضع حبات من التين والتمر ورغيف من الخبز ، فقد وضعها جانباً ، اذ لم يكن جائعاً أو راغباً في الأكل ،لكن هاجساً ما دفعه لعدم رفضها ، لأن الانتظار قد يطول ، ولا يريد ان يترك المكان .

إنها إحدى المرات النادرة التي تسيطر فيها تلك الحالة على جميع الناس في الوادي وما حوله ، لأن هؤلاء العفاريت ، منذ أن وصلوا ، قبل بضعة شهور ، يزدادون غموضاً ، وتصبح معرفة نواياهم اكثر صعوبة ، انهم طوال ساعات النهار داخل الخيام ، خاصة الخيمة الكبيرة في الوسط ، ثم في البيوت الخشبية التي بنيت باتقان ، يكتبون ويرسمون ، في جو من الخفاء يغلف حياتهم كلها . وأهل الوادي الذين تميزوا منذ وقت طويل بالفراسة ومعرفة الحاجات والبشر، خاصة وانهم تعودوا على ذلك من المراهنات الكثيرة التي كانوا يجرونها فيما بينهم لمعرفة ما يحمله المسافرون ، وما تحمله القوافل ، فانهم تجاه هؤلاء الشياطين كانوا حائرين ،

وخافوا من أية تحديات او مراهنات فيما بينهم ، كل ما عرفوه ان الأميركيين سوف يخرجون النفط والذهب من الأرض ، أما كيف سيفعلون ذلك ، فلم يكن احد قادراً على معرفة او تحديد اي شيء . وفي المرات التي حاول ابن الراشد ، مستغلاً علاقاته مع « الغراب » ثم مع المترجم ، لم يظفر بأكثر من إجابات عامة ، وحين حاول ان يزيد الأمور وضوحاً بمعلومات من عنده ، لم يستطع اختراع سوى كلمات أضافت غموضاً على الغموض الذي كان يغرق فيه .

والآن ، وبعد أن وصلت مجموعة من هذه الآلات الجهنمية الصفراء ، فقد توقع الجميع ان نهاية ما أصبحت وشيكة ، وكل واحد يريد رؤية هذه النهاية بنفسه ، وان يعرف كل التفاصيل ، حتى أصغرها وأكثرها خفاءً .

الساعات تمر طويلة ثقيلة . وساعات بعد ظهر هذا اليوم تبدو أطول وأثقل ساعات تمر على الوادي ، منذ ان وجد الوادي ، ومنذ ان وجدت تلك الأعمال الصغيرة التي تشغل الناس . وحتى العادات التي تعودها بعض الرجال ، كأن يشرفوا على عقل الجمال ، أو أن يعدوا القهوة بأنفسهم ، لكي تطيب وتكون بالمذاق الذي يشتهون ، حتى هذه العادات ما لبثت أن تراجعت وتأجلت ، دون شعور بالضيق ، وكُلف الشبان الصغار بالأعمال التي لم يتعودوا القيام بها ، فأقبل عليها هؤلاء بحماس كبير .

كان الرجال ينتظرون حدوث شيء ما خلال النهار ، لكن معظم الساعات انقضت والحياة عادية رتيبة ، وكأن هذا اليوم سينقضي كغيره دون مفاجآت ، أما والشمس تنزلق نحو المغيب ، فقد أقبلت الدواب وملأت الوادي بأصواتها وضجيجها وجاء الرعاة والبدو الذين يردُون الماء في هذا الوقت ، وبالحركات المليئة بالمبالغة والصخب ، خلقوا دوياً اضافياً ملأ الوادي كله ، ثم جاء الأميركيون وأضافوا الى ذلك الضجيج دوي الآلات التي جلبوها معهم منذ البداية ، والتي تولّد النور والصخب والخوف في نفوس الكثيرين ، فأصبح الوادي عند ذاك اقرب ما يكون الى عواء ذئاب ضالة أو الى صرخات بنات آوى الجائعة الخارجة في أول المساء باحثة عن شيء تأكله أو عن إلف تستأنس به .

هكذا كان الوادي في تلك الساعة اول المساء . ورغم أن شيئاً من الملل او ما يشبه

الحزن قد سيطر على معظم الرجال . وظنوا ليلة اخرى قاسية مملولة سوف تنقضي كما انقضت الليالي كلها منذ ثلاثة شهور او اكثر . فقد خرج فجأة ، وعلى شكل موكب او تجمع كبير معظم الذين كانوا في المعسكر . كان « الغراب » يقود هذا الجمع ، وبدا أن حديثاً طويلاً قد جرى من قبل ، اذ ما كادوا يتركون باب المعسكر حتى أشار « الغراب » بيده أول الأمر ناحية اليسار ، ثم ناحية اليمين ، مع كلمات كثيرة والتفات نحو هذه الناحية ثم نحو تلك ، وحين بدأ الأميركيون بالحركة ثم بالمسير انخضّ الوادي كله ، وتولدت ضجة تشبه الصخب ، لأن الأطفال والصبية الذين كانوا يراقبون ، والذين كانوا يوردون الدواب ويساعدون في السقاية ، ما لبثوا ان صرخوا وتحركوا بشكل أقرب الى الفوضى . أما الرجال الذين بدوا اكثر اتزاناً واستقراراً فقد التفتوا ، ثم تحركوا مبتعدين قليلاً عن طريق الأميركيين ، فلما شق هؤلاء طريقهم ، متوقفين أول الأمر عند العين والآبار ، ثم سائرين في الوادي ، تابعهم الرجال بأعينهم ، ثم تحركوا ببطء وراءهم . أما متعب الهذال فقد انتفض منذ اللحظة التي غادر فيها الأميركيون المعسكر . وقف على الرابية مثل ذئب متحفز ، حتى اذا تحركوا تحرك بموازاتهم ، محتفظاً بنفس المسافة والسرعة ، لكن كانت عيناه ترقبان كل حركة ، وأذناه تلتقطان كل صوت ، وبدا شديد الاهتمام دقيق الملاحظة ، وراغباً في معرفة كل شيء . أخذ يفسر ويقدر كل حركة وكل إشارة ، أما حين تكلم « الغراب » مشيراً الى كثبان الرمل والساقية والأشجار ، فكان شعور الحقد يتزايد ويقوى في قلب ابن هذال ، الى درجة ان حركته بدت عصبية ، واعترى وجهه الشحوب . أما الكلمات التي كان يرددها فقد فهم بعض الصبية القليل منها ، ونقلوا انهم سمعوه يقول « يا أولاد الزواني يا أحجار القراني ، سأنتقم منكم قبل أن ينتقم الواحد القهّار » وقالوا ايضاً انه شتم الحكومة والسلطان والأمير وكل الذين يساعدون الكفار .

لم يترك متعب الهذال حركة دون ان يراقبها باهتمام ، اذ ظل يمشي ويقف ويشتم وينظر الى كل شيء كما لو أنه لن يرى المكان مرة أخرى ، ورغم ان احداً من الأميركيين لم يلتفت اليه ، الا أنه جفل اكثر من مرة حين كان يشار باتجاهه ، اذ ظن في البداية انهم يقصدونه ، لكن تأكد في وقت لاحق انهم يقصدون الأرض التي يمشي عليها ، وانه لا يعدو ان يكون علامة من العلامات في هذا المدى الفسيح !

ولولا ان « الغراب » تقدم باتجاهه ، لكن دون ان يلتفت اليه أو يهتم بوجوده ، ويضع برجله علامة على التراب ، ثم يبدأ بقيس المسافة حتى منتصف الوادي ، لولا هذه الحركة لظن متعب الهذال انهم يعنونه بالاشارة ، وكاد ان يتصرف بحمق . إذ ماذا يريدون منه ما دام يسير بعيداً عنهم بعشر خطوات او تزيد قليلاً ؟ أليس من حقه أن يذهب الى بستانه في النصف الأخير في الوادي ويجلس هناك ويغني ويفكر ويشتم كما يريد ؟ ان من حقه أن يفعل ما دام لا يؤذي أحداً . أولم يفعل ذلك طوال السنين الماضية ؟

هكذا فكر ابن هذال وهو يرى « الغراب » يتحرك بحماس ويشير بيديه ويعلو صوته ، والآخرون الذين كانوا يرافقونه أبدوا من الاسئلة والملاحظات الكثير ، وقد ولّد هذا خوفاً حقيقياً لديه ، وظن ان ليلته تلك لن تمر على خير . ولا يعرف لماذا قرر أن يرجع قبل الأميركيين الى عين الماء . هبط الى العين مسرعاً ، شمر عن ساعديه ، وغرف بيديه الاثنتين غمراً كبيراً وسفحه على وجهه ، تنشق الماء وتركه يسقط على لحيته ، ثم أخذ غمراً ثانياً وشرب ، وبعصبية انتزع سترته ودسّ رأسه في الماء ،هزه عدة مرات وظلت عيناه مفتوحتين . شعر بالبرودة واللذة والخوف ، ظل كذلك وقتاً ، حتى إذا أحس أن أنفاسه تتكاثف في صدره وتثقل عليه رفع رأسه ، ترك قطرات الماء تتساقط بغزارة ثم تتراجع شيئاً فشيئاً بعد ذلك ، وأخيراً وبجماع كفه ملأ راحته وشرب ، وبهدوء، وكأنه وحده في هذاالعالم، اتجه الى الرابية ، اتخذ مكاناً عالياً مطلاً على الماء مباشرة . ربما اعتبر أن الوادي لا يعني شيئاً لو أن الماء توقف ، وربما اعتبر أن بستانه والأرض التي قبله ثم التي تليه الى آخر الوادي لا تعني شيئاً خاصاً إذا أراد الأميركيون ان يوقفوا الماء . بل وفكر ايضاً ان الأرض في الوادي كله متساوية الى درجة لا يمكن ان يعتبر أرضه ذات قيمة أو اهمية مختلفة عن الأراضي الأخرى في الوادي . لو أنه فكر بشكل مختلف لظل في البستان ، ولنام تحت شجرة من أشجار النخيل . ولو أنه اراد ان يدافع عن بستانه واشجاره وحدها لما اختار هذا المكان المكشوف حيث يراه الجميع . ان شيئاً ما دفعه لاختيار هذا المكان ، وحين رجع الاميركيون ، وظهرت وجوههم وظلالهم تحت الأسوار القوية ، كان قد سهل الأرض عند تلك الرابية ، وقرر ان يبقى ساهراً منتظراً حدوث تلك المعجزة التي طالما انتظرها !

بعد الفجر بقليل ، وحين كانت اضواء النهار الاولى تتمدد وتنفصل عن الظلمة ثم تتفرد بهدوء فوق الاشياء ، كان الوادي لا يزال يلتف بغلالة خفيفة تركها الليل والرطوبة المتسربة من الهواء والاشجار ومياه العين ، ومن انفاس الناس الذين كانوا ينتفضون بهدوء تلك الساعة ليبدأوا يوماً آخر . كان متعب الهذال ، بعينيه الواسعتين الحزينتين ، واللتين لم تغمضا لحظة واحدة ، يرقب وينصت ويفكر ويتابع حركة الحياة في ولادتها الجديدة ، في ذلك اليوم الخريفي البعيد . كانت الاشياء والاماكن والحياة ، حتى تلك اللحظة ، تتململ في الصمت الحزين الهادىء ، وكأنها ستبقى هكذا الى الابد ، لكن صرخة قوية انفجرت في المعسكر ، وبانفجارها غير المتوقع ، والذي ولّد تحفزاً لدى متعب الهذال ، بدأت الحياة تتغير ، وما هي الا لحظات قليلة حتى هب الاميركان ، وبعد وقت لم يطل خرجوا .

كان خروجهم خروج الشياطين ، ففي لمح البصر توجهوا الى الآلات بتلك العصبية وذلك الاندفاع انذاراً اخيراً ان كل شيء قد انتهى . لم يقل احد ذلك لمتعب الهذال ، لكن احساساً قوياً طغى عليه وملأه تماماً ، اذ رغم انه لم يعرف ماذا سيحصل ، الا ان تلك الحركة الموزونة الحاقلة جعلته يحس ذلك . نهض على مهله ، تنشق هواء الوادي برئتيه وجسده كله . نظر الى كل ما حوله وكأنه يودع

الاماكن والاشياء . رأى سرباً من طيور القطا يحوم . نظر الى الرجال في المعسكر ، امتلأ احساساً قوياً بالنهاية ، وما كادت تلك الآلات المجنونة تبدأ الحركة حتى صرخ صرخة حادة موجعة :

ـ حسافا .. حسافا . . . يا وادي العيون !

كانت تلك الحركة إيذاناً حقيقياً ملعوناً حافلاً مجنوناً بالنهاية ، واذا كان هناك احد يتذكر تلك الأيام البعيدة ، الأيام التي كان يوجد خلالها مكان يسمى وادي العيون ، ورجل يدعى متعب الهذال ، وعين من الماء واشجار ، وبشر من طبيعة معينة . . . اذا كان لا يزال هناك من يتذكر ، فان اقوى ثلاث ذكريات لا تزال تخبط القلب كلما عاد الانسان الى تلك الأيام وتذكر : التراكتوارت وهي تهجم مثل ذئاب جائعة على الاشجار وتبدأ تمزقها وترميها ارضاً الواحدة بعد الاخرى ، ثم بعد ذلك تسوي بين شجرة وثانية ، بين الساقية والارض التي حولها ، حتى اذا انتهت من مجموعة من الاشجار هجمت بنفس الضراوة والوحشية على مجموعة جديدة وبدأت تقتلعها . كانت الاشجار،وهي تميل وتترنح ، قبل ان تسقط ، تصرخ،تستغيث ، تولول ، تئن ، تنادي نداء اخيراً موجعاً ، حتى اذا اقتربت من الارض هوت بتضرع ، وكأنها تحتج او تريد ان تلتحم بالتراب من جديد ، في محاولة لأن تنبثق ، لأن تنفجر مرة اخرى .

هكذا بدأت مجزرة وادي العيون ، وهكذا استمرت حتى اتت على كل شيء ، ومتعب الهذال الذي شهد بداية المجزرة لم يشهد نهايتها ، لان الرجال الذين وصلوا على صوت الآلات المجنونة ، ووقفوا يرقبون ما يجري امامهم ، وبعد ان أفاقوا من الذهول الذي سيطر عليهم خلال الفترة الاولى ، والتفتوا ورأوا ابن هذال ، قال هؤلاء الرجال اشياء كثيرة شديدة الحزن . قالوا انهم لاول مرة في حياتهم يشهدون رجلاً مثل متعب الهذال يبكي . كانت دموعه تتساقط بغزارة ، لكن وبصمت ايضاً . كان صامتاً تماماً . لم يفه بكلمة واحدة . لم يشتم . لم تخرج من حنجرته اية آه او نأمة ، فقط كانت دموعه تنهمر ، ولم يكن خجولاً او خائفاً ، ولم يكن فخوراً ايضاً . كان ينظر من خلال الدموع الى الوادي كله ، كان ينظر بصمت ويهز رأسه .

في وقت ما ، ولم يعرف ذلك الوقت ابداً ، والرجال يتابعون ويتحركون ، والآباء ينادون على ابنائهم لكي يجمعوا الحطب معهم ، لكي يساعدوهم ، انسحب ،

بهدوء ، متعب الهذال ، ترك الراية باتجاه الظهرة . وخلال فترة قصيرة ، رغم توسلات وضحة التي هوت على قدميه تقبلها ، ورغم محاولات الاقرباء ، كان قد اتخذ قراراً . اخذ يعمل بهدوء ، حضر كل ما يحتاجه ، دون ان يلتفت الى احد ، دون ان يسمع كلمة واحدة من الكلمات الكثيرة التي كانت تقال . كانت في عينيه بقايا دموع ، لكنه لم يبك ، أما حين انتهى من تهيئة كل شيء فلم ينس التقاط بندقيته وقربة الماء ، وحين اعتلّ ظهر ناقته العمانية ، نظر الى الجميع ، نقّل نظراته من وجه لآخر ، وبدا انه يتمعن ، كأنه لا يريد ان ينسى ، حتى اذا نظر الى كل الوجوه لكز ناقته فاهتزت اهتزازاً قوياً وهي تنهض ، وبدا متعب الهذال وهو يرتفع مثل خيمة كبيرة ، ثم بدا مثل غيمة ، أما حين بدأ حركته السريعة فقد اصبح مثل طير ابيض . . . وبدأ يبتعد ويبتعد حتى تلاشى . . . واختفى !

لم يره الا القليلون وهو يرحل . كان الناس في الوادي مشغولين خائفين وهم يراقبون تلك الآلات المجنونة تقتلع الاشجار وتدك الارض وتقلب كل ما فوقها ، ولما تعبوا من المراقبة، ورأوا كل شيء بعيونهم يتهدم وينتهي ، تلفتوا، نظر بعضهم في وجوه بعض مستغربين ، أما عندما سألوا عن متعب الهذال فقد وُجد من قال انه رحل . بدت الكلمة غريبة ، غير مألوفة ، بل ومعادية ايضاً « متعب الهذال يرحل ؟ كيف يرحل ويترك الوادي . . والى اين يمكن ان يرحل ؟ » .

بدا كل شيء غير قابل للتصديق . قال احد الرجال :

- متعب لا يترك الوادي ، متعب يموت ولا يرحل .
- رحل منذ زمن طويل . رحل حين قطعوا اول شجرة .
- متعب لا يرحل . . . اراهن .
- الظهرة قريبة ، والوادي الآن مثل ما تراه ، لا يخفي ابرة .
- من ناقة الى ناقة .
- ولكنه رحل منذ ثلاثة ايام . شعلان قال انه رحل . وانا رأيته بعيني على ناقته مشرّقاً .

بهدوء ، متعب الهذال ، ترك الرابية باتجاه الظهرة . وخلال فترة قصيرة ، رغم توسلات وضحة التي هوت على قدميه تقبلها ، ورغم محاولات الاقرباء ، كان قد اتخذ قراراً . اخذ يعمل بهدوء ، حضر كل ما يحتاجه ، دون ان يلتفت الى احد ، دون ان يسمع كلمة واحدة من الكلمات الكثيرة التي كانت تقال . كانت في عينيه بقايا دموع ، لكنه لم يبك ، أما حين انتهى من تهيئة كل شيء فلم ينس التقاط بندقيته وقربة الماء ، وحين اعتلى ظهر ناقته العمانية ، نظر الى الجميع ، نقّل نظراته من وجه لآخر ، وبدا انه يتمعن ، كأنه لا يريد ان ينسى ، حتى اذا نظر الى كل الوجوه لكز ناقته فاهتزت اهتزازاً قوياً وهي تنهض ، وبدا متعب الهذال وهو يرتفع مثل خيمة كبيرة ، ثم بدا مثل غيمة ، أما حين بدأ حركته السريعة فقد اصبح مثل طير ابيض . . . وبدأ يبتعد ويبتعد حتى تلاشى . . . واختفى !

لم يره الا القليلون وهو يرحل . كان الناس في الوادي مشغولين خائفين وهم يراقبون تلك الآلات المجنونة تقتلع الاشجار وتدك الارض وتقلب كل ما فوقها ، ولما تعبوا من المراقبة، ورأوا كل شيء بعيونهم يتهدم وينتهي ، تلفتوا، نظر بعضهم في وجوه بعض مستغربين ، أما عندما سألوا عن متعب الهذال فقد وُجد من قال انه رحل . بدت الكلمة غريبة ، غير مألوفة ، بل ومعادية ايضاً « متعب الهذال يرحل ؟ كيف يرحل ويترك الوادي . . والى اين يمكن ان يرحل ؟ » .

بدا كل شيء غير قابل للتصديق . قال احد الرجال :

- متعب لا يترك الوادي ، متعب يموت ولا يرحل .
- رحل منذ زمن طويل . رحل حين قطعوا اول شجرة .
- متعب لا يرحل . . . اراهن .
- الظهرة قريبة ، والوادي الآن مثل ما تراه ، لا يخفي ابرة .
- من ناقة الى ناقة .
- ولكنه رحل منذ ثلاثة ايام . شعلان قال انه رحل . وانا رأيته يعيي على ناقته مشّرقاً .

ـ اريد ان اخسر راسي واخسر الناقة . متعب لا يرحل .

ـ وكّل الله يا ابن الحلال ، خلي راسك بين اكتافك وخلي ناقتك عندك ، واسمع كلامي : متعب رحل !

قال الكثيرون : متعب الهذال مثل عادته دائماً : اذا جاءته « السودا » يغيب يوماً او يومين ثم يعود ، ولذلك فاذا شرّق او غرّب لا بد ان يرجع .

كان اهل الوادي جميعاً على يقين راسخ ان متعب لا يتخلى عن الوادي ، وانه ليس مثل الآخرين يمكن ان يحمل امتعته ويمشي . أما اذا كان قد دخل الصحراء غاضباً مهدداً كما فعل ابوه وجده ، فلا بد عندئذ ان يفعل مثلما فعلوا . كانوا اشرس اهل الوادي في محاربة الاتراك ، كانوا لا ينامون في مكان واحد مرتين ، وقد حولوا الطريق السلطاني كله الى جحيم ، حتى ان الاتراك وضعوا جائزة « مائة ليرة رشادية » لمن يقتل جازي الهذال او يأتي به حياً . وقبل جازي كان ابوه ، متعب ، قبض الاتراك عليه مرة . لكن قبل أن يصبح الصباح هرب . رُوي انه وضع في القهوة مادة دوخت الحراس . وقيل انه رشاهم فتركوه يهرب ، وقد عوقب رجال حامية وادي العيون كلهم ، ونقلوا لانهم لم يستطيعوا الاحتفاظ بمتعب الهذال وان يرسلوه الى حامية الكرك .

تذكر الناس هذه القصص وتوقعوا ان متعب الهذال سيعود مرة اخرى . الذين شعروا بالخوف قالوا ان هذا الزمان يختلف عن زمن الاتراك ، ولذلك لا يمكن لمتعب ان يرفع بندقية او ان يقتل احداً . أما الذين كانوا اكثر شجاعة وتفاؤلاً فقد وافقوا على ان متعب سيعود ، لكن اضافوا انه اذا عاد سيشعل الدنيا ، قد يقتل وقد يخرب ويمكن ان يحرق ايضاً . أما ان يترك الاميركان ، خاصة بعد ان فعلوا ما فعلوا في وادي العيون ، فامر مستحيل . قال نزال المعاني ، وهو يتطلع الى مكان بعيد :

ـ العتوم مثل حيات الشتا ، يختفون ، ينامون ، لكن اذا دفت .. الله يستر .

رد محمد المدور وهو يهز رأسه ويبتسم :

ـ كيف تخلص وين تروح يا ابن الراشد ؟

وبنزق قال عبد الله السعود الذي كان يسمع ولا يرغب في المشاركة :

ـ والله يا اهل العيون ما عندكم غير السوالف ، والزلمة حتى يكفّ شره ، حتى يخلّص روحه ترك الوادي وهجّ ، ما ظل بنفسه شي . وانتم تقولون فلاني وتركاني ، وكأنه ما عندكم سالفة غير ابن هذال .

وتطلع الرجال من جديد أحدهم في وجه الآخر . وهزوا رؤوسهم أسفاً وحزناً وانتظاراً .

وبدا بالنسبة لكل واحد ان سفر ابن هذال مهما طال ، وغيابه مهما امتد فلا بد ان ينتهي ولا بد ان يعود .

ورغم ان الكثيرين تصوروا ، اثناء ما كانوا يراقبون المشهد الغريب ، ان ما يشهدونه حلماً او ما يشبه الحلم ، الا ان توقف التراكتورات واحداً بعد آخر ، وذلك الصمت القاسي الذي خيم على هذه الارض « الجديدة » ، فبدا الوادي وكأنه جزء من الصحراء التي تليه ، عدا بعض التلال ، ثم تلك الاكوام من بقايا الشجر ، عند ذاك تأكد الجميع أن ما يرونه شيء حقيقي ، شيء قاس لئيم معاد ، وأقرب ما يكون الى الموت .

الى جانب هذه البقايا في السهل الفسيح ، ظلّ اولئك الذين اصروا على البقاء وتفاءلوا وتوقعوا وانتظروا . كانت حركاتهم بطيئة حزينة واقرب ما تكون الى اهتزاز الفزّاعات المصنوعة من الخرق وسعف النخيل اذا ضربتها الريح . كانت تتحرك ثم تسكن تدريجياً حتى تصبح جزءاً من المدى الصلب المغبر اللامتناهي ، وتعود مرة اخرى الى الحركة ثم الى السكون .

وابن الراشد الذي بذل جهوداً خارقة في الأيام الأخيرة ، بالتعاون مع قوات البادية ، على ترحيل اهل الوادي ، واختار الرجال العشرين الذين سيعملون في المعسكر ، كان مرتبكاً خائفاً من تشتت بعض الناس او تأخرهم في الرحيل ، أما عند عصر اليوم الثالث ، ومع سقوط الاشجار الأخيرة ، فقد صرخ في الرجال المتجمعين ، واخذ وجهه سمات الحدة والحزم :

ـ يا جماعة الخير .. ارحلوا برضاكم مثل ما رحل الجماعة قبلكم احسن ما ترحلكم العصا . كل واحد اخذ حقه المقسوم ، والامير يقول اللي يريد ديرته وعشيرته فالف سلامة ، واللي يريد مكان ، الحكومة حضّرت المكان .

بعد ذلك لم ير الناس ابن الراشد ، ولم يعد اليهم . ظل مرابطاً في المعسكر ،

وبدلاً منه جاء رجال البادية .

ابلغ رجال البادية من تبقى من اهل الوادي بضرورة الرحيل . رفضوا اية مناقشة . وبعد ان نادوا على الذين سيبقون ، ووضعوهم قريباً من المعسكر ، قال احد الجنود ، وكان ينظر الى الأرض :

ـ معكم هذه الليلة ، وباكر قبل الغروب انتم بديرة ثانية . . . ونتلاقى .

في جو من الغيظ والتحدي والحزن والغضب وعشرات المشاعر الاخرى التي سيطرت على الناس في الوادي ، كانت أم الخوش الانسان الوحيد الذي لا يخضع لاية اوامر ، ولا يوافق على كل ما يجري . اذ بعد ان جمعت حاجاتها في كومة صغيرة ، ووضعت الى جانب الذين سيرحلون ، تبرع بعض الناس فحزم هذه الحاجات . كانت اشياء لقلتها وتنافرها ، تثير الضحك والحزن في نفس الوقت : ثياب قديمة ، تنكات فارغة متفاوتة الاشكال والاحجام ، قطع خشبية ، مجموعة من الحبال وعصا خيزران معقوفة الرأس . وام الخوش التي كانت ، ذلك الوقت ، قريباً من الظهرة ، تنتظر ، مثل عادتها كل يوم ، قافلة جديدة ، لعلها تسمع خبراً او ترى احداً . حين جاءت ووجدت كومتها ، وقيل لها انها سترحل مع الراحلين ، نظرت بسخرية ، ابتسمت اكثر مما تفعل في العادة ، وبهدوء جرت اشياءها وفصلتها عن الكوم الكبير الذي كان على شكل دائرة . جرتها الى مسافة اعتبرتها كافية وانفصلت عن الراحلين واشيائهم . فكت الحزمة ، فكتها بعناية . اخرجت بعض ملابس الخوش ، نفضتها في الهواء ، تشممتها ، ابعدتها عن عينيها قليلاً ونظرت اليها من هذه المسافة ، كما لو انها تتأكد من مظهرها وجمالها ، ثم قرّبتها الى وجهها مرة اخرى ، نظرت اليها بعناية لتطمئن الى سلامة القماش وحسن صنعه . تشممتها مرة ثانية ، حتى اذا ملأت روحها منها جمعتها ، وضعتها بعضها فوق بعض . ربتت عليها ، تكلمت معها ، قالت اشياء احزنتها وافرحتها ، اضحكتها ثم ابكتها . قامت بكل هذه الاعمال الصغيرة ، كما لو انها وحدها في الفلاة ، والناس الذين كانوا يتابعون ، وكأنهم يرونها لاول مرة ، رأوا في وجهها وجوههم ، واحسوا ان حياتهم مليئة بالحزن والانكسار . كانوا يتابعون تلك الحركات بصمت ، ولم يفطن الكثيرون الى الدموع تسيل من عيونهم . تذوقوا ملوحتها واحسوا بها كاوية فنظروا الى الأرض ولم يجرؤوا على أن ينظر الواحد في وجه الآخر . أما عندما ناموا ، وقد

فعلوا ذلك في وقت مبكر ، وكانوا مثل القطط في ليالي الشتاء فوق أمتعتهم وأشيائهم . وبعد ان بدأ الخدر ثم النوم ، سمع صوت أم الخوش . ظن من كان مستيقظاً ، اومن أفاق على صوتها ، أنه في حلم ، أو في عالم آخر . فقد كان الصوت مرتجفاً وفيه لوعة . سألت بصوت عالٍ وهي في مكانها :

ـ يا جماعة الخير . يا اهل الوادي ، نسيت اسألكم عن متعب ، ابو ثويني ، وين متعب ؟

لم يجرؤ احد على ان يجيب . امتد الصمت ثقيلاً كثيفاً ، سألت من جديد :

ـ يا جماعة . . اللي يعرف علوم ابو ثويني يعلمني .

واستمر الصمت ، وقد رافقه ذلك التوتر الذي ينبيء بالخوف ، لان اللحظة التالية يمكن ان تفجّر كل شيء . قال صوت خشن ، لا يعرف ان كان صوت رجل ام صوت امرأة عجوز :

ـ نامي يا بنت الحلال ، نامي والصباح رباح .

علت ضحكة مختنقة جافة ثم صوت .

ـ لا تخافوا يا جماعة الخير ، اللي يعرف علوم ابو ثويني يعلمني .

أما عندما استمر الصمت شديداً قاسياً ، واكثر حزناً من قبل ، فقد سألت بلهجة تعريض هازئة :

ـ الصباح رباح ؟ باكر تعلموني باخبار ابو ثويني ؟

وظل الصمت مثلما كان قاسياً مرتاباً ، واقرب ما يكون الى الخوف . تابعت بنفس السخرية :

ـ يا جماعة الخير ، البارحة . . لا قبل يومين او ثلاثة ايام . . . انا شفته ، سولفنا وقال لي : لا تخافي ، الخوش يرجع . وانتم تعرفون . انا صار لي سنين اتني الخوش وانشد ، وانتم ، انشدكم عن ابو ثويني ولا احد يجيب ولا احد يسمع . . .

توقفت قليلاً ثم اضافت بمرارة :

ـ الله منكم يا اهل الوادي .

وانكفأت ام الخوش على نفسها .

الذين ظلوا ساهرين كانوا يسمعونها تحدث نفسها . لم يفهموا شيئاً مما كانت

تقوله . ولم تعد الى توجيه الاسئلة او انتظار اجابة احد . والذين دخلوا في ملكوت النوم او اقتربوا منه ، كانت تصلهم اصوات رتيبة تتكرر باستمرار ، في لحظات تعلو الاصوات قليلاً ، وفي لحظات اخرى تتوارى لكن لا تغيب ولا تتلاشى . انها تشبه ولولة ريح مقبلة او استغاثة بعيدة ، أما عندما بدأ الصوت يتداخل ويتثنّى ويغيب حتى التلاشي ثم يهب مذعوراً ، فكان الذين غادرهم النوم ، والذين لم يغفوا عليه منذ البداية . يحسون في ذلك الصوت ندباً موصولاً بالقلب او كأنه الشوكة في باطن العين . كانوا يغمضون اعينهم في رحلة طويلة مع الذكريات الحزينة ، وكأن تلك الرتابة الموجعة تجعل للاشياء نكهة مختلفة وطعماً كاوياً كالجرح المفتوح .

في وقت لا يدرى متى ، في صراع النور والظلمة ، هدأ صوت العجوز . لم يهدأ دفعة واحدة او بشكل مفاجىء ، وانما تباطأ وارتخى ، ثم اشتبك باللهاة تماماً ، فاصبح مجرد نبرة تشبه قطعة من الذهن تذوب شيئاً بعد شيء ، فلما غاب نهائياً ، قال الذين لا يزالون يساهرون النجوم « النوم راحة . . وقد نامت العجوز » .

* * *

مع غياب نجمة الصبح بدأت الحياة تدب في هذه الكومة من البشر مرة اخرى . بدأت رخوة مترددة ، لكن مع اتساع رقعة السماء وانفصال الارض عن الفضاء ، في هذا المدى المترامي الى ما لا نهاية ، اخذت الاجساد حركة اكثر وضوحاً ثم اكثر قوة . الذين انتفضوا مع ذرات النور المتقدمة ، وكأن يداً خفية هزتهم وايقظتهم ، انفتحت عيونهم فذعروا او لم يصدقوا ، لان النوم اذا كان قد سرقهم وانساهم في اي مكان هم ، وفي اي وضع كانوا ، فان اليقظة الاولى لم تساعدهم على ان يعرفوا او على ان يستوعبوا ، لذلك هزوا رؤوسهم مرة بعد اخرى ، لكي يطردوا النوم ، ونظروا من جديد ليتأكدوا ، فلما تذكروا من جديد اغمضوا اعينهم في محاولة للغرق او النسيان ، لكن ذلك كان متأخراً او ربما مستحيلاً .

قبل شروق الشمس استيقظ الجميع ، عدا ام الخوش . كانت تنام واضعة جبهتها على كومة الملابس ، في جلسة اشبه ما تكون بالصلاة ، كانت راكعة نصف ركوع ، وكأنها مترددة او لم تصل بعد ، وكان شكلها مثل نصف الكرة . نظر اليها الكثيرون بحذر وكأنهم يخشون إيقاظها او يريدون لها ان تنام وقتاً اطول لتعوض ما فاتها من نوم الليل . ظلت حركتهم محاذرة واصواتهم بطيئة خافتة ، وظلت في نومها

المتحفز او في صلاتها غير المنتهية ، حتى بعد ان عوت الكلاب على اثنين من رجال البادية كانا يتجهان نحو المعسكر ، أما حين بدأ الصبية يتراكضون ، واقترب احدهم من ام الخوش ، فقد نقفه عبد الله المسعود بحصاة ، واشار عليه باصبعه مهدداً ، طالباً منه ان يبتعد . وقد سمع اقرب الناس اليه يقول بصوت منخفض :

- للفجر . . العجوز ما نامت . . .

واضاف بعد قليل وهو يهز رأسه لوعة :

- الله يساعدها . . . ويساعدنا .

حين ارتفعت الشمس مقدار ذراع لم يبق شيء في مكانه . اعيد حزم الامتعة ، اشعلت النار ، تحرك الرجال من مكان الى آخر ليلقوا نظرة ، أما النسوة فقد كانت حركتهن بطيئة مترددة ، خلافاً للأيام السابقة ، وكأنهن لا يعرفن ماذا يجب ان يفعلن او كيف . أما الصبية الذين زادت حركتهم وعلت اصواتهم فلم يعودوا مبالين ان تحركوا في هذا المكان او في اي مكان آخر . حتى عبد الله المسعود الذي كان لا يبعد نظراته عن ام الخوش ، فقد اعتبر ان الوقت الذي مر ، منذ ان نقف الصبي بحصاة ، وطلب منه ان يبتعد ، كافياً ، فلم يعاود زجر الصبية او التكلم بصوت منخفض .

وظلت ام الخوش في جلستها تلك ، غير مبالية بكل ما يجري حولها ، لا تسمع ولا تتململ . كانت هادئة مستقرة في صلاتها او في غفوتها . ولئن كان رجلا البادية قد عادا من معسكر الاميركان ، فقد اقتربا كثيراً من هذه الكتلة البشرية . قال احد الرجلين بصوت حمّله مقداراً كبيراً من الود :

- يا جماعة الخير . . مشي السرى احسن لكم ، والا الشمس ذبحتكم

رد عبد الله المسعود بسخرية :

- لا تخف ، نمشي ، نمشي ، بس وكل الله يا ابن الحلال .

- لو مشيتم مع الفجر كان صرتم هالحين بالخبرة الشرقية او بعدها .

ابتعد الرجلان . نظر الصبية الى آبائهم متسائلين ما اذا حان وقت الرحيل . قال محمد المدور يخاطب نفسه بصوت عالٍ :

- اذا مشينا هالحين نمرح بالخبرة ، وبعد ما تكسر الشمس نعاود ونشيل .

سأل عبد الله المسعود ، وهو يشير الى ام الخوش :

ـ والعجوز ؟

ـ تمشي معنا .

هكذا رد اكثر من واحد . فسأل من جديد :

ـ واذا ما رضيت ؟

قال محمد المدور :

ـ رضيت او لم ترض ، نشيلها ونمشي .

ـ طيب . . شوفوها . اسألوها .

تقدم محمد المدور بخطوات قوية ، لكن حذرة ايضاً ، ووضع يده على كتفها :

ـ ام الخوش . . . يا ام الخوش .

لم تجب ولم تتحرك .

ـ الدنيا صارت الظهر . . . يا ام الخوش .

لم تجب .

امسك محمد المدور برمانة الكتف وهزها .

ـ يا ام الخوش . . .

تحركت قليلاً ، لكن لم تجب . هزها اكثر من قبل . مالت بعض الشيء نحو الجانب الايسر ، لكن لم تغير من اصرارها على ان تبقى كما هي : غافية ، معاندة . . . او ربما تواصل صلاتها . رفع كتفها قليلاً ، كانت حركته بين الشدة والحزم ، ارتفع الوجه بمقدار شبر وتغير وضع الجسد ؛ أما حين ارتخت يده فقد عادت ام الخوش الى وضعها السابق : هوت على كومة الملابس وكأنها تقبلها ولا تقوى على مفارقتها.

قال رجل من بعيد :

ـ خلصونا يا جماعة الخير . .

تقدم عبد الله المسعود ، جثا على ركبتيه ، الى جانب ام الخوش . وضع يده على كتفها ، تطلع الى محمد المدور ، وتطلع الى الذين حوله ، وبكثير من الحنان الخائف همس :

ـ يا ام الخوش . . يا ام الخوش .

ولم تجب ، ظلت على حالها . قال محمد المدور بنفاد صبر .

ـ نشيلها ونمشي ، وافقت ، ما وافقت . . هذا هو .

رد عبد الله المسعود :

ـ خف ربك ، يا ابن الحلال ، شلون نشيلها ؟ نعجة ؟ ما هي بنعجة !

قال رجل من بعيد ، وربما كان هو نفسه الذي صرخ من قبل :

ـ خلصونا يا جماعة .

تقدم محمد المدور اكثر من قبل ، صار فوقها تماماً ، وضع يديه تحت ابطيها ورفعها ، ارتفعت مثل كومة من الثياب بدت بين يديه كطفلة كبيرة . هزها هزاً قوياً موصولاً لعله يخرجها من هذا السبات القوي . كان الصبية يتابعون هذه الحركة بفضول وهم يصرخون ويضحكون ، أما الرجال والنسوة فقد ابتسموا . عبد الله المسعود الذي ظل جاثياً رفع رأسه ، ليتابع هذه اللعبة التي تصرّ عليها ام الخوش في لحظات الرحيل الأخيرة . حين وقعت عيناه على وجهها انتفض كمن يفيق من نوم بشكل مفاجىء ، واحس بقلبه ينتفض خارج صدره . صرخ بألم :

ـ حرام عليكم يا جماعة .

وانتفض واقفاً ، امسك بام الخوش وأنزلها بهدوء . كبت على وجهها بنفس الوضعية السابقة ، جثا الى جانبها ، وقد بدا مرتجفاً خائفاً . امسك وجهها ، تطلع اليه بامعان ، ثم اداره قليلاً نحو الآخرين الذين اقتربوا . كان الوجه مصفراً جافاً بارداً ، وقد فارق الحياة ، لما تأكد من ذلك اعاده ببطء فوق كومة الثياب .

قام بهدوء ، أقرب الى الاستسلام . مشى بخطوات قصيرة متعبة حتى آخر حلقة الرجال :

ـ الله ، سبحانه وتعالى ، اراحها وخلصت .

لم يصدق أحد ، أما حين اقتربت منها وضحة وقلبتها ذعرت وتراجعت فقد صرخت بصوت حاد يشبه صوت طفل :

ـ ويلك يا ابو توبي ، وين عينك تشوف .

وفي اقل من ساعة حُفر القبر ودفنت . أما الاشياء التي بقيت فلم يرض انسان ان يمد اليها يده ، فبعثرتها الريح ، ثم جاءت الرمال ودفنت ما تبقى منها .

وإذا كان قد تقرر ان تغادر القافلة وادي العيون قبل الظهر ، فقد اصبح موت العجوز سبباً كافياً لأن تبقى ، وبقاء القافلة يوماً اضافياً . كان الامل يراود الجميع ان يحصل في ذلك اليوم ما يغير هذا القرار ، ويجعل كل شيء قابلاً لاعادة النظر . أما جنود البادية فقد ظلوا بعيدين ، ورفضوا الدخول في اية مناقشة ، او الاجابة عن اية اسئلة تطرح . تظاهروا انهم لم يروا شيئاً ، لكن كانوا مصممين ايضاً ان لا يسمحوا بالبقاء سوى ذلك اليوم .

في الظلمة الزرقاء الناصلة ، ومع هبات ريح خفيفة منعشة ، كانوا ، بصمت ، قد انتهوا من استعدادهم للرحيل ، أما حين تركوا وادي العيون ، او بكلمات ادق ، حين أجبروا على تركه ، بعد شروق الشمس بقليل ، فقد كانت بين الراحلين عائلة متعب الهذال ، وكان فواز الكبير بين إخوته . شعلان وحده بقي في الوادي ، لكي يتابع تحصيل ما يستحق للعائلة من تعويض ، ثمناً للبستان الصغير الذي كان لهم ، وللأرض التي كانت عليها دارهم .

كان هديب قد سبقهم الى عجرة ، المحطة الأساسية على الطريق السلطاني ، وكان يفترض بفواز أن يتحمل مسؤولية الرحلة ، وان يتولى اموراً كثيرة ، إذ بعد أن ترك متعب الهذال وادي العيون بتلك الطريقة الغاضبة ، وخلف وراءه غباراً كثيراً وكلاماً أكثر ، بدأ رجال الامير ينظرون الى « بقايا » متعب الهذال نظرة مليئة بالحقد والغضب ، وبدأت الاشاعات تسري ان العائلة لن تنال تعويضاً من أي نوع ، وأنها سوف ترحّل بالقوة اذا لم ترحل باختيارها ، فاذا وصلت الى عجرة لتدبير أمرها بنفسها ، وهذا ، مع أمور اخرى ، ما اضطر هديب الى صرف النظر عن التعويض الذي تشبث به الكثيرون ، وانتظروا حول وادي العيون ، تاركاً الأمر لشعلان يتابعه .وسافر بسرعة الى عجرة لكي ينتظرهم هناك ، لينطلقوا بعد ذلك في

رحلة الى الداخل ، الى حيث لهم علاقات وقرابات ، سواء من ناحية الأب أو من ناحية الأم ، يمكن ان تحميهم وتؤمن لهم حياة فيها بعض الاستقرار الى حين عودة متعب الهذال .

فواز كان « الكبير » بين الاخوة . يمكن لهذا الوصف ان يثير الضحك والسخرية حين يذكر ، لان عمره آنذاك لم يكن يزيد على أربع عشرة سنة . كان ضامراً شديداً مثل خيزرانة ، وقوياً كحبل مبلول ، أو هكذا كان يتظاهر وهكذا يريد أن يكون . كان يتعلق بذيل الناقة وهي مسرعة كالبرق ، ويزحف مثل قرادة حتى يعتليها ، لكي يثبت لكل انسان انه بلغ مبلغ الرجال .هذه الصورة تبدو بعيدة الآن ، متداخلة الى درجة لا يمكن للانسان ان يكون متأكداً . فالأشياء والأشكال بعد وادي العيون اختلطت الى درجة كبيرة ، ومع ذلك فما تزال في الذاكرة طرية حاضرة بملامحها وروائحها ، حتى الكلمات التي ترددت همساً بين اثنين ، وتلك الأسئلة العارضة التي يتبادلها الذين يستعدون للرحيل ، عن الحبال والماء والطحين ، لا تزال ترنّ قوية حادة في آذان الباقين والراحلين .

قال هذيب ، حين وصلت القافلة الى عجرة :

ـ خفت كثيراً ان تجدوا صعوبة . . . أو ان تتعطلوا في الطريق . . .

قال هذه الكلمات وفي عينيه ذلك الاعجاب الذي لا يستطيع ان يخفيه ، وحين بدأ فواز بفك الأحمال تابع هذيب يحدث اخته :

ـ فكرت اكثر من مرة ان أرجع الى وادي العيون ، او ألاقيكم على الطريق .

قالت رضية :

ـ لقينا أكثر من ذيب على الطريق .

رد هذيب وهو يضحك :

ـ الذياب ما تخوف . . .

توقف لحظة ثم أضاف :

ـ ومعكم رجال .

هل كان فواز شجاعاً كما تصوره خاله أو الى الدرجة التي افترضتها اخته ؟ هل كان خائفاً او ظهر عليه الخوف خلال الرحلة ، والتي استمرت ثلاثة أيام ؟ كان شديد الحذر ، رغم انهم كانوا في قافلة من خمسة بيوت ، بعد أن توقف الكثيرون في

الخبرة وبعدها أو ذهبوا في طرق أخرى ، لكن وضحة الحمد كانت قوية الى درجة ان أية شجاعة ظهرت عليه أو حكمة ميزت تصرفاته تعود اليها . كان في عينيها ذلك الحزن النبيل بعد رحيل متعب . لم تدرك سبباً معقولاً لثورته وهياجه ثم رحيله . أطبقت شفتيها بحزم ورفضت ان تقدم سبباً او تفسيراً لما فعله . كانت تدرك في أعماقها ان روحاً خطرة حلت في قلبه وعقله وحملته على اتخاذ ذلك القرار . واذا كانت قد شهدت في أوقات سابقة ثوراته التي تصل حدود العزلة ثم السفر المفاجىء والغياب الطويل ، ففي هذه المرة لم تكن متأكدة انه سيعود مثلما فعل في المرات السابقة ، وان ظلت على يقين ان أمراً ما لا بد ان يقع في اللحظة الأخيرة ويغير كل شيء ، اذ لا يمكن لمتعب الهذال ان يتخلى دفعة واحدة ، خاصة في هذا الوقت بالذات الذي يغيب فيه وادي العيون الى الأبد . لا يمكن ان يرحل دون أن يفعل شيئاً ، دون ان يحرق أو يقتل ويدمر . لكن لما رأت قراره الحازم القاسي ، وبذلك الشكل المفاجىء أيضاً ، ثم رحيله ، ظلت تنتظر لحظة بعد أخرى ، أن يظهر من جديد ، ان يدور مرة أو مرتين حول الوادي ، حتى اذا تعب ، حمل معه الحزن والحمى وعاد . أما ان تنقضي الأيام ولا يظهر او يبعث باشارة ، ثم يمضون ويرحلون فعلاً فقد أحست بحالة من الحزن بلغت حد اللوعة . هل يمكن ان يمضوا ويخلفوا كل شيء وراءهم ؟ هل يحتملون الذهاب الى مكان آخر وقد خسروا الدار والأرض والنخيل . . . وقبل ذلك كله خسروا الذي كان اهم ما في حياتهم : متعب الهذال ؟

لم يجرؤ احد على ان يسأل مثل هذه الأسئلة ، لكن ذلك الحزم القاسي الذي ظهر في تصرفات وضحة ، ثم صمتها ، اغلب وقت الرحلة ، وذلك الحزن الذي ظهر جلياً قوياً في عينيها ، والذي ما لبث أن أعدى الآخرين ، جعل كل شيء نهائياً ولا يمكن الوقوف في وجهه .

ومع ذلك فان تلك المرأة الرائعة الكبيرة ، وضحة الحمد ، هي التي قادت القافلة ، هي التي ساهمت بشد الأحمال على الركائب ، وهي التي فكتها . وإذا كان فواز قد امتلأ بالحذر طوال الرحلة ، وكان ، في كل لحظة ، يتوقع امراً خطيراً ، وهذا ما جعله عصبياً ، لا ينام الا قليلاً ، ولا يأكل الا كما يأكل الطير الخائف ، فلم تشأ وضحة ان ترى ذلك . ظلت بصمتها وجبروتها تعدي وتؤثر عليه

حتى وصلوا الى عجرة . أما حين التقوا بهديب ، وأراد أن يخفف عنهم ، ان يخلق جواً من المرح ، فقد اصطدم بصمتها ، وما لبث ان شاركها الصمت ثم الحزن .

الأيام الأربعة التي قضوها في عجرة ، عند إحدى القريبات ، لا يمكن ان تغيب من الذاكرة ابداً . لم يحصل خلالها شيء غير عادي ، ولم تصل أخبار جديدة من منعب الهذال أو عنه ، رغم أن قوافل الحج في تلك الفترة لم تكن لتنقطع يوماً واحداً .

في هذه الأيام الأربعة احس الجميع أن رحيلهم عن وادي العيون كان قاسياً عنيفاً ، مثل لطمة مفاجئة ، وقد ملأهم هذا الرحيل بشعور قاهر منذ الليلة الأولى في عجرة ، انهم وحيدون ، وانهم لا يستطيعون احتمال الحياة الجديدة . إذ بعد أن أوى الجميع الى الفراش ، وكان الصمت ، في تلك الليلة ، ثقيلاً مسيطراً ، عدا نباح الكلاب ، وبعض النداءات البعيدة المتفرقة ، في ظل ذلك الصمت ، سمع ، لأول مرة ، وربما منذ سنوات طويلة ، بكاء امه ، وضحة الحمد . كان بكاء مكتوماً متقطعاً ، لا تريد لأحد ان يسمعه ، أو أن ينتبه اليه . بكت مثل طفلة صغيرة ، لكن خفية عن الآخرين . كانت تعض على اللحاف ، تدفن وجهها في الوسادة . . . وتبكي .

في تلك الليلة أدرك فواز ، بشكل خاص ، ان ما حصل لهم ليس مجرد الرحيل عن مكان اسمه وادي العيون ، وليس خسارة من النوع الذي يستطيع الانسان ان يألفه او ان يتعود عليه . أدرك ان ما وقع فراق ، يشبه الموت ، وان لا شيء ، لا احد ، يمكن ان يعيدهم الى ما كانوا عليه . ورغم الغضب الذي كان يملأ صدورهم على أبيهم ، لأنه تركهم يواجهون هذه المصيبة وحدهم ، فقد اختلطت كلماته الغاضبة مع بكاء وضحة تلك الليلة ، وبدا مفهوماً اكثر من الأيام السابقة ، وربما بدا أقل قسوة .

بعد تلك الليلة وحتى وقت متأخر ، لم ينم هذا الذي ترك الصبا مبكراً ، ودخل الرجولة قبل الأوان ، ظلت الأشباح تطارده ، وامتلأت تلك الليلة ، كما امتلأت الليالي التالية ، بذلك الانتظار الموجع .

في عجرة ، النقطة التي كانت تمر فيها القوافل عبر آلاف السنين ، حيث يلتقي الطريق السلطاني بطرق أخرى ، ثم يفترق عنها ، اختلطت قافلتهم بغيرها من القوافل ، وخلال الأيام الأربعة التي قضوها في عجرة ، اشتروا ما يحتاجون اليه من مواد تكفي للطريق وللفترة الأولى من اقامتهم في منازلهم الجديدة ، في الحدرة . دفعوا ، ثمناً لذلك ، كل ما حملوه معهم من دراهم . ولأول مرة يكتشفون ان الأماكن الأخرى ، والناس ايضاً ، يختلفون كثيراً عن وادي العيون . كانت كلمات الباعة قصيرة ، سريعة ، باترة . وكانت نظراتهم مليئة بالارتياب . أما محاولات هديب الحمد في تخفيض أسعار الطحين والسكر ، ومروره على عدد كبير من الباعة للمساومة والتأكد ، فقد انتهت الى نوع من التسليم الأقرب الى اليأس . قال لوضحة وأكياس الطحين ملقاة في ظل الجدار :

- لو كنا في غير هذا الوقت من السنة لحصلنا على أسعار ارخص وكميات أكبر من الطحين .

هزت وضحة رأسها بنوع من الموافقة ، تابع بصوت مليء بالمرارة :

- يقولون ان الدين المعاملة . . . لكن التجار لا يعرفون الا المال ، هذا هو دينهم .

وبصمت أقرب الى الحزن ربطت الأحمال في فجر اليوم الخامس ومشوا .

صغرت القافلة عندما تركوا الطريق السلطاني واتجهوا شمالاً . كانوا قد هيأوا انفسهم لرحلة طويلة ، وكان يفترض ان يصلوا بسرعة الى روضة المشتى ، لكي يلتحقوا بقافلة ذكر انها وصلت قبلهم الى هناك ببضعة أيام ، وقيل انها ستمكث أياماً اخرى بانتظار رعيتين او ثلاث من الابل ، ثم تواصل رحيلها بعد ذلك الى الحدرة وما وراءها .

إنها المرة الأولى التي تبدو لهم الأماكن معادية ، وفيها ذلك المقدار الهائل من القسوة . واذا كانوا قد شعروا بثقة كبيرة حين التقوا بالخال في عجرة ، وتولى عنهم الامور كلها ، بما في ذلك قيادة القافلة ، فقد بدت لهم وجوه البشر في الأماكن التي مروا بها ، قاسية صمّاء ، وأحسوا ان طعم الماء الذي شربوه مالحاً وأقرب الى المرارة . أما الأماكن التي توقفوا فيها فقد بدت لهم غير مألوفة ولا يمكن للانسان ان يتعود عليها . ووضحة ، التي كانت قوية متماسكة طوال الطريق من وادي العيون الى عجرة ، أصبحت الآن كالناقة المسنة ، كانت تنظر الى كل شيء نظرة بطيئة ، لكن خالية من التأمل . ولم تتكلم طوال الطريق ابداً ، حتى عندما كان يتعمد الخال سؤالها عن أمر من الأمور كانت تكتفي بأن تهزّ رأسها دلالة الموافقة او عدم المعرفة . وحين يجلسون الى الأكل تمتد يدها المعروقة في رحلة طويلة بين فمها وصحن الطعام ، وتظل تلوك اللقمة كأنها تتلهى بها او لا تريد ان تبتلعها ، أو ربما لا تجد في نفسها القدرة على ذلك . كانوا ، اغلب الأحيان ، يقومون عن الطعام قبلها ، تاركين لها شيئاً تأكله ، وكانوا يتحاشون النظر اليها أو ان يطلبوا منها ان تأكل المزيد ، لان المرة الوحيدة التي فعلت رضية ذلك ، وكانت منفعلة ، أقرب الى الغضب ، وهي تشهد امها تغرق في هذه الحالة من الكآبة والصمت القاسي ، ثم في حالة من المرض الغامض ، حين طلبت منها رضية أن تأكل ، لكي تكون أقوى ، نظرت اليها بطريقة جعلتها تكف تماماً ، وجعلت الجميع لا يحاولون الضغط عليها بعد ذلك .

كانت رحلة مليئة بالحزن الصامت . الابل تخبّ في مشيها الرتيب ، والشمس بعد شروقها بوقت قصير،تصبح عذاباً لا يمكن ان يحتمل . أما محاولات الحديث والصخب ، حين يتوقفون لجمع الحطب ، لإيقاد النار ، لاعداد الطعام ، فقد كانت تعويضاً أخرق عن الكلام الذي يجب ان يدور بينهم . كان كل

واحد ، بطريقته الخاصة ، يحاول احترام صمت الأم ومشاركتها في الحزن الذي تغرق فيه . وفي المرات القليلة التي حاولوا ان يتكلموا ، ان يقولوا شيئاً ، كان كلامهم قصيراً مبهماً ، وفي أحيان أخرى لا يعني شيئاً . ولكن كان دوماً خافتاً لا يكاد يسمع ثم يبتر فجأة ، مخلفاً لدى كل واحد منهم شعوراً قوياً بالذنب . ورغم ان عادة الخال منذ عرفوه المزاح والغناء وبعض الأحيان المبالغة في إظهار الفرح او الغضب ، وكان هكذا الى فترة قريبة في وادي العيون ،ثم في عجرة . أما الآن فقد بدا انساناً مختلفاً . ومحاولات ابراهيم معه في أن يحمله على الغناء او الحدو ، او ان يقص عليهم بعض القصص من رحلاته ، انتهت هذه المحاولات الى الفشل ، رغم أن وضحة ، في حالات كثيرة ، كانت بعيدة أو لا تسمع .

وصلوا الى روضة المشتى ، كانت القافلة التي يفترض أن ينضموا اليها ويسافروا معها قد غادرت ، ومعنى ذلك ان ينتظروا اياماً ، وقد تمتد هذه الأيام لتصبح أسابيع ، خاصة وان الطريق التي تقود الى الداخل لا تمر فيها القوافل الا بأوقات متباعدة ، وتنقطع او تكاد في فترة الصيف .

لا يمكن تذكر تلك الرحلة وتلك الأيام بتفاصيلها الكاملة ، لأن وضحة الحمد الصامتة ، المملوءة بكبرياء من نوع نادر ، بدت،خاصة في روضة المشتى ، اكثر جنوناً وتطرفاً من متعب الهذال .

هل الحمى التي أصابتها هي التي انقذت متعب الهذال ، أعادت تكوينه بنظر اولاده وجسّدت فيه براءة مطلقة ؟ هل هي الحمى التي تكلمت وأسرفت في الكلام ؟ لا تزال الكلمات أو بعضها قوية مشرئبة وأقوى من أية كلمات غيرها ، إذ بعد ان وقعت وضحة الحمد فريسة للمرض ، وتملكتها حمى قوية كثيفة جعلتها تهذي في احدى الأمسيات ، قالت أشياء كثيرة ، لكن أوضح ما قالت : « يا أبو ثويني انت السالم والدايم وين ما كنت وين ما طيّبت انت أحسن الرجال وزينة وادي العيون اللي قلته صار انت الصادق وهم ما صدقوا وادي العيون راح يا أبو ثويني بعد ما رحت ما ظل فيه شي صار تواريخ وأمثال لا ترجع ولا تتول المربي قتّال الى حين ما يكبر العيال وبرجعتكم تكونون الغانمين ويكونون مكسورين وتاكلهم الندامة وأولادك هم النشامة يا أبو ثويني وتجيك العلوم ! » .

بعد أسبوعين مليئين بالعذاب والانتظار والمرض بدأوا رحلتهم ، مرة ثانية ، من روضة المشتى الى الحدرة . كانت رحلة قاسية ، أقسى ما فيها الصمت الذي ملأها .

كانوا في القسم الأخير من القافلة ، هكذا ارادت وضحة . لم تقل كلمة واحدة منذ ان غادرتها الحمى وحتى وصولهم الى الحدرة ، لكن كل نظرة منها ، كل حركة كانت طوفاناً من الاوامر الحازمة القصيرة ، الشديدة الوضوح . وكان الخال ، مثل طفل كبير ، يركض في كل الاتجاهات لعله يستطيع في النهاية ان يصل الى ما تريده اخته ، او لعله يدخل الرضا الى قلبها .

فبعد عدة ايام من المرض الحاد في روضة المشتى قدّر الجميع ان في هذا المكان ستكون النهاية ، فقد عافت الأم الأكل والشراب ، وغابت في عالم من الحمى والهذيان ، وبدأت نظرات هذيب وحيرته تفضحه ، بل وكاد يصرف النظر عن مواصلة الرحلة ، خاصة وان اخبار القوافل انقطعت ، مما جعله يفكر ويقترح العودة الى عجرة مرة اخرى ، وهناك يمكن ان يفكر بهدوء وتتخذ القرارات المناسبة ، الا ان الصحوة المفاجئة لوضحة وبداية استعادتها لوعيها ولقواها ، ثم وصول قافلة صغيرة

متجهة الى الحدرة ، غيّر كل شيء ، جعل وضحة تتغلب على المرض ، ربما بدافع انها لا تريد الموت في هذا المكان . ودون كلمات كثيرة او مناقشة من اي نوع ، هزت رأسها ، دلالة الموافقة ، حين عرض عليها هذيب مواصلة السفر ، اتُّخذت كل الترتيبات ليكونوا جزءاً من هذه القافلة ، الصغيرة البائسة ، وساروا .

كانت القافلة صغيرة ، عبارة عن ثلاثة من رعاة الابل ، مع ابلهم ، وعائلة سليّم الهزاع وعائلة متعب الهذال ، وكان على هذه القافلة ان تقطع المسافة بين روضة المشتى والحدرة في خمسة ايام .

ما كادوا يصلون مشارف الحدرة حتى ارسل فواز مع احد الرعاة ليبلغ الاهل بوصولهم ، وحين جاء ثلاثة من العتوم ، اقرباء متعب الهذال ليلتقوا بالقافلة وليساعدوا ، وكان اثنان منهم يعرفان عائلة متعب الهذال معرفة قريبة مباشرة ، وقد مرّا قبل سنة او اثنتين في وادي العيون ، ومكثا هناك فترة من الزمن ، ما كاد الرجال الثلاثة يصلون ويسلمون حتى فوجئوا ان متعب الهذال لم يكن موجوداً . أما حين سألوا عنه ، وهل سيلحق بهم واين تركوه ، ما ان طرحت هذه الأسئلة ، وكان الجميع يستريحون عند البئر شرقي الحدرة ، حتى اكتشف الجميع ان وضحة دخلت في مرحلة جديدة ، فالصمت الذي بدأ في وادي العيون ، وكان نتيجة الحزن او ربما الارادة ، أصبح الآن شيئاً مختلفاً ، إنه الآن أكبر من الحزن وأقوى من الرغبة أو الارادة .

فما كاد سليمان الهذيب ، وهو من اخوال متعب المباشرين ، يسأل ، وعيناه تدوران في هذه القافلة الصغيرة الحزينة ، عن سفرهم ومتى تركوا وادي العيون ولماذا واين تركوا متعب حتى طفرت الدموع من عيني وضحة . لم يكن السؤال بذاته يستوجب البكاء ، خاصة بالنسبة لامرأة بقوة وضحة وجبروتها . وسليمان الهذيب الذي بدا خائفاً عصبياً ، وادار نظره مرة اخرى في الوجوه باهتمام ، ثم ركز نظراته على هذيب يريده ان يتكلم ، ان يقول شيئاً ، وهذيب بنظراته الحائرة ، وكلماته المرتبكة زاد الأمر غموضاً . صرخ سليمان بحدة :

- يا جماعة الخير، تدري ان الدنيا حياة وموت، إذا كان متعب حياً قولوا، وإذا كان قد مات قولوا!

رد هذيب بارتباك ، وقد خرج صوته من حنجرته .

ـ وكّل الله يا رجل ، متعب حيّ وما عليه خلاف .

نظر سليمان الهذيب الى وضحة وقال بقسوة :

ـ ما قولك يا ام ثويني ؟

هزت رأسها دلالة الموافقة ، مؤكدة ما قاله اخوها ، لكن سليمان الهذيب لم يقتنع ، وجد ان في الامر ما يفوق طاقته على الاستيعاب ، صرخ :

ـ اذا كان الرجل حياً فالبكاء ما له حاجة .

هزت ام ثويني رأسها ، مرة اخرى ، دلالة الموافقة ، قال سليمان الهذيب بنزق :

ـ وانتِ ، يا ام ثويني ، اخت الرجال . . .

ومرة اخرى هزت رأسها ، ونتيجة هذا الغموض قال بنفاد صبر :

ـ يرحم والديك علمينا .

ومن جديد طفرت الدموع من عينيها .

ذلك الضحى ، ولا يُعرف ان كان أواخر الصيف او اوائل الخريف ، عند بئر المسبلة ، قبل الوصول الى الحدرة بمسافة قصيرة ، ذلك اليوم البعيد الذي لا يشبه اي يوم سواه ، والرجال الذين جاءوا بفرح من الحدرة لكي يستقبلوا عائلة متعب الهذال ، وكانوا ينظرون في وجوه هذه القبيلة التي جاءت من مكان بعيد ، وبشكل مفاجيء ، ومتعب الهذال نفسه ، رب العائلة ، لا يُعرف ما اذا كان حياً او قد مات ، وحين يُسال عنه يكون الرد هذه الكلمات غير الواضحة والدموع . . . فاي حزن يتولد في القلب واي حيرة تملأ النفس نتيجة ذلك كله ؟ ولماذا يكون المشهد ساخراً ومعقداً بهذا المقدار ؟

هكذا سأل كل واحد نفسه . وفي ظل هذا الحزن الاسود حاولت وضحة الحمد مرة اخرى ، حاولت ان تتكلم ، ان توضح ، ان تقول شيئاً ، ولكن تلك الاصوات التي خرجت من فمها كانت اقرب الى اصوات الحيوانات ، او الى الصراخ الساخر الحزين ، وتشبه تماماً ارتطام الاواني او رجع الصدى في وادٍ ضيق .

حاولت مثل قطة مخنوقة ان تتكلم . حاولت مثل طفل صغير ان تتكلم . صمتت فترة ليست قصيرة . استجمعت ارادتها كلها . جمّعت الكلمات في حلقها تريد ان تقذفها الى الخارج . غيّرت جلستها اكثر من مرة . وسليمان الهذيب الذي كان ينقل نظراته في هذه القبيلة التائهة ، ويبتسم ابتسامات صغيرة ، دلالة الترحيب واكتشاف

شبه من نوع ما بين افراد القبيلة ومتعب الهذال ووضحة الحمد وتلك السلالة العريقة الموغلة في القدم ، والتي تمثل امتداداً ما لهذه العشيرة التي ضربت في كل الانحاء ، والتي تاهت في كل الاماكن ، واحساس يراوده ان الدماء لا يمكن ان تتغير ، وان الذين شربوا من وادي العيون ومن مياه الحدرة ، ومن عيون اخرى ، اياً كان مكانها ، فان هناك مياهاً خفية . مياه العتوم ، هي التي أمدّت كل تلك العيون بهذه المقدرة الفائقة على التجوال والضياع ثم العودة ، وان الحياة في هذه الصحراء ، مهما تنوعت وتغيرت وامتدت ، فانها ، كالموت ، لا بد ان تنتهي الى مكان بعينه ، الى نتيجة بعينها .

في هذا الجو العابق بالحزن والحرارة وانتظار اللحظة التالية ، وبعد الدموع التي انهمرت فجأة ، ثم اقتراب رضية ودعجة من امها ومحاولتهما معرفة سبب هذه الدموع وهذا الحزن ، شدت وضحة الحمد وجهها فبدا قاسياً اقرب الى العداء . وحين حاولت ان تهمس مرة اخرى ، ان تقول شيئاً ، تبين لها ، للجميع ، انها لم تعد قادرة على ان تقول كلمة واحدة ، وان تلك الاصوات التي تعلمتها خلال فترة تزيد على الخمسين سنة قد غادرتها الى الابد ! لقد فقدت قدرة الكلام ، فقدت الكلمات والاصوات التي يعرفها الآخرون وغرقت في الصمت .

• • •

في الأيام الاولى قالت عجائز الحدرة اللواتي تحلقن حول وضحة الحمد ان الحمى ربطت لسانها ، وهذه حالة مؤقتة لا تلبث ان تنتهي . بعد ذلك بشهور قالت العجائز ان جنياً اسود دخل الى جسد وضحة ، بين المعدة واعلى الصدر ، دخل مع ماء روضة المشتى ، فاذا جاء الشتاء وانقضى فلا بد ان يخرج ، لان عليه ان يعود ويظل مرابطاً قرب ماء الروضة بانتظار القوافل التي ستأتي ! أما بعد ان انقضت السنة ، وانقضى معها الشتاء ، ثم بعده الربيع ووضحة كما هي ، فقد قالت زوجة سليمان الهذيب ان حزن وضحة امتزج بالخوف ، ولا يمكن ان تعود الى حالتها الاولى ، الا اذا رجع متعب الهذال ، او اذا وقعت مصيبة اكبر من غيابه . . . ولم تقل زوجة سليمان الهذيب اكثر من ذلك .

كان كل من حول وضحة يسمع بعض ما يقال . أما هي فكانت تسمع كل ما يقال . الذين حولها يسمعون ويمتلئون خوفاً وتساؤلاً ، وهي تسمع وتمتلىء سخرية

ومرارة في وقت واحد . كانت تنظر في وجوه النساء ، تسمع كلماتهن ، تتابع ما يجري ، حتى اذا اقترحت احدى العجائز نوعاً من العلاج هزت وضحة رأسها دلالة الرفض ، ولم تتردد في ان تقوم بخشونة وتخرج الى الفلاة تاركة النساء اللواتي جئن من اجلها .

نجمة المثقال ، عرافة حدرة وما جاورها ، قالت لما سئلت عن متعب الهذال انه لا بد عائد وقالت انه يتجول في الصحراء ، ينتقل من مكان الى آخر ، لكنه ينام في مكان بعيد ، وهذا المكان قريب من البحر ، وسيبقى هكذا سنين لكنه سيعود ، وحين يعود ستكون عودته كريح السموم ، قوية كاسحة ، لا يمكن لاحد ان يردها او يقف في وجهها .

هكذا قالت نجمة المثقال . رغم ان الجميع قد يئسوا من عودة متعب الهذال وانقطعت اخباره تماماً ، وكف الناس في الحدرة وغيرها عن السؤال ، فاي شيء كانت تنتظر هذه العائلة او ماذا تفعل ؟ هديب الذي بقي فترة ثم سافر في الصيف الكبير ، رغم ان الكثيرين ألحوا عليه بالبقاء ، عدا وضحة ، التي هزت رأسها بموافقة كبيرة حين سألها ان يسافر ، هل يعود هديب بعد فترة قريبة ام راح كما فعل متعب ولن يعود قبل سنوات مثل عادة الكثيرين من اهل هذه المنطقة ؟ وشعلان الا يزال في وادي العيون ام ذهب يبحث عن ابيه ؟ وابن الراشد هل اكتفى بالسخرية مثلما كان يفعل من قبل ام جاءت فرصته الآن لكي ينتقم من متعب الهذال وذريته كلها ؟

كان على فواز ، باعتباره اكبر اولاد متعب الهذال الذكور ، ان يسمع ويفكر واخيراً ان يتدبر امر العائلة . كان يترجم نظرات أمّه وتصرفاتها، وكان يحس بالعذاب الذي يفيض من هاتين العينين ولا يعرف ماذا يجب عليه ان يفعل .

أما الاقرباء الذين رحبوا بعائلة متعب الهذال ، واصبح ترحيبهم شفقة بعد ان عرفوا ما حلّ بوادي العيون ، فكانوا ينظرون الى هذه العائلة نظرة يمتزج فيها العطف بالتساؤ ل والحزن ، وكانوا يعتبرون ان اولاد متعب لا يزالون صغاراً ، وما عليهم في هذه الفترة الا ان يأكلوا ويشربوا وينتظروا ، لعل شيئاً ما بعد ذلك يقع ، ولم يقبلوا حزن وضحة بعد ان اضطروا لقبول صمتها ، أما الحذر الذي كان يبديه الأولاد ، خاصة فواز ، فلم يفهموا له سبباً ابداً ، كانوا ينظرون اليه باستغراب ويتساءلون .

شعلان ظل في وادي العيون . لا احد يستطيع ان يجزم هل ظل من اجل التعويض ام من اجل العمل في الشركة ، حسب وعد ابن الراشد ، في محاولة لاسترضاء عائلة متعب الهذال وكسبها ، لان الامرين اختلطا الى درجة ان شعلان ، لما سئل بعد ذلك بسنوات ، لا يتذكر ايهما حدث قبل الآخر : التعويض ام العمل في الشركة . ولانه ظل في وادي العيون ، الوادي الجديد الذي لا يمتُّ باية صلة الى ذاك الذي كان في يوم من الأيام ، عدا الاسم ، فقد افترض ، بعد غياب ابيه ، انه يؤسس قبيلة جديدة بدل تلك التي كانت ، ولان كل واحد من الاثنين عمل بطريقة تختلف عن الآخر ، فان القبيلة الجديدة التي أسسّها شعلان ، والتي امتدت وانتشرت ، ولا تزال لها بقايا حتى الآن ، بدأت من وادي العيون ايضاً ، لكن لم تترك مكاناً الا ووصلت اليه ، وان يكن ضمن نسق مختلف ، وظلت تدور في ذلك الفلك الذي يجعل كل الاشياء ، مهما ابتعدت عن المركز متصلة به ومحكومة بقواعد قاسية لافكاك منها . . هذه القبيلة الجديدة تمثل امتداداً ملعوناً لمتعب الهذال ، للعتوم ! للحياة التي كانت .

انزرع شعلان في وادي العيون ليس كالنخيل الذي كان يملأ الوادي فيما مضى من الأيام ، وانما مثل الاعمدة الحديدية التي تنغرس في كل مكان ، وخلال فترة قصيرة

تغير شعلان ، تغير كثيراً ، حتى اسمه في المرحلة الجديدة تغير ، اصبح « شعلان الشركة » . وفي احيان اخرى « شعلان الاميركاني » ، بدل شعلان بن متعب الهذال ، لتمييزه عن شعلان ابو الطبيخ ، متعهد التموين في وادي العيون وشعلان الاعور حارس البوابة الخلفية في المعسكر ، اضافة الى ان شعلان بن متعب تعلّم اللغة الانكليزية اسرع من الآخرين وقبلهم ! ظل الكثيرون ، لفترة طويلة ، يضحكون من التسمية الجديدة ،"ويعتبرونها مزاحاً لا بد ان ينتهي كما بدأ ، لكن والأيام تمر ، وشعلان يستمر في عمله في الشركة وينتقل من مكان الى آخر ، من قسم الى آخر ، فقد زال تقريباً اسم متعب الهذال ، عدا المعاملات الرسمية ، واحتل مكانه الاسم الجديد . واذا ظلت هذه التسمية تثير التساؤل والاستغراب لمن يسمعها لاول مرة ، وبعض الاحيان تثير شعلان نفسه ، او اي واحد من ابناء متعب الهذال واقربائهم ، فما لبث ان تعوّد عليها ، وتعود عليها الآخرون ايضاً . . . الاّ اذا استعملت للتعريض او السخرية .

كيف يمكن للاشخاص والاماكن ان يتغيروا الى الدرجة التي يفقدون صلتهم بما كانواعليه ،وهل يستطيع الانسان ان يتكيف مع الاشياء الجديدة او الاماكن الجديدة دون ان يفقد جزءاً من ذاته ؟

ما كادت الرسالة الشفوية التي بعث بها شعلان الى الحدرة ، طالباً فيها مجيء فواز ، وأيّ من الاقارب الآخرين ، الى وادي العيون « لان العمل في الشركة مضمون » حتى انفجرت زوبعة في رؤوس اثنين من العتوم ، وملأتها بالحاح لم يستطيعا مقاومته أو التغلب عليه .

ففواز الذي قضى في الحدرة سنة وبضعة شهور ، ما كادت تصله رسالة شعلان حتى دوت في رأسه تلك الاغنية القديمة : السفر . أما عندما تمثل له وادي العيون فلم يعد قادراً على الاحتمال او الانتظار . تدبر الأمر بسرعة ، وقرر ان يسافر مع اول قافلة . وصويلح ، الابن الاوسط لسليمان الهذيب ، لم يتردد ولم يطل استعداده ليكون جاهزاً . أما وضحة التي وافقت اسرع مما كان يتوقع الكثيرون ، فقد جعلت سليمان الهذيب يشفق على هذا الصغير الذي « يضيع كما ضاع ابوه » واذ حاول معه ليؤخر سفره ، في ان يذهب صويلح قبله ، حتى اذا وجد له عملاً بعث وراءه ، لكن ازاء إصرار فواز ، الذي بلغ حدود العناد ، وفي محاولة غامضة لاقامة رمز من نوع ما

لهذه العائلة التي بدأت تتآكل وتضيع ، لم يطل الأمر . . . وهكذا تأهب هذان الشابان للسفر على ان « يعودا في اقرب وقت ، والا يتجاوزا وادي العيون » كما أكّد عليهما سليمان الهذيب وكرر مرات كثيرة .

لما وصلا الى وادي العيون بدا المكان لفواز وكأنه لم يره من قبل . لم تعد له صلة بالوادي الذي تركه ، لم يبق فيه شيء من الاشياء القديمة . حتى الريح التي كانت تهب في مثل هذا الوقت من السنة طرية منعشة ، اصبحت الآن لفحاً قاسياً خلال ساعات النهار كلها ، وبرداً ينفذ الى العظم في ساعات الليل المتأخرة . أما الرجال الذين تجمعوا ، لا يعرف من اين ، في البيوت الخشبية والخيام ، فقد كانوا خليطاً عجيباً من البشر ، ولا يشبهون اياً من الذين يمكن ان يلتقي بهم الانسان . حتى القوافل التي التقى بها فواز في عجرة خلال رحلته الاولى ، او في رحلته الثانية ، واثارت استغرابه وحيرته ، تبدو له الآن مخلوقات متجانسة لها ملامحها ونكهتها . هنا ، في وادي العيون ، هذه المرة ، يشهد مخلوقات غريبة متنافرة مملوءة بالصمت والحزن ، وبدا له كل واحد من العمال اشبه بطير من الطيور ضل سربه وطريقه فلا يستطيع البقاء ولا يقوى على متابعة الرحيل .

كاد فواز ان يرجع خلال الساعات الاولى لوصوله ، فبعد ان بقي مثل كلب الى جانب الاسلاك الشائكة ، بانتظار عودة شعلان ، لا يعرف من اين ، طلب منه ومن الآخرين الذين وصلوا معه او بعده ان يبقوا بعيدين عن بوابة المعسكر ، دون اي توضيح ، ودون اية نظرة تحمل معنى من معاني الفهم او التعاطف ، وقد نُحّوا اكثر من مرة لما اقتربوا ، وفي مكانهم ذاك سفّت عليهم الرمال وغطاهم الغبار ، حين بدأت تلك الآلات الكبيرة المجنونة تدخل او تخرج من المعسكر .

ساعات من العذاب والمعاناة تفوق عذاب الرحلة كلها . لا لم تكن الرحلة ، هذه المرة ، تشبه رحلتهم الاولى ، حتى مياه روضة المشنى كانت اطيب مذاقاً ، وكان الناس اكثر رغبة في الحديث . أما هنا ، خلال الساعات الواقعة بين الظهر والغروب ، فقد شعر ان وادي العيون الذي كان ، والذي عاش فيه سنين عديدة واستقبل القوافل والرعايا والطيور ، لم يعد مثلما كان . وشعلان الذي وصل ساعة الغروب ، بدا غريباً بشكله وملابسه : الخط الاسود الذي كان على شكل زغب خفيف فوق شفته ، طفح بقوة اعلاناً عن شارب تكوّن واكتمل ، اضافة الى لحية

اقرب ما تكون الى شعرات متفرقة نبتت بشكل غير منتظم وكانت شديدة الاثارة ، خاصة وان الغبار وبقع الزيت ملا وجهه فبدا مضحكاً ، تحت ظلال تلك الطاسة الحديدية البيضاء ، التي وضعها على رأسه .

بعد ان تعانقوا وتحدثوا وصمتوا عند بوابة المعسكر ، لم يستطع شعلان ان يدخلها الى الخيمة التي كان يعيش فيها الا بصعوبة . استغل علاقات كانت له بحارس البوابة ، ولجأ الى الاحتيال والمزاح ، اضافة الى اساليب شيطانية . فوضع الطاسة الحديدية على رأس صويلح ، فوق الغترة ، وفي مهرجان من الصخب والضحك دخلوا جميعاً الخيمة الكبيرة .

في الخيمة كان عدد من الرجال ، كان بعضهم نائماً ، وآخرون يهيئون الطعام ، وكان غيرهم يلعبون الورق ويتصايحون . تطلع اليهم فواز بعجب يصل حدود الدهشة ، أما الخيمة الكبيرة فقد بدت اكبر من اية خيمة رآها ، اكبر من مضافة ابن الراشد ، واكبر من مضافة ابن هذيب ، لكن بدت صغيرة ايضاً الى درجة لا يمكن ان تستقبل زائراً جديداً . أما الرجال فقد ظلوا بنفس الوضعية ، حين دخل هؤلاء الغرباء ، بعد ان القوا عليهم نظرات عابرة لا تعني شيئاً ، ورغم ان شعلان ، بدخوله الصاخب ، حاول ان يخلق جواً جديداً ، ثم حين همس في اذن فواز ان احد الثلاثة الذين كانوا يلعبون الورق قريب لهم إلاّ ان كل شيء بقي على حاله .

في كل المرات ، في كل الاماكن ، لم يحس فواز بالخوف كما احس في هذه المرة وفي هذا المكان . كيف ينام هؤلاء الناس واين ؟ كيف يأكلون ؟ لماذا يختلفون عن الناس في وادي العيون ايام كانوا فيه ، وعن الناس في عجرة والمشق وحدرة ؟ بدا له ان كل واحد من هؤلاء يعيش بمفرده ، وليس له صلة ، من اي نوع ، بالآخرين .

كان يريد ان يتحدث الى شعلان عن كل شيء ، لكن الكلمات التي حضرها طوال الرحلة ، والتي تضمنت تفاصيل كثيرة منذ ان غادروا وادي العيون ، وحتى الآن ، غابت من رأسه تماماً . لم يجد عنده القدرة او الرغبة في الحديث . ابتسم اكثر من مرة حين التقت نظراته بنظرات شعلان ، أما حين سأله عن امه واخوته ، عن الحدرة ، وما اذا كانت تشبه وادي العيون ، فقد كانت اجابات فواز مضطربة غير واضحة ، وحين التمعت صورة متعب الهذال قال فواز انهم لم يسمعوا شيئاً عنه منذ ان تركوا الوادي ، وكان يريد ان يسأل شعلان ، تمنى لو كانا وحيدين . لو كانا في

مكان آخر . قال شعلان ليتغلب على هذا الجو :

ـ تعالوا نغسل ايدينا ونحضّر عشانا .

بصمت مشوا . اقتربوا من براميل المياه . كانت الارض هناك زلقة ، مليئة بالمياه الراكدة . . وكانت رائحة المكان كريهة ، أما حين لامست المياه وجوههم فقد احسوا ان لها طعماً غير مستساغ ،ربما نتيجة الصدأ ، او نتيجة اضافة مواد غريبة ، سأل صويلح ما اذا كانوا يشربون من هذه المياه ام لا . وحين هز شعلان رأسه بالايجاب تطلع الى فواز وقال بحزن :

ـ كانت مياه وادي العيون اطيب .

قال فواز ، وكأنه تذكر شيئاً زاهياً ، او يريد ان يخلق مشكلة :

ـ لو كان ابي هنا الآن لما شرب من هذا الماء .

نظر اليه شعلان نظرة مليئة بالتساؤ ل والمرارة ، وربما كان يقاوم شيئاً في داخله ، بعد لحظات من الصمت الحزين ، قال كأنه يكلم نفسه :

ـ احمد ربك ان الماء موجود .

ـ ما هي علوم ابوي يا شعلان ؟ .

وبطريقة بارعة ، وكأن اسبابها ولدت في تلك اللحظة ، صرخ شعلان على احد الرجال ، كان يمر قريباً من البراميل باتجاه خيمة بعيدة ، وحين التفت سأله عن أشياء لم يفهم صويلح وفواز منها شيئاً أو ماذا تعني ، ولما فرغ من ذلك قال ، وقد بدا على وجهه الحماس :

ـ نلحق على السوالف ، ها لحين لازم نحضر عشانا .

وانصرفوا الى تحضير العشاء .

في الفضاء الخارجي ، بعيداً عن الخيام ، وسط الصحراء ، جلس الثلاثة . كان القمر صغيرا، وقد ظهر مبكراً هذه الليلة ، لكن دون ان يحس به أحد . كانوا كالخائفين أو كالمتآمرين ينظرون حواليهم إذا سمعوا صوتاً ، إذا رأوا شبحاً . لم يرفعوا رؤوسهم نحو السماء ولا أحسوا بالبرودة التي بدأت تملأ الجو ، فقد طغت عليهم أحاديث من نمط غريب : كيف كان وادي العيون ، وكيف هو الآن . وهؤلاء الاميركان الشياطين الذين جاءوا من أجل الماء ، لماذا يحفرون الأرض دون هوادة ، دون توقف ولا يخرج منها شيء ؟ ومياه وادي العيون ومياه الصبحة ومياه الآبار الكثيرة التي حفرت لماذا كلها تُصب في ثقب داخل الأرض ، ولا تعطى للناس ؟ هل إن في باطن الأرض اعداداً هائلة من الجن تحس بالعطش وتصرخ ليل نهار ولا يسمعها الا هؤلاء فجاءوا لكي يسقوها ؟ هل احترق الجن في باطن الأرض ويريد الأميركيون ان يطفئوا هذا الحريق ، ولذلك يصبون الماء ؟ هل توجد حياة ثانية تحت الأرض ، وفيها بساتين وأشجار وبشر وكلهم يحتاجون الماء ويطلبونه ؟

كان الشبان الثلاثة يفكرون بهذه الطريقة ، ويطرحون على أنفسهم ، على بعضهم بعضاً ، أسئلة يعرفون أن لا احد يستطيع أن يجيب عنها، وكانت هذه الأسئلة تتوالد بسرعة ومعها الخوف والحيرة . وإذا كان شعلان يعتبر نفسه أكثر خبرة وأكثر

صلة ، فقد كان أيضا أكثرهم خوفاً . لقد نشأ هذا الخوف فجأة قبل عدة أسابيع ، حين بدأ يظهر له أبوه . كان يظهر فجأة في أطراف المعسكر خلال الليل . لم يقل له أحد ذلك وإنما رآه بنفسه . لم يستطع أن يبوح بهذا السر لأحد ، كتمه في نفسه وظل يترقب وينتظر منذ تلك الليلة وحتى الآن .

رآه أول مرة قريباً من بوابة المعسكر ، لكن ما أن تأكد منه وركض نحوه حتى ركب ناقته وسار . صرخ يناديه ، لكنه أسرع ثم اختفى . ورآه بعد ذلك مرات عديدة ، لكن في كل هذه المرات لم يستطع أن يدركه ، كان يسرع راكضاً ثم يختفي ، ونتيجة لذلك ولد الخوف في قلبه ، لم يعد قادراً على كتمان هذا الخوف أو تحمله . كان متأكداً أن اباه هو الذي يتجول حول المعسكر ، وبعض الأحيان يدخل الى داخله . لم يشكّ في ذلك مرة واحدة . القامة هي قامة متعب الهذال والمشية هي مشيته ، خاصة حين ينحني أو حين يركض . أما الناقة فهي ناقته العمانية البيضاء ذاتها . ولا يمكن أن يخطىء في ذلك أبداً .

تعمد شعلان بعد أن رآه أول مرة قريباً من البوابة ، أن يذهب في نفس الوقت الى نفس المكان ، لكن لم يأت . بعد عدة أيام رآه قريباً من براميل المياه ، في الليل المتأخر ، كان تحت الضوء مباشرة ، وبدا وجهه مضيئاً وحركاته خصبة ، وكانت تصدر منه أصوات فرحة ، أشبه ما تكون بالصهيل ، لكن ما كاد يتقدم نحوه بضع خطوات ، وكانت المسافة بينه وبين البراميل لا تزال كبيرة ، حتى التفت قليلاً ثم نهض بسرعة واختفى ، تلاشى تماماً . . . أما في المرات التالية فقد رآه في أماكن أخرى ، قرب نقطة الحراسة الخلفية ، في ظل الخيمة الكبيرة ، وقد تأكد من ذلك حين وجد آثار الناقة أيضاً .

ومنذ الليلة الأولى أصاب شعلان شيء يشبه المرض . انه يتعدى الخوف ويتعدى الوهم ، لأنه متأكد من وجود ابيه ، ولأنه يراه . صحيح انه لم يستطع ان يتحدث معه ، أن يوقفه او ان يسأله ، ربما لأن اباه لا يزال غاضباً منه ، لكنه مع ذلك لا يشك ولا يتوهم ، وإذا كان أبوه لا يزال يهيم في المناطق القريبة من وادي العيون ، رافضاً العودة ورافضاً أن يتكلم مع احد ، فسوف يستطيع ان يقنعه ، بطريقة ما ، في وقت ما ، أن يعود .

الآن ، حين اختار شعلان هذا المكان ، وبوجود اثنين من أقربائه المباشرين ، يمكن أن يفصح عما يعذبه ، عما يدور في رأسه ، ويمكن أن يسألهما دون خوف ما إذا كان هذا الذي يراه هو متعب الهذال ذاته ، أباه ذاته أم شخصاً آخر . ما إذا كان طيفاً أم حقيقة . وهو حين بعث يريد أخاه فواز ان يوافيه مرة أخرى ، وفي وادي العيون بالذات ، كان يحترق رغبة لكي يتأكد ، كي يشاركه الأقربون ،ولكي يعرف أيضاً ما إذا كان أبوه قد رجع ، إذا جاءت منه أخبار أو رآه أحد .

في الظلمة التي كانت تتكاثف لتصبح مثل سياج سميك ، كانت أصوات العمال في الخيام وضحكاتهم تتناهى الى الثلاثة ، وإن بدت بعيدة متقطعة ؛ وكان المصباح اليدوي الذي يستعمله الحارس بين فترة وأخرى يخط شبحاً طويلاً باهتاً ، وهو يمر برخاوة على الرمال قريباً من الأسلاك الشائكة ، دون أن ينير شيئاً . كان الحارس يفعل ذلك ، أحياناً ، لكي يتغلب على ضجره ووحدته أكثر مما يستعين به على الرؤية .

وشعلان الذي اختار هذا المكان بالذات ، وبدأ هذه البداية عن وادي العيون والجن ، كان يهيىء الاثنين الى اللحظة المناسبة ، فاذا جاء أبوه ، إذا رأى أباه ، مهما كان بعيداً أو رافضاً . . أو حتى لو كان طيفاً ، فلا يمكن أن يتركه يفلت منه هذه المرة ، لا بد أن يصرخ عليه ، أن يركض وراءه ، أن يقول له إن فواز معه . المهم أن يصل الى نتيجة ، أن يقتنع بشيء وأن يقتنع معه الآخرون .

كانت عينا شعلان تدوران بنظرة تتجاوز نصف الدائرة . بدأ الأمر غريباً لصويلح ، سأل وهو يتلفت :

ـ انتنظر أحداً ؟

هز شعلان رأسه بطريقة لا يمكن أن تفهم ما إذا كانت نفياً أو تأكيداً ، وترافقت هزة الرأس مع حركة خائفة ، وبعد صمت طويل قال كأنه يهذي :

ـ الله يلعن هذي الأيام . . كل شيء يحيّر في وادي العيون .

قال فواز بانفعال :

ـ كان وادي العيون أفضل الف مرة .

ـ لو سمع الناس كلام الشايب كان وادي العيون مثل ما تركته ، لكن ما أدري ويش دهى الناس .

هكذا رد شعلان ، وكان لا يزال يتلفت .

بدأ القمر يميل نحو الغرب . كان لدى الثلاثة أشياء كثيرة يمكن أن يقولوها ، لكن الخوف الذي كان يسيطر على شعلان جعلهم جميعاً خائفين أيضاً . انهم في هذا المكان ، ضمن الأسلاك الشائكة ، غرباء الى درجة لا يستطيعون أن يتصوروا أنهم كانوا هكذا في وقت من الأوقات ، أو في مكان من الأمكنة ، وكانت تدور في صدورهم وعقولهم رغبات وافكار ومخاوف لا نهاية لها . قال شعلان بنوع من اليأس :

ـ الله يلعن الشيطان اللي يفرّق الناس . . .

سكت قليلاً ثم زفر وسأل من جديد :

ـ ما سمعتم أخبار أبوي . . يا فواز ؟

نظر إليه فواز نظرة متسائلة حزينة . كان قد أخبره ، منذ اللحظات الأولى لوصوله ، وبسرعة ، أن أخبار أبيه انقطعت قبل أن يتركوا وادي العيون ، وأن لا أحد سمع شيئاً أو جاء بخبر منذ ذلك الوقت . قال شعلان بحزم :

ـ وين يروح ؟ يغيب سنة ، سنتين ، لكن لازم يرجع .

قال صويلح وقد أحس بالحزن الذي استبد بالأخوين:

ـ وكّلوا الله ، يا جماعة الخير ، الغايب علومه معه ، ولازم يرجع .

قال شعلان بشكل مفاجيء :

ـ أول أمس شفت أبوي !

نظر إليه الاثنان نظرة فرحة ومتسائلة ، دهش فواز ، كان يريده أن يتكلم ، أن يتابع ، لكن حين سحب وجهه الى الناحية الثانية ، وكأنه لا يريدهما أن يتطلعا إليه ، وحين غرق في الصمت ، دون أن يوضح أو يضيف كلمة واحدة ، سأل فواز ، وخرجت كلماته خائفة سريعة :

ـ متى رجع ؟ وين هو ؟

رد شعلان وهو يستدير تماماً ، وينظر في عيني فواز :

ـ هذه الساعة ساعته ، وكَد ، وكَد زين وتشوفه !

تلفتوا جميعهم الى أكثر من جهة لعلهم يرونه آتياً ، لكن حين لم يروا شيئاً سأل

فواز بلهفة :

ـ وينه ؟ متى تركته ؟

وبدأ شعلان يقصّ عليهما كيف رآه ، أين رآه ، أما حين حاول أن يكلمه ، أن يناديه ، فكان يختفي فوراً . كان كالبرق يظهر ثم يغيب ، لا يريد من أحد أن يقترب منه ، أو أن يزعجه . كان يدور في المعسكر طوال الليل ، مرة راكباً ومرة راجلاً ، وكان يشرب ويغسل يديه من مياه البراميل .

روى ذلك بانفعال ممزوج بالخوف ، وكان بين كلمة وأخرى يتلفت لعله يراه آتياً ، وما كاد يصل الى هذا الحد حتى قال بما يشبه الرجاء :

ـ انتبهوا يا جماعة . . هذه الليلة إذا جاء عزّتنا به وما تركناه لو انقلبت السماء على الأرض !

. . . أيام طويلة من الانتظار القاسي القلق . لم ينم الثلاثة خلالها إلا كما تنام الذئاب ، لم يعرفوا طعم الراحة ولم يهدأوا في الليل والنهار . انتظروا الى جانب براميل المياه ، عند بوابة المعسكر ، عند الأسلاك الشائكة ، قرب نقطة الحراسة الخلفية . انتظروا في ساعات الليل الأولى ، وفي ساعات الليل المتأخرة . انتظروا عندما اكتمل القمر وصار بدراً ثم بعد أن أخذ يتأخر في الظهور أو لم يعد يظهر . . . ولم يأت متعب الهذال !

حتى في ساعات النهار ، حين يذهب شعلان الى العمل ، لا يعرف أين أو ماذا يعمل ، ويبقى فواز وصويلح وبعض العمال الآخرين الذين عملوا في الليل ، كان فواز يتعمد الخروج والقاء نظرة طويلة متأنية على المعسكر كله . كان يتفرّس في الوجوه ، يتطلع باهتمام الى الزوايا القليلة قرب الخيام أو قرب البيوت الخشبية لعله يراه ، لكنه لم يظهر .

في إحدى المرات ، وكانوا قد فرغوا لتوهم من تناول عشائهم ، وقد تمددوا على الرمل ، زعق شعلان برعب :

ـ هذا هو . . . هذا هو ، ناظروا ، بحّروا زين .

التفتا الى حيث أشار ، انقطعت أنفاسهما وانعقدت ألسنتهما من الخوف . نظرا

بإمعان ، نظرا في أكثر من جهة . كانت الظلمة الخفيفة ، ظلمة أول المساء ، قد هبطت ، والرؤية لا تزال ممكنة ، وإن تكن غائمة ، مظللة ، تحدد الخطوط لكن لا تبرز الملامح . نظرا بإمعان ! تطلعا الى حيث كانت يد شعلان ممدودة ، تطلعا إليه ، كانت الدهشة الممزوجة بالخوف تملأ وجهه . هز رأسه مرتين أو ثلاث مرات ، وكأنه يزيل عن عينيه غشاوة . امسك بيد فواز فوق الساعد وضغط بقوة وخرجت كلماته من بين أسنانه :

ـ مرّ من هناك ، كان على ناقته ومسرعاً كأنه الطير .

وعتق وجه شعلان حتى بدا أقرب الى السواد . تطلع إليهما بغيظ وألم . كان يريدهما أن يلتفتا بسرعة أكبر ، أن يكونا أكثر انتباهاً .

ومن جديد حين تطلعا الى حيث أشار شعلان ، كان على البعد الثاني يسيران . خرجا لتوهما من خيمة تقابلهم . كان الاثنان واضحين مرتين حين خرجا ، ولما سارا ، وهما الآن يتوجهان الى بوابة المعسكر . هل يحتمل أن يكون ما رآه شعلان طيفاً أو مجرد وهم ؟ وهل يمكن أن يمر الانسان بهذه السرعة وبهذه الخفية دون أن يراه أحد ؟

لم يتكلموا خلال فترة بدت طويلة وثقيلة . كان الصمت مثل خيمة حديدية فوق رؤوسهم ، وكانت النسمات اللينة الصغيرة وهي تعبر تحمل رائحة الرطوبة وربما المطر . قال شعلان موضحاً :

ـ هذه المرة كان أبعد المرات وأسرعها .

قال صويلح متسائلاً :

ـ يا ولد عمّي . . خاف شفت غيره !

نظر إليه شعلان بعذاب . كان في عينيه رجاء أقرب الى التوسل ، كان يريد أن يوافقه ، أن يصدقه . اقترب من فواز ، صبّ نظرات حزينة في عينيه . كانت نظرات متسائلة : « وأنت . . شفته مثل ما أنا شفته ؟ » ظل فواز صامتاً وقد اجتاحته حالة من الخوف ، وبكثير من اليأس قام شعلان واتجه الى الخيمة .

بقي فواز وصويلح فترة طويلة في مكانهما . كانا صامتين كالحجارة ، وكانا مسلوبي الارادة كمياه تهبط منحدراً ، لا يعرفان ماذا يفعلان ، وليس لديهما أية رغبة

لأن يتحدثا ، لأن يتحركا . وإذا كان فواز مقتنعاً أن شعلان قد رأى شيئاً ، طيفاً أو شبحاً ، أو ربما يكون قد رأى أباهما ، فقد كان صويلح في شك مما قاله شعلان ، أكثر من ذلك بدا مستغرباً !

في إحدى اللحظات قال صويلح وكأنه يحدّث نفسه :

ـ أخاف يكون شعلان مسبوع .

توقف لحظة ثم أضاف بتساؤل :

ـ وعسى ما يكون مريض ؟

رد فواز بحدة :

ـ ما به شيء أبداً

وبنوع من اليأس قال وهو يمشي :

ـ ولازم نشوفه .

هذه الليلة ، الليالي التي قبلها ثم الليالي التي تلتها ، وطوال أسبوعين وبضعة أيام لم يناموا ولم يعرفوا طعم الراحة . صحيح أن صويلح شاركهما هذه الليالي ، كان قريباً منهما ، كان معهما ، لكنهما ، هما ، ولدا متعب الهذال ، كانا شيئاً مختلفاً ، وعاشا حالة مختلفة .

هل قال صويلح لأحد شيئاً ؟ هل تحدث عن الموضوع بطريقة أو أخرى ؟

إن شيئاً من هذا قد حصل ، إذ ما مر يومان إلا وجاء ابن الراشد . لما رآهم في زاوية الخيمة عند الغروب أبدى دهشة لفتت نظر الموجودين كلهم . سأل بطريقة ساخرة :

ـ ها . . ما خلصنا من متعب الهذال وبلاياه ؟

وحين أبدى شعلان استغرابه ، ونظر إليه بطريقة قاسية ، سأل من جديد وهو يشير الى فواز :

ـ أنت . . ولد من ؟

رد شعلان بحزم واختصار :

ـ تراك نسيت الناس يا أبو محمد . . .

ومن جديد نظر إلى فواز بتأمله ويهز رأسه ، تابع شعلان :

- أولاد متعب الهذال ، يا أبو محمد ، ما وراءهم بلاء !

ضحك ابن الراشد ليتغلب على الحرج ، إذ أحس أن الهجوم الذي بدأه لا مبرر له ، قال شعلان مواصلاً تعريضه :

- وطويل العمر ، متعب الهذال ، له ردّة .

التفت ابن الراشد الى الناحية الثانية ، وقال مخاطباً رجلاً كان يتابع الحديث باهتمام :

- إذا بغيت صاحبك يدوم فحاسبه كل يوم .

رد شعلان وقد بدا منفعلاً :

- إذا كان بيننا حساب ، يا أبو محمد ، فهذا شليلنا ، ويا مائة مرحباً ، حنا جاهزين !

ضحك ابن الراشد ضحكة صاخبة وتقدم من شعلان ، وبعد أن هدأت ضحكته قال بطريقة مختلفة عن السابق :

- يا ابن أخي ، أنتم العتوم بكم خصلة ما تخلصوا منها . . . .

قال هذا وهو ينقل نظراته من وجه لآخر ، وقد خيّم الصمت ، حتى اذا خلق رغبة لدى الجميع سكت . سأل شعلان بغضب وحدة :

- وما هي الخصلة اللي تقول عليها يا أبو محمد ؟

رد ابن الراشد وهو يقهقه :

- هذه هي : الحمق ، تغضبون وتثورون من كلمة !

وجلس ابن الراشد على الأرض قريباً منهم وبدأ يتحدث بلهجة أبويّة :

- الله يذكره بالخير ، أبوك ، يا شعلان ، قلنا له اصبر ، قال لا ، قلنا له الذلول الطيبة تردف اثنين يا متعب ، قال لا ، قلنا له الدنيا اليوم بحال وباكر تصير بحال ثانية ، قال لا . . . وراح . . .

توقف لحظة ، بدا أن كلامه غير واضح ، أضاف :

- العتوم كلهم لا يعرفون إلا طريقاً واحداً ، ولا يميزون بين اللي ينفعهم واللي يضرهم ، لا يميزون بين الصديق والعدو .

رد شعلان بنفاد صبر :

- إذا كان بينك وبينه سالفة يرجع بالسلامة وتسولفه بها .

- يا وليدي ما بيننا شيء ، وإذا رجع نسولف . . لا تخف .

وانتظروا أياماً ، أياماً طويلة قاسية . كانوا ينتظرون متعب الهذال وينتظرون العمل . لم يظهر متعب مرة أخرى . لم يره شعلان بعد تلك الليلة ، وقد ظل صامتاً أقرب الى المرض في اليوم التالي لتلك الليلة ، ثم في الأيام التي بعده ، لكنه بدأ يتحسّن تدريجياً بعد ذلك ، وإن لم يزايله السهوم ولم ينم نوماً طبيعياً عميقاً . أما فواز فقد ظل خائفاً شديد التنبه لأية حركة ، لأي صوت ، وكذلك لم يستطع أن ينام نوماً متصلاً . وإذا كان شعلان قد تعود أن يخرج الى الفلاة في بعض الليالي ، ربما لانتظار أبيه ، أو للبحث عنه ، فقد كان فواز يتقلب على فراشه ليشعر أخاه ، بطريقة ما ، أنه لا يزال بين النوم واليقظة وأنه مستعد لمرافقته في رحلته الغامضة ، ومع ذلك ظل متردداً في أن يقول له ، في أن يشعره ، ولم يعد أيضاً إلى طرح الموضوع بشكل مباشر ، ربما تجنباً لأي سوء فهم .

بعد أسبوعين من الانتظار جاء ابن الراشد ، وبعد جولة قصيرة ، وقبل أن يترك المعسكر قال لفواز وصويلح ان الشركة لم توافق على استخدامهما ، ويجب أن يتركا . كان مسرعاً وكأن وراءه أشياء كثيرة تنتظره . قال ان فواز لا يزال صغيراً ، وعليه أن ينتظر سنة أو سنتين قبل أن يتقدم بطلب العمل مرة أخرى ، وقال ان صويلح عينه كريمة ولا يصلح للعمل في الشركة ، قال ذلك بسرعة وأدار ظهره ومشى .

حين رجع شعلان من العمل ونقلا اليه ما ابلغهما ابن الراشد هز رأسه ، وخرجت الكلمات بطيئة نازفة من بين شفتيه :

- كنت أعرف . . .

بصق على الأرض وتابع :

- منة الله ولا منة ابن الراشد .

تطلع إليهما بحزن ، كأنه يعتذر . هز رأسه عدة مرات ثم أضاف يخاطب نفسه :

- لما قلت له قال : « أهل العيون أولى من غيرهم » .

وأشاح بوجهه الى الناحية الثانية ، وقال بسخرية :

- قبل كم يوم قال لي واحد من جماعته : « ابن الراشد يقول : واحد من العتوم عتم علينا ، وشعلان بن متعب تعب الدنيا . . . وهذا يكفينا ! » .

وخيم الصمت .

في نفس الليلة ، وبإلحاح خفي ، غير جارح ، غادرا وادي العيون الى عجرة في طريقهما مرة أخرى الى الحدرة .

هل هو ماء روضة المشق يصيب بلعنته واحداً آخر من عائلة هذال ام ان هناك قوة خفية غامضة ، قاسية وشديدة العتو ، هي التي تلاحقهم واحداً بعد آخر حتى تمحقهم ، فلا تترك احداً او اثراً منهم ؟

في طريقهما الى الحدرة من وادي العيون ، بعد ان مكثا اسابيع عند شعلان ، واضطرا الى قضاء عشرة ايام في روضة المشق ، بانتظار ان يواصلا الرحلة ، وفي اليوم الثالث لوصولهما الى الروضة ، جنّت الدنيا : خلال ساعات قليلة لم تبق قطرة ماء واحدة في السماء ، او في الامكنة الاخرى ، من وادي الجناح حتى الضالع ، الا ووصلت الى روضة المشق . امتلأت الاودية بماء لا يعرف من اين اتى . وروضة المشق المتربصة ، المطلة ، امتلأت بالخوف والفرح معاً . كان الناس ينظرون باستغراب الى السماء ، الى المطر ينهمر بجنون كما لم يفعل هكذا من قبل ، لكن سرعان ما يركزون انظارهم على الوادي الذي تهدر فيه المياه ، وتزداد لحظة بعد اخرى . كان الاطفال الى جانب الشيوخ ، والنسوة على بعد خطوات ، وقد اصابت الجميع حالة من الذهول . كان الشيوخ هم الاكثر فرحاً . كانت وجوههم التي عذّبها الزمن الطويل وملأها بالغضون والذكريات ترى شيئاً لم تره من قبل ، وكانت

الاصوات تترافق مع حركة الايدي ، مع حركة الاجساد ، وكأن حياة جديدة تتسرب اليهم مع كل قطرة مطر ، مع كل دفقة تهدر في الوادي .

هل يمكن ان تُنسى تلك الساعات والأيام الحافلة البراقة ؟ وهل تمحي تلك الاصوات التي تشبه الأدعية الغريبة المفاجئة ، او ربما تشبه الأناشيد ، وهي تخرج صاخبة قوية من فم الوادي ، من افواه القرب التي انفتحت من السماء ؟ وهل الاصوات التي تسمع ، خاصة اصوات الشيوخ والاطفال ، بنغم يشبه صوت الريح ، هي اصوات بشر ام اصوات تهبط من السماء او ترتفع من اعماق المياه ؟ كان صوت « لا اله الا الله ، لا اله الا الله ، لا اله الا الله » الذي يتفجر من كل مكان يولّد الرهبة ، ويخلق حالة من الخوف والقشعريرة . الصغار أخذوا وانفعلوا فامتلأت حركتهم بالرهبة والحرص ، وكانت تساؤلاتهم تجد إجاباتها السريعة الواضحة في تصرفات الرجال وادعيتهم . وحتى النسوة اللواتي كن بعيدات اول الأمر ، ما لبثن ان اقتربن واقتربن ، وتداخلت اجسادهن باجساد الرجال ، لكي يلقين نظرات مباشرة واكثر قرباً من الوادي على المياه القوية الهادرة ، وكن اكثر فرحاً واقرب الى النشوة ، وهن يرددن اصواتاً تشبه الاغاني او الأناشيد ، وكانت تصدر عنهن دون خوف ودون تحفظ .

كان يمكن لهذه الذكرى ان تغيب ، ان تتراجع ، لو ان متعب الهذال لم يظهر .

كان المطر يملأ الأرض والسماء . كان الوادي الضيق عند بداية روضة المشتى يدفق بجنون ، وكان الناس يقفون مذهولين يتطلعون .

في اللحظة الكبيرة ، حين وقف الرجال بخوف وقد جاءت الامواج القوية العاتية ، فتراجعوا الى الخلف خطوات ، وطلبوا بانفعال غريزي ان يبتعد الجميع ، ان يتراجعوا ، في تلك اللحظة وصوت واحد ردده الكبار والصغار ، الرجال والنساء ، ربما دون وعي « لا اله الا الله .. لا اله الا الله » ، في تلك اللحظة بالذات ، ومع التماعة البرق التي شقّت السماء ، وخلقت خوفاً فوق الخوف ، ظهر متعب الهذال . بدا كبيراً شامخاً ، واقرب الى البياض . كان يحمل عصاه بيمناه ويشير الى الناس من الضفة الثانية للوادي . كانت هيئته شديدة القوة والوضوح ، حتى لبدا اقرب من الضفة الثانية ، او كأنه في وسط الماء . كان صوته ناصعاً واقوى من صوت الرعد وتدفق المياه وصراخ الاطفال والنسوة .

قال لكل الذين اجتمعوا في روضة المشتى : « لا تخافوا . . . لا تخافوا من اللي تشوفوه هالحين » .

وحين خيم الصمت ، وقد امتلأ الناس كلهم بالخوف والانتظار جاء صوته مرة اخرى : « هذا هو آخر الخير » .

تراجع قليلاً الى الوراء . بدا تماماً على الضفة الثانية للوادي . دق الأرض بعصاه ، نظر الى الجميع نظرة قاسية ، وهز رأسه ثلاث مرات ، وقبل ان يلتفت الى الوراء هدر صوته من جديد : « الخوف من الجايات » .

وحين تراجع الناس مرة اخرى الى الوراء خوفاً من مداهمة السيل ، وحين هدرت موجة كبيرة داخلة فم الوادي بقوة جمل هائج ، تقدم فواز ، اندفع كما يندفع السهم ، كما تندفع الطلقة يريد ان يصل اباه .

اثناء حديثه الى الناس ، حين تراجع الى الوراء ، لما دق عصاه بالارض ، نظر الى فواز . نظر ولم يبتسم مرة واحدة . كان اقرب الى الغضب ، وكان فواز خائفاً من غضبه . تمنى في تلك اللحظة لو يرضى عنه ، لو يمتلىء في عباءته . كان يريد ان يمسك عصاه ، ان يهزها ، ان يقول له : « بعد غيابك يا ابي تركنا وادي العيون ، هم الذين اجبرونا على ان نتركه . شعلان وحده الذي بقي . ذهبنا يا ابي الى الحدرة . انت تعرف الحدرة وتعرف الناس هناك . وامي ، يا ابي ، لم تعد تتكلم . منذ رحلت يا ابي لم تتكلم ، ونحن ، كلنا ، مرضنا ، وانتظرنا ان تعود ، كل يوم نقول اليوم . لم ننم ليلة واحدة كما ينام الناس في الاماكن الاخرى . وانت يا ابي لماذا لا تأتي ، لماذا لا تزورنا ؟ الا تحبنا يا ابي ؟ الا تريد ان ترانا ؟ من اغضبك يا ابي ؟ واذا كان الكبار قد اذنبوا فنحن الصغار ما ذنبنا ؟ انا كبرت يا ابي ، اكبر مما كنت تعرفني . كنت عند شعلان يا ابي . انتظرناك في وادي العيون . انتظرنا عند البراميل ، وعند الأسلاك » .

وكان يريد ان يقول ايضاً اشياء اخرى كثيرة غيرها ، لكن كلمات متعب الهذال القوية ، ووجهه القاسي الملامح ، ثم خوف الناس وتراجعهم ، وتلك الاصوات التي هدرت في لحظة غطت الظلمة فيها كل شيء ، جعلت فواز حائراً عاجزاً ومملوءاً بالخوف . أما حين تراجع متعب الهذال الى الضفة الثانية من الوادي ، حين ابتعد

قليلاً ، فقد احس فواز ان قوة تدفعه ، ولولا ان صويلح ، ولولا ان ثلاثة كانوا يقفون بجانبه لاستطاع ان يعبر الوادي ، ان يصل الى ابيه ، لكن ما كاد يندفع ، ما كاد يصيح بأعلى صوته « يوبه يا يوبه » وينتبه صويلح حتى امسك به ، عقله تماماً كما تُعقل الابل ، حدّده كما تحدد الخيل . اراد ان يفلت منه ، صاح بأعلى صوته ، رفس ، شتم ، حاول من جديد ان يفلت ، ان يتحرر من القبضات القوية ، لكن فجأة وجد صويلح يبطحه ارضاً ويقف فوق صدره .

كان متعب الهذال هناك . كان اولاً وسط الماء ، وسط الوادي ، وبعد ان قال ما قاله ، بصوتٍ منادٍ ، واقوى من صوت مؤذن ، تراجع الى الخلف ، تراجع بضع خطوات ، لكن كانت ملامحه واضحة قوية ، وكانت نظراته تدور في الوجوه . دق عصاه ثلاث مرات ، كانت الأرض قوية تحت العصا ، سمع فواز الدقات رنانة حادة ، احس العصا تنغرز في جنبه . أما حين امسك به صويلح ، كما يمسك السخل ، وادار رأسه كما يدار رأس الخروف وقت الذبح ، فقد التقت عيناه بعيني ابيه . انه متأكد من ذلك . كانت نظراته هذه المرة اكثر رأفة ، وقد ابتسم له ابتسامة صغيرة . أما عندما حاول ان ينهض ويندفع بقوة مرة اخرى ، ليلحق به ، فقد امسك به صويلح ، امسك به من قدمه واوقعه ، لامس وجهه الارض ، ولما وقع ، لم يعد يستطيع الرؤية ، ولم يسمع الاصوات ، ولم ير الا الارض الموحلة المالحة الاقرب الى المرارة . عندما نهض مرة ثانية رأى أهل روضة المشتى جميعهم ينظرون اليه . كانوا كلهم فوقه او قربه مثل كتلة النار ، كانوا يطوقونه وقد بدوا شديدي الخوف . حتى وهم يفسحون له طريقاً واسعاً ، تلفت حوله ، نظر الى الضفة الثانية من الوادي ، قبل ان ينظر اليهم ، بدت له الضفة خالية تماماً ، لقد غادر ابوه مكانه . تطلع الى الوادي كله ، من بدايته حتى النهاية ، لكن لم يره . تطلع الى الوجوه حوله لعله يكون قد جاء لنجدته ، لمساعدته ، ليدفع عنه هؤلاء الذين يريدون منعه من الوصول اليه . تطلع الى الوجوه بامعان ، تطلع الى كل وجه . لكنه لم يره .

تطلع الى صويلح . كانت نظرات صويلح غاضبة وخائفة . كره تلك النظرات . احس انه وحيد ، وحيد تماماً . جثا على الأرض ، ورفع وجهاً حزيناً الى صويلح :

ـ الم تره ؟ اين هو ؟ كان هناك . . . كان هناك .

تطلع اليه صويلح ، وتطلع الى الرجال والاطفال والنسوة ، وحين رأى الجميع ينظرون اليه هكذا نهض بسرعة وركض .

بعد ان ابتعد فواز ، وصويلح وراءه يتبعه راكضاً ، شق برق غاضب لماع السماء كلها ، واختلطت اصوات الناس باصوات الرعد ، نظر فواز الى السماء ومع الامطار التي كانت تتساقط كانت دموعه تتساقط ، وكان يصل اليه صوت كثيف متداخل « لا اله الا الله . . لا اله الا الله » .

وبعد ذلك هطلت الامطار بقوة اكبر .

ما كاد السيل ينتهي وتشرق الشمس ، حتى ظهرت البادية كأنها طير من طيور القطا : لامعة ، طرية ، نزقة ، وكأنها لم تستقبل بشراهة لا تعرف الانتهاء هذا المطر كله . والفرح الزاهي الذي بدا في وجوه الناس وتصرفاتهم ، انتقل الى الحيوانات فبدت اكثر حدة ، ربما تعبيراً عما تحس به في داخلها من قوة جديدة ، لكن مقابل هذا الفرح فان حزناً ممزوجاً بالخوف سرى في جسدي هذين الشابين اللذين كانا في تلك القافلة الصغيرة التي تقطع البادية من روضة المشتى الى الحدرة . الرعاة وبعض المسافرين اندفعوا دون مبالاة ، وبخفة ايضاً ، يبحثون عن النباتات المبكرة بعد مطر الأيام السابقة ، أما هذان الشابان فكانا يغرقان في الحزن والتأمل . صحيح ان هموماً مشتركة تجمعهما ، لكن لكل واحد منهما ايضاً همومه الخاصة . ان يكون فواز بن متعب الهذال فيجب ان يدفع ضريبة ذلك ، لان ابن الراشد لا ينسى ، والثار هو الثار ، سواء أكان هو صغيراً ام لا . حين يطلب العمل يمكن ان يكون صغيراً ، أما حين يأتي وقت الثار فان لديه من السنوات ما يكفي لكي يُقتل ، لكي يدفع الثمن . ابن الراشد يرى ما يلائمه ، انه الآن السيد ، يرفض ويقبل ، لا احد يستطيع ان يجبره . واذا كان متعب الهذال قد أسمع ابن الراشد وغيره ما يجب ان يسمعوا ، وكان قوياً كالحصان ، لا يخاف ولا يتردد ، فمتعب الهذال الآن في جوف الظلمة

يظهر ويغيب ، لكن دون ان يحس به احد ، وكأنه غير موجود ، او لم يعد حياً . بكلمة اخرى واضحة : لم يعد يخيف احداً .

أما حزن صويلح الهذيب فكان مختلفاً ، حتى الصمت الذي يثقل عليه إنه من نوع آخر . حين ترك الحدرة كان متأكداً أنه سيجد عملاً ، هكذا أكد شعلان في رسالته الشفوية القصيرة . قال صويلح لأبيه ، لنجمة المثقال ، وللآخرين كانوا موجودين ، انه سيغيب فترة في وادي العيون ، سنة او سنتين . حتى اذا عاد تزوج فوراً . أما اذا شرّق ، كما فعل الكثيرون من أهل الحدرة والضالع ، فقد تمر سنوات قبل ان يعود . لا يستطيع ان يحتمل سنوات او ان ينتظر ، لان خلال هذي السنين قد تتزوج وطفة ؛ بالاضافة الى ذلك وادي العيون قريب ، رمية حجر ، كما يقولون . سيعود سريعاً وقد جمع مبلغاً من المال . هكذا فعل عدد من معارفه واقاربه ، وهكذا يتكلم الجميع . انه مثلهم ، اقوى منهم ، حتى العين التي قال عنها ابن الراشد انها كريمة يرى فيها اكثر من الاخرى ، يرى كل شيء ، أما هذه النقطة البيضاء في وسطها فكانت نجمة المثقال ذاتها تؤكد انها « نقطة حسد ولا بد ان تغيب مع الأيام » ثم ماذا يفيد ابن الراشد او غيره ان تكون هذه النقطة او لا تكون ؟ انه يحمل بيديه ، بجسده كله ، لا بعينه . واذا كان بعض اطفال الحدرة قد ذهبوا الى الجامع وقضوا سنوات يتعلمون القرآن عند عبد العزيز الحوقلي ، فانه لم يفعل مثلهم ، يرفض منذ كان صغيراً ان يتعلم ، وابوه لم يلح عليه كثيراً ، ولذلك لم يفكر كما فكر غيره ان يشغل نفسه بقراءة رسائل المسافرين او ان يكتب لأهل الحدرة !

ابن الراشد يقول له ان لا عمل له في الشركة لانه كريم العين ، ذبحه تماماً بهذه الكلمة ، لو قال اي شيء آخر لفهمه وتقبله . كان يجب ان يرد عليه ، ان يناقشه ، لكن المفاجأة ، ثم سرعة ابن الراشد في مغادرة الخيمة ، لم تمكناه من ان يقول كلمة واحدة . قال في نفسه بنوع من الاسى : « شعلان لا يفوّت كلمة لابن الراشد ، لو كنت مثله لما تجرأ على ان يقول ما قاله » .

في هذا الجو الشتائي الرائع ، والقافلة تخبّ مسرعة حيناً ، ورخية متمهلة حيناً آخر ، كانت الهواجس والافكار ومشاعر الانكسار تملأ هذين الشابين ، ورغم الاضطراب الذي يحسان به ، ورغبة الكلام ، وحتى العراك ، فان قوة اخرى كانت تشدهما الى الخلف ، كانا يشعران انهما مثقلان بذنوب لا يقويان على حملها ، وانهما ،

بالتجربة ، لم يكونا بمستوى الثقة التي وضعها الآخرون فيهما ، وها هما يعودان الى الحدرة ، ليس كما خرجا منها ، وانما ذليلان خائبان . كيف سيواجهان اسئلة الناس وعيونهم ؟ واذا كانت هناك اشياء يمكن ان تقال وتفهم ، فان اشياء اخرى لا يمكن ان تقال ، حتى لو رآها الآخرون او عرفوا بها . ماذا يستطيع فواز ان يقول اذا سئل ؟ اليس هو كبير العائلة بعد شعلان ، او هكذا اصبح منذ ان غاب متعب الهذال ؟ الا ينظر اليه الآخرون هكذا ؟ هل يجرؤ على القول انه رفض لصغر سنه ؟ وابن الراشد اذا عرفه بعض الناس وفهموا لماذا يمكن ان يرفض فهل يفهم الآخرون ؟

وصويلح . . . اقوى شباب الحدرة ، اكثرهم صخباً في المناسبات وليالي القمر ، وأجرؤهم على التحدي ، هل يتصور احد ان يرفض لهذا السبب بالذات ؟ وماذا تظن وماذا تقول وطفة ؟ وفي الاماكن الاخرى الا يفرّقون بين الحسد والعين المطفأة ؟ وهل يمكن ان يرفض الانسان في العمل نتيجة سبب تافه كهذا ؟

طوال خمسة ايام لم يتبادلا الا كلمات قليلة . لا لم تكن كلمات واضحة وانما اصوات اقرب الى الريح او هدير المياه ، حتى ان فواز نفسه خاف ان تكون مياه روضة المشتى قد ضربته فأصيب بالخرس كما فعلت بأمه . تراءى له ان عفريتاً سكن جسده ، وهذا العفريت هو الذي يمنعه من الكلام ، وفي محاولة لان يحارب هذه الهواجس ، لان يتغلب عليها كان يحرّك لسانه ، يتكلم مع نفسه ، وبعض الاحيان يصرخ على ذلوله دون حاجة او ضرورة . فعل ذلك عدة مرات ، وفي كل المرات كان صويلح يلتفت اليه مستغرباً متسائلاً ، أما اذا تكلم فان صوته يبدو غريباً وكأنه يصدر عن انسان آخر ، ولذلك ما لبث ان وجد نفسه يغرق في الصمت .

حتى الفلاة التي امتلأت بغناء صويلح وصخبه حين كانا ذاهبين الى وادي العيون ، غرقت في سكون رصاصي ثقيل ، وبدت السماء في الليل بعيدة والنجوم مطفأة ؛ أما صويلح الذي كان مملوءاً بالحيوية والنشاط في الذهاب فقد اصبح شخصاً آخر في العودة . كان اغلب الوقت في نهاية القافلة ، بعيداً ، متوحداً ، وبدا هزيلاً اقرب الى المرض . وفي اليوم الأخير ، في روضة المشتى ، كاد يرجع الى عجرة ويشرّق ، لكن عدل في اللحظة الأخيرة .

قبل ان تنتهي الرحلة بيوم واحد ، قبل ان يصلا الى الحدرة ، وحين نظر احدهم

في وجه الآخر بطريقة معينة ، بدا انهما متفقان على المؤامرة . قال صويلح بيأس كامل :

ـ اسمع يا فواز . . اذا وصلنا الحدرة نقول لاهلنا اننا بعد شهر نرجع الى وادي العيون . . ابن الراشد قال لنا غيبوا شهراً وارجعوا .

ويتذكر فواز ان صوتاً قوياً مفاجئاً يشبه التماع البرق وبداية الرعد ملأ الفلاة عندما بدت الحدرة . أما عندما واصل صويلح الغناء فقد استغرب كل الذين كانوا في القافلة ، ونظروا الى هذين الشابين من العتوم نظرة فيها تساؤل واعجاب .

مثلما كان يحدث في وادي العيون حين وصول القوافل حصل هذه المرة ايضاً وهما يصلان الى الحدرة : تجمع الناس ، خاصة الرجال والاطفال ، حتى الذين يسكنون في اماكن بعيدة ، في الساحة ، قرب الآبار ، وسيطر ذلك الفرح والانفعال على المقيمين والقادمين. الاسئلة نفسها يوجهها كل واحد لكل قادم من القادمين . اسئلة عن المطر والعشب والغدران والقوافل ، حتى اذا تأكدوا تماماً ، ودققوا في الاجابات مرة بعد اخرى ، سألوا عن اسعار الطحين والسكر والخام في روضة المشي وفي عجرة ، وما اذا كان الناس يتوقعون هناك استمرار هذه الأسعار أم ارتفاعها . فلما فرغوا من ذلك بدأت الأسئلة تأخذ منحى آخر : أسئلة عن الأقرباء والمعارف ، عن الناس في الأماكن البعيدة ، خاصة في وادي العيون وما حولها .

في الليل ، في مضافة ابن هديب ، قال صويلح لأبيه ، للجميع ، بكلمات حازمة انهما سيعودان الى وادي العيون مرة اخرى بعد فترة قصيرة ، وانهما سيعملان كما يعمل شعلان ، وحين سئل عن عمل شعلان لم يستطع ان يقول شيئاً واضحاً ، قال انه يحفر الارض ولا شيء غير ذلك ! لم يشأ ان يقول لهم ان هؤلاء العفاريت يصبون ماء وادي العيون وماء الصبحة ومياهاً اخرى يجلبونها ببيوت حديدية ، يصبّونها كلها في ثقوب يحفرونها في الأرض ، لا يعرف لماذا او الى متى . وبدأت تلك

الدوامة عن الجن وباطن الارض تدور في رأسه .

كان صويلح يود لو يتحدث عن كل ما رأى وكل ما سمع ، الا ان الآلام التي كانت تسيطر عليه ، منذ ان سمع ابن الراشد يقول ما قاله ، ويرجع هكذا خائباً مهزوماً ، ثم حين وجد نجمة المثقال قد دخلت في حالة من المرض والهلوسة ، وان امه واخته وبعض النسوة القريبات انشغلن بها ، وبالتالي فان وطفة اصبحت الآن في وضع لا يمكن معه التفكير او البحث في الحلم الذي يقذفه من مكان الى آخر من اجل ان يظفر بها ، فقد بدا شديد التشاؤم وغير راغب في ان يقول اي شيء ، ولذلك اكتفى بتلك الاجابات القصيرة الغامضة ولاذ بالصمت يدفن نفسه فيه .

واذا كان الناس في هذه الفلاة الكبيرة القاسية يولدون ويعيشون ثم يموتون في دورة طبيعية صارمة ، كما هو حال توالي الليل والنهار ، او تعاقب الفصول ، فان موت بعض الناس ، خاصة الذين يبعدون الموت عن الآخرين ، واولئك الذين يكشفون خبايا المستقبل ، يرتبط موتهم بالذاكرة بطريقة غير عادية ، وكأنه خروج على الدورة لكن لتأكيدها ايضاً . فاذا ارتبط هذا الموت بمرض حافل بالآلام والصحو المشرق والنبوءات الخارقة فعندئذٍ يتذكره الناس لفترات طويلة ، اوربما لا ينسونه ابداً ، وقد يتناقلونه جيلاً بعد جيل .

لو تركوا وضحة الحمد تتصرف وحدها في المعالجة لعاشت نجمة المثقال سنوات وسنوات . لو تركوا نجمة المثقال دون ان يقترب منها اي انسان لما ماتت بهذه السرعة . ولو انهم منعوا صبحة ، ام الحميدي ، زوجة عبد العزيز الحوقلي ، من الاقتراب منها لظلت نجمة المثقال الى فترة طويلة تدبّ على الارض وتضرب بعصاها الدجاج والكلاب ، حتى اذا فرغت من ذلك رفعت تلك العصا في وجوه الصبية والشباب بتوعد مرغوب تحذّر من الأيام القادمة ! لكن ام الحميدي ، تلك المرأة القوية المتجبرة ، لم تترك لاحد غيرها ان يقترب . كانت وحدها التي تقرر ، ووحدها تولت علاج نجمة المثقال ، ورفضت اية مساعدة عرضت عليها .

لقد جرى العلاج على مرحلتين ؛ في المرحلة الاولى اكتفت ام الحميدي بأن اعطت المريضة انواعاً من الاعشاب المرة ، قالت انها حضرتها بنفسها ، ولم توضح ما هي هذه الاعشاب ، لكنها اكدت انها مجربة ومفعولها سريع . ونجمة المثقال التي وافقت ، تحت تأثير الآلام التي مزقت احشاءها ، على ان تلتهم السفوف الذي

حضرته أم الحميدي ، ثم على أن تتجرع السوائل المرة التي أرغمتها على شربها ، كانت في وضع تريد ان تخلص من الالام ليس الا . أما المرحلة الثانية من العلاج ، والتي بدأت بعد الصحوة الأخيرة بيومين ، فقد ادت الى القضاء على نجمة المثقال تماماً .

ووضحة الحمد التي كانت تدور في انحاء بيت شنيوي العازم ، وهي تبحث عن بعض الاعشاب التي خبأتها بنفسها ولا تجدها ، كانت تغمغم بأصوات مبهمة ، اقرب ما تكون الى الشتائم ، وترفض ايضاً مساعدة احد ، بدت في لحظات معينة شديدة الانفعال واقرب الى الغضب . أما لما رأت فواز عائداً ، وبدل ان تفرح امتلأ وجهها وعيناها بتساؤل يشبه التأنيب « لماذا عدت ! » وحين اكد لها ان ابن الراشد طلب اليه ان يغيب شهراً او شهرين ثم يعود ليعمل ، هزت رأسها بنوع من المرارة ، وربما تذكرت كل ما يعنيه ابن الراشد . تذكرت الأيام الماضية في وادي العيون ، خاصة الأيام الأخيرة . وما كاد فواز ينتهي من توضيح كل هذه الامور حتى هبّت واقفة واشارت الى رضية ان ترافقها لتفعل شيئاً من اجل نجمة المثقال .

لما وصلت وضحة الحمد كانت ام الحميدي قد فرغت لتوها من تدليك بطن نجمة المثقال وظهرها بالزيت الساخن ، كان العرق يتصبب من المرأتين معاً ، وقد استبد بها تعب شديد ، وبدا ان المريضة قد استراحت بعض الشيء او تخدرت ، لانها اغمضت عينيها وكادت تنزلق الى النوم ، لولا ان شيئاً افزعها او المًا مزق احشاءها فهبت مثل قطة .

قالت رضية ان نجمة المثقال في الأيام الأخيرة قالت اشياء لا يقولها انسان ، لم تكتف بما قالته عما جرى من وقائع واحداث ، قالت اشياء كثيرة عن الأيام الآتية . طلبت من بعض النسوة ان يقتربن منها ، ضحكت في الوجوه ، ثم غنت وبكت ، لكن في لحظة معينة استبدت بها حالة من الضحك ، ضحكت مثل طفلة صغيرة في البداية ، وكأن انساناً يداعبها او يدغدغها ، ثم سيطرت عليها موجة من القهقهة ، لم تستطع ان توقفها او ان تتحكم بها . ظلت كذلك فترة طويلة من الزمن ، والنسوة اللواتي كن حولها استغربن ضحكها ثم قهقهتها ، لكن ما لبثن ، شيئاً فشيئاً ، ان شاركنها الابتسام ثم انخرطن معها في الضحك فالقهقهة ، فعلن ذلك لا شعورياً ودون ارادة او رغبة . كن اول الامر ينظرن اليها برثاء ، لكن ما كادت تغرق بهذه

الحالة حتى جارينها ثم اصبحن مثلها . ووضحة الحمد التي نظرت باستغراب وصل حد الاستنكار لم تستطع ان تمنع ذلك او ان توقفه . كانت حازمة قاسية ، اشاحت بوجهها في البداية ، ثم نظرت الى نجمة بخشونة اقرب الى التأنيب ، وهزت بعض النسوة وصرخت في وجوههن ، واخيراً وجدت نفسها تبتسم ثم انخرطت في موجة من الضحك والبكاء معاً . كانت دموعها اسرع من صوتها وربما اقوى ، وما لبثت ان خرجت الى الحوش ، ولما طاردتها الاصوات خرجت الى الفلاة ، وتبعتها رضية . كانت تجهش وتضحك في وقت واحد ، وكانت تحمل حفنات من الرمل وتعفّر رأسها .

لا يمكن لاحد في الحدرة وما جاورها ان ينسى ذلك ، لان نسوة كثيرات اكدن ان الذي قتل نجمة المثقال لم يكن دواء ام الحميدي الذي اخذته سفوفاً او سائلاً ، كما تحاول وطفة تأكيد ذلك بحزم . ولم يقتلها الزيت الساخن الذي دعكت به ام الحميدي بطن نجمة وظهرها ، وفركت كما لا يمكن ان تفعل خبّازة او غاسلة صوف ، وانما الذي قتلها تلك الموجة من القهقهة ، لان كل امرأة من النسوة اللواتي كن ضحكن ذلك اليوم ، اكدت ان حالة المرض التي اصابتها لم تقتصر على وجع الاحناك او بداية الرقبة ، وانما امتد هذا الوجع الى الظهر والكتفين ثم الاحشاء ، ولا بد ان تكون هذه الآلام مميتة ، خاصة لامرأة مريضة ، وفي مثل السن المتقدمة التي كانت عليها نجمة المثقال .

فبعد وصول صويلح وفواز الى الحدرة ماتت نجمة المثقال . كان الأمل خلال هذه الأيام يعقبه اليأس ، وكانت السخرية تترافق مع الحزم القاهر ، أما اليوم الذي ماتت فيه فقد بدأ بالضحك الهستيري ثم أعقبته الدموع الساخنة واخيراً . . . جاء الموت .

سيطرت على الناس حالة من الحزن والتشاؤم ، ومما زاد في هذه المشاعر الكلمات التي قالتها نجمة قبل ان تموت بايام قليلة ، وقبل ان توافيها تلك الآلام الحادة ، والتي بعدها لجأت ام الحميدي الى ذلك العلاج .

يتذكر الكثيرون ان من جملة ما قالته نجمة ، وتناقله الناس ، وان داخله التحريف ، يتذكر الكثيرون انها قالت :

« من وادي الجناح حتى الضالع ، ومن السارحة حتى المطالق ، النار تلهم النار ، والصغير يموت قبل الكبير . اولها عدّ وآخرها مد ، الولد لا يعرف ابوه والاخ لا يعرف أخوه » .

« من وادي الجناح حتى الضالع ومن السارحة حتى المطالق كل يوم من الأيام التالية بسنة من هذي الأيام . اولها خير يعم البلاد وآخرها العباد تلهم الجراد . اولها امطار وسيول وآخرها حاكم جهول . اولها قمح وديباج وآخرها زوان وعجاج . الناس رايحة دايحة ربها الفضة والذهب وحجها للفرج والذنب . الغني يأكل الفقير ، والكبير يظلم الصغير وكل يصيح يا نفسي » .

« من وادي الجناح حتى الضالع ومن السارحة حتى المطالق تصير الدنيا غير الدنيا ، الناس في الفلاة يدوّرون النجم والنجم ما يطلع ، ينتظرون القافلة والقافلة ما ترجع ، ينشدون وما احد يجيب ولا احد يسمع ، وهذه علامة الساعة ، والساعة ما هي بعيدة ، ما دام عاليها انقلب سافلها ، وانذالها تتحكم باشرافها ، وما دامت الدروب صامّة مثل القلوب ما بها حس ولا خبر » .

« من وادي الجناح حتى الضالع ، ومن السارحة حتى المطالق وابعد وابعد ، الناس على وجوهها هايمة ، ما يندري قايمة او نايمة ، اولها سلاطين بعدّ التراب وآخرها يوم يبشر بالخراب ، اولها السوط وآخرها اللوط ، اولها النبي المختار وآخرها الاعور الدجال ، والناس بطبول وزمور ، برايات وبيارق ، لكن ما تعرف وين رايحة ومنين جايه . الغريب يتحكم بابن الديرة ، والاجنبي يتحكم بابن العشيرة » .

« من وادي الجناح حتى الضالع ، ومن السارحة حتى المطالق وابعد منها بكثير ، الشريف من الناس ضعيف وحقه ضايع ، وابن الحرام يأكل ماله ومال غيره وما هو جايع . اللي يقول الصدق مهبول ومن الكثيرين مرذول ، والكذوب صوته يملأ الدروب واخباره من ديرة لديرة تجوب ، ويقول : جيت يا زماني . وبذاك الزمان عنتر بن شداد يسرح بالغنم ويأكل اصابعه ندم ، لانه قال اعرف ضرب السيف وقلبي ما يعرف الخوف » .

« ويآخر ذاك الزمان لا بد وان الناس تقوم والظلم ما يدوم وتحصل سوالف وسوالف يحكيها الناس لولد الولد » .

في الحدرة ، هذا المكان النائي ، وكأنه نهاية العالم ، لا ينتظر الناس المطر ، لفرط ما خابت آمالهم ، لقد اصبحوا اقرب الى التسليم ، فاذا جاء المطر في سنة من السنين فانه لا يطول ولا يترك في الحدرة الا آثاراً قليلة ، انه يتابع انحداره الى وادي الباشق فالأرض التي وراءه ثم البادية ، ومع ذلك فان المطر ، رائحة المطر ، تغير حياة الناس وتصرفاتهم .

كانت تلك هي الحال في الأيام الاولى لعودتها الى الحدرة ، بعد تلك الرحلة الخائبة ، فالناس لا ينفكون يتحدثون عن المطر ، ولا يكتفون ان تحدثهم مرة او اثنتين عن السيل في روضة المشنى ، ثم العشب على مسيرة يومين من الحدرة ، والغدران التي امتلأت بالماء ، اذ يريدون اكثر من ذلك ، لأن حزناً مفاجئاً بعد كل ما يقال يهجم كعدو ، فلا تطول الاحاديث ولا تتنوع ، وانما تمتلىء بمقدار كبير من الترقب ، وكأن مصيبة تترصد الحدرة ، ولا بد ان تأتي في اللحظة التالية .

الشتاء في وادي العيون كان شيئاً مختلفاً ، فالمطر ، او انتظار المطر ، يحمل فرحاً من نوع نادر . حتى لو تأخر في سنة من السنين فان الناس لا يكفون يوماً واحداً عن الانتظار . يسألون القوافل ، يسألون الرعيان ، يتطلعون الى السماء ، يملأون

صدورهم بالهواء يتشممون فيه رائحة المطر ، حتى اذا جاء تهللت الوجوه ونظرت العيون الى العيون بطريقة تحمل معنى صدق الوعد . ومع المطر تخضرّ الارض لمسافة كبيرة حول وادي العيون ، وتمتلىء الغدران القريبة ، أما العيون فانها تفيض ويشرح الماء لمسافات ومسافات ، ومع المطر ايضاً تتغير الحياة ويتغير الناس .

والليالي ، خاصة ليالي الشتاء ، في وادي العيون غيرها في الحدرة . تهبط الظلمة في الحدرة مبكرة ، ومع تلك الظلمة برودة قاسية تولد حالة من الانقباض . ولأن الحطب قليل في هذه المنطقة ، فان الناس يقتصدون في استعماله ، تحسباً للأيام التالية او لحاجة قد تجدّ دون توقع او دون انتظار ، كمجيء قافلة او موت احد . ولأن ليالي الحدرة هكذا فان الناس تعوّدوا ان يأووا الى فراشهم مبكرين ، وان تكون احاديثهم قصيرة ولا تأخذ ذلك التألق الذي يلهب الخيال ويفجّر العواطف ، كما كان يحصل في وادي العيون .

انه شتاء آخر في الحدرة . شتاء السنة الماضية انقضى وحالة من الخوف والتشاؤم تسيطر على الكثيرين ، خاصة عائلة متعب الهذال . أما هذه السنة فانه يحمل الى جانب الخوف حزناً قاتماً ، نتيجة موت نجمة المثقال بهذه الطريقة ، وما نقلته النسوة من كلمات ونبوءات قالتها المرأة في ايامها الأخيرة . لقد ولّدت تلك النبوءات خشية اقرب الى الحذر ، واختلفت النسوة في نقلها ، اذ كانت تتغير من امرأة لاخرى ، وقد فُسّرت باشكال لا حصر لها ، فلما وصلت الى آذان الرجال ضحكوا بسخرية ، واعتبروا ان ما قيل اقرب الى الهذيان ، ولا يمكن ان يحمل على محمل الجد او حتى مجرد الاهتمام ، ولئن استمرت النسوة يرددن ما قالته نجمة المثقال مع اضافات تزداد يوماً بعد يوم ، ولأن نجمة المثقال قالت سابقاً اشياء وتحققت ، فقد اعمل الرجال عقولهم ليستخرجوا احتمالات وتقديرات تكون اكثر اقناعاً واكثر امكانية من غيرها ، ولانهم لم يتوصلوا الى شيء فقد تناسوا الأمر بعض الوقت ، لكن حالة من الترقب دخلت الى قلوبهم وبدأت تقلقهم .

الحدرة وما تلاها ، وما قبلها ايضاً ، ولمسيرة أيام من كل ناحية ، موجودة هكذا منذ ان خلق الله الارض . ولأن حياة الناس تتسم بمقدار كبير من الصعوبة والخشونة ، نتيجة انقطاع المطر ، او عدم وصول القوافل ، وبالتالي ارتفاع اسعار الطحين والسكر والخام ، فقد تعوّد الناس على هذه الحياة الى درجة انهم لا يتوقعون

افضل منها . فاذا ضاقت الأرض بالذين فوقها فلا بد ان يقع شيء ما . كان الموت يتكفل ، اغلب الأحيان ، بحل هذه المشكلة . الموت اما على شكل غزوات ونزاعات ، وكانت كثيراً ما تقع ، نتيجة الاختلاف على المراعي والمياه ، او على شكل مرض يفتك بالناس والحيوانات . كان الموت هو الذي يخلق توازناً يجعل الناس قادرين على العيش والاستمرار ، فاذا ضاق بعض الرجال بالموت ، ولم يعودوا قادرين او راغبين ان يقتل بعضهم بعضاً ، ومع وصول القوافل ، فان نداء قوياً ملحاً الى السفر يدفعهم دون استعداد كبير ودون تفكير سابق . وبرحيلهم تتسع الأرض بعض الشيء للذين بقوا فيواصلون الحياة .

أما ما تقوله نجمة المثقال ، وما نقلته النسوة باشكال عديدة ، فانه يثير التساؤل اكثر مما يثير الخوف ، لكن التساؤل هو بداية الخوف ايضاً . وهذا فان القتام الذي ينبعث من بعض الكلمات والنبوءات التي بشّرت بها هذه المرأة المتجيرة العارفة ، والتي ترى ما لا يراه الآخرون ، آثار صخباً ازداد واتسع بموتها على تلك الطريقة .

قال سليمان الهذيب حين رأى ابنه يلحّ في ان تفعل امه شيئاً ، لكي يكون ارتباطه بوطفة اكيداً . قال بنفاذ صبر :

- يا وليدي بعد اللي قالته العجيّزة ، نجمة المثقال ، يلزم ان الواحد يحضر زهابه ليوم القيامة .

احس انه تورط بهذه الكلمات ، فقد كان الى وقت قريب يسخر اذا ذكرت أمامه كلماتها ، أما ان يرددها بنفسه ، وان تكون قد ترسبت في وجدانه كقناعة خفية فقد احس انه اخطأ . تابع في محاولة لتدارك الخطأ :

- اصبر يا وليدي . . امس ماتت العجوز

توقف قليلاً ثم تابع بلهجة جديدة :

- وكل شيء بوقته زين .

طوي الموضوع مؤقتاً ، واشتعلت رغبة السفر من جديد . قال صويلح لأمه :

- مع اول قافلة امشي ، وما يحيل الحول الا وتشوفوني عندكم واعرّس .

قالت العجوز وهي تبتسم :

- ابشر يا وليدي . . ووكل الله .

وبدا من جديد يغزلان فكرة السفر ويستعدان . كان صويلح يلتهب حركة وحماسة من اجل ان يسافر بسرعة ، لكي يؤمن مبلغاً من المال يكفي السياق ، وكان اكثر حرصاً وخوفاً بعد وفاة نجمة المثقال ، اذ قد تجدّ امور في الخدرة او غيرها تمنع زواجه او تؤخره ، وقد يأتي احد اقارب وطفة ويخطفها منه ، لكن بعد ان انتقلت الى بيت خالتها ، قالت لأمه « يا عمتي مالي احد بهذه الدنيا إلا الله وانتم ! » وفهمت هذه العبارة على انها موافقة كاملة ، فقط اذا مرت مدة كافية وعاد صويلح من سفرته . . عند ذاك لا بد ان تحتفل الخدرة بهذا الزواج الذي طال انتظاره .

ولأن الشابين بدآ الكذبة معاً فلا بد ان يواصلاها معاً . بذل صويلح جهوداً كبيرة لاقناع فواز بالسفر معه . صحيح ان فواز كان شديد الضيق بالخدرة ، ويريد الخلاص منها باسرع وقت ، لكنه شعر بعد الخيبة التي واجهها في وادي العيون انه لا يستطيع ان يفعل شيئاً في مواجهة هذا العالم القاسي ، ولا بد ان ينتظر سنة او اثنتين قبل ان يجزم امتعته مرة اخرى ويذهب الى وادي العيون ، عند شعلان ، لكي يعمل هناك ، كما وعده ابن الراشد . لكن إلحاح صويلح ، وتلك الصور الزاهية التي رسمها للعالم بعد وادي العيون ، الاماكن الجديدة والمدن الكبيرة ، اضافة الى الاموال التي يمكن ان يحصلا عليها ، اضعفت مقاومة فواز وجعلته حائراً .

كان صويلح لا يتردد في ان يعيد على مسامعه كل يوم القصة اياها . وفواز يسمع ولا يجيب ، ينظر اليه ويسافر بعيداً . واذا كان مقتنعاً في اعماقه بالسفر والرحيل ، فان احد الاسباب الحقيقية وراء ذلك هو متعب الهذال نفسه . فالمرض الذي رآه في عيني شعلان ، ثم ذلك الخوف الذي لاحقه منذ الليلة الاولى في وادي العيون ، الى ان رآه متجسداً قوياً في روضة المشتى ، والذي جعله لا ينام ولا يهدأ ليل نهار ، ولّد عنده رغبة جامحة لأن يتبعه ، لأن يصل اليه . لم يستطع ان يتحدث عن ذلك لاحد ، حتى أمه او رضية لم تسمعا منه كلمة واحدة عن ابيه .

هل يمكن ان يخطىء هو وشعلان معاً ؟ قال لنفسه « يجوز اخطأ ، ويجوز اخطيت ، أما ان نخطى انا وهو فلا ! » اصبح متعب الهذال بالنسبة لهما اكثر من مجرد أب ، ولا يمكن ان يغيب هكذا الى الابد . لو ان الامر اقتصر على الغياب لوجد الانسان تفسيراً واستراح ، لكنه كان اكبر من ذلك واقوى . . .

كل محاولات صويلح لم تكن لتجدي لو انه لم يره في روضة المشتى ، ومع ذلك كان خائفاً لا يعرف اين يذهب او ماذا يفعل .

ظل متردداً صامتاً في معظم المرات التي طلب منه صويلح ان يوافق ، وكان من الممكن ان يظل متردداً ولا يسافر لو ان الخوش لم يأت .

عندما يستعيد فواز الآن تلك اللحظات يحس ان قوة خفية هي التي تصنع اقدار البشر وتدفعهم من مكان الى مكان ، وهي التي تحدد حياتهم وموتهم .

فهذا الذي غاب سنين طويلة ، دون رسالة او خبر ، والذي ادى الى جنون تلك العجوز ثم موتها في اليوم الأخير بوادي العيون ، واعتبر انه انتهى في مكان ما ، ولم يبق احد الا وطوى صفحة هذا الذي كان اسمه الخوش ، واصبح مجرد ذكرى ، وملامح قديمة تتآكل وتتلاشى يوماً بعد آخر . . هذا الانسان الذي غاب كل هذه السنين ، ومع قافلة ابن الاعسر التي تأتي في مثل هذا الوقت من كل سنة ، لكي تبقى شهراً او اكثر بقليل في الخدرة ، تبيع لاهلها ومن جاورهم ما تحمله من الاماكن البعيدة ، من الطحين والسكر والشاي والمنسوجات ، اضافة الى اشياء اخرى لا تخطر ببال ، ثم تحمل من هذه المناطق ، في طريق العودة ، السمن والصوف وبعض رؤوس الخيل ؛ في قافلة ابن الاعسر ، وعلى غير توقع من احد جاء الخوش .

لقد بدّلته الأيام كثيراً ، الشاب الصغير ، ابن السبعة عشر عاماً ، الذي راح في قافلة السالمي ، يرجع الآن مكتمل الرجولة ، بل واقرب الى الكهول ، او هكذا بدا في نظر الذين رأوه .

التجاعيد الصغيرة تظهر بوضوح حين يبتسم ، وحين يغرق في التفكير والذكرى . السمرة القاسية تغطي الاماكن المكشوفة من جسده ، فاذا شمّر ثيابه او نزع غترته ، برزت الألوان متناقضة ومثيرة للتساؤل والعجب ، أما الملامح فقد ظلت هي نفسها او ربما تغيرت تغيراً طفيفاً .

كان مجيء الخوش مفاجئاً حافلاً واقرب الى عدم التصديق ، وبمقدار الفرح الذي رافق مجيئه فقد ولد ذكريات واحزاناً وتساؤلات لا نهاية لها . انفجرت الحياة الماضية كلها دون رغبة من احد ، وبدأت تتوالى القصص والذكريات . كيف كان الحاجة قوياً الى درجة ان امه هي التي اقنعت الكثير من الرجال ، بمن فيهم متعب الهذال بأن

يوافقوا على سفره . كيف كان يتفوق على جميع شبان وادي العيون . . . ثم ليلة سفره ، كيف صنعت له امه زوادة تكفيه ، كما قال متعب الهذال ، لأن يصل الى مصر ويرجع منها !

أما حين جاء ذكر وادي العيون ، وقال انه مرّ هناك فلم يعرف احداً ، ولولا وجود شعلان وابن الراشد لأنكر كل شيء ، وحين جاء ذكر العجوز اطرق وصمت تماماً ، وكأنه لا يريد ان يتذكر او ان يقول كلمة واحدة . بدا حزيناً ومقتولاً ، حتى لكأنه شخص آخر ، كان يتمنى لو انه جاء قبل هذا الوقت ، لو انه رأى امه قبل ان تموت . وشعلان الذي ألحّ عليه ان يبقى في وادي العيون ، وان يعمل معه في الشركة ، لم يستطع ان يقنعه او يستبقيه ، بعد ان ابلغه بوفاة امه في الأيام الأخيرة ، قبل الرحيل عن الوادي ، ثم كيف هيّج متعب الهذال لا احد يعرف الى اين او الى متى .

مع كل يوم كان الفرح بالخوش يزداد ، حتى وضحة التي غرقت في الصمت منذ ان تركوا روضة المشتى ، بدت امرأة اخرى ، اخذت تصدر عنها اصوات تشبه اصوات الاطفال في بداية تعلمهم الكلام ، واضاءت عيناها بفرح اقرب الى الرضا ، كما اصبحت اكثر حركة ونشاطاً . أما حين استخرج الخوش من تحت ثيابه المغبرة القديمة تلك المحفظة الجلدية التي كان يعلقها برقبته ، وكانت مربوطة بخيط قوي احسن اختياره وتثبيته ، حين استخرج الخوش المحفظة ، وكانت تلتصق على اللحم ، قريباً من القلب ، ووضحة مقابله تنظر اليه تتابعه ولا تدري ماذا سيفعل ، ثم يفك المحفظة بهدوء ويمد كل ما فيها ، بيديه الاثنتين ، ويضعه كله في حضنها ، عند ذاك تساقط دموع غزيرة من عينيها . انها المرة الوحيدة التي تبكي فرحاً وحزناً والماً في وقت واحد ، وبطريقة تختلف عن بكائها في عجرة في الليلة الأولى لوصولهم قادمين من وادي العيون .

لقد فعل الخوش ذلك بهدوء مبالغ فيه ، وحين رأى الدموع اطرق ، لكن دون حزن ، وظل كذلك بعض الوقت ، ولما رفع رأسه مرة اخرى كانت ابتسامة صغيرة تظهر على زاويتي الفم ، وفي العينين ، ودون كلمات من اي نوع فهم الاثنان .

كان فواز يتابع هذا المشهد صامتاً مذهولاً ، اما رضية التي دخلت وخرجت اكثر من مرة ، وبدت شديدة الانفعال ، مرتبكة ، فقد ادركت بحس الانثى ان شيئاً

خطيراً يجري في تلك اللحظات ، وان الامر الذي انتظرته سنين طويلة ، وحلمت به اكثر مما حلمت باي شيء آخر ، قد تحقق دون كلمة .

بعد ذلك بأسبوعين تزوج الخوش من رضية .

وبعد أسبوع من الزواج قال فواز لصويلح ، وكان شديد الثقة :

ـ اذا تهيأت لنا قافلة قبل سفر قافلة ابن الاعسر نسافر معها ، والا يجب ان نبقى الى حين سفرها .

أما حين ابلغ امه انه انتوى السفر ، عائداً الى وادي العيون ، عند شعلان ، للعمل في الشركة ، وانه لن يكف يوماً واحداً عن البحث عن ابيه ، ولا بد ان يجده ، وان يرجعا معاً ، فقد بدت الام فرحة حزينة في وقت واحد ، اشتعلت في قلبها الآمال والمخاوف دفعة واحدة ، فبان وجهها اقرب الى القسوة ، لكنها نهضت مسرعة وبدأت تهيّء ما يحتاجه الى السفر ، وحين تساءلت عيناها ، وخرجت من فمها تمتمات غير مفهومة تستفسر عن موعد سفره ، وما اذا كان عليها ان تهيء له زوادة للطريق ابتسم وقال :

ـ الى حين ما يسافر ابن الأعسر .

ولما استعدت قافلة ابن الاعسر للرحيل كانت وضحة قد هيأت له كمية كبيرة من الأكل ، وحين رآها الخوش ضحك وقال نفس الكلمة التي قالها متعب الهذال قبل سنين طويلة :

ـ هذه تكفيه لأن يصل الى مصر ويرجع منها !

بدت الحدرة وهما يغادرانها اكثر حزناً واكثر شيخوخة ، حتى الاطفال وهم يتجمعون حول القافلة بدوا حزينين متسائلين . كانوا اقل حركة مما تعودوا في مثل هذه الحالات . أما الرجال فقد اظهروا حكمة زائدة ، وبالغوا في احكام ربط الاحمال ، وبدا بعضهم غير مكترث . والنسوة ، كما هي العادة دائماً ، ظللن بعيدات ، لكن لم تفتهن اية حركة ، ولم تغب عنهن اية كلمة او اشارة . أما وضحة الحمد ، التي اظهرت مقداراً هائلاً من الصلابة ، وحضّرت كل شيء بعناية بالغت فيها الى درجة لفتت نظر الكثيرين ، فقد كانت في اعماقها تدرك ان رحلة ابنها ، هذه المرة ، ستطول . كانت تفعل اشياء لم تفعلها في رحلته السابقة ، وكانت تراقب حركاته وتنظر اليه بطريقة لم يرتح اليها ، وقد شعر نتيجة ذلك بالاضطراب وما يشبه الحرج ، حتى اذا ودع اخوته واخواته ، وتقدم اليها ، امسكت بكتفيه الاثنين وهزته بطريقة معينة ، كأنها تختبر قواه ، توصيه ، تضع ما تبقى من قوة جسدها في جسده ، فلما وجدته شديداً قاسي ملامح الوجه ، هزت رأسها بصلابة الفرس ثم غمرت وجهها في صدره . فعلت ذلك بقوة وظلت كذلك بعض الوقت ، فلما رفعت اليه وجهها كانت دمعتان تجولان في العينين دون ان تقويا على السقوط . كانت الدمعتان تتحركان بطريقة متحدية وحزينة ، وفي اللحظة الأخيرة

رتبت على صدره وكتفيه وتراجعت خطوة الى الخلف لتقول له دون كلمات : « يمكن ان تذهب الآن ! » .

أما الحوش الذي كان فرحاً منفعلاً كثير الحركة ، فقد رافق فواز وصويلح وظل معهما الى ان تحركت القافلة ، وقد قال اشياء كثيرة ، وان بدت غير مترابطة وليست في سياق واحد ، وكأنه يودعهما تجربته في الحياة كلها ، ويريدهما ان يفهما ويستوعبا اكثر مما تدل عليه حركاتهما وهزات رأسيهما .

في الطريق الى روضة المشتى ، والتي استغرقت سبعة أيام ، لأن ريحاً قوية عطلت مسيرتهم ، واضطرتهم لان يأخذوا الطريق الشمالي للوصول الى الروضة ، بدأت تعود الصور والذكريات ، وعادت معها الساعات واللحظات الأخيرة ؛ وفواز الذي تمالك نفسه ، واصرّ على ان يكون اقوى من الصخر ، خاصة في مواجهة تلك العجوز التي تركها في الحدرة ، كان يحس بحزن ثقيل ، الأمر الذي أربك صويلح ، فتساءلت عيناه مرات كثيرة ما اذا كان خائفاً او عادت اليه تلك الهواجس التي ملأته في رحلة العودة من وادي العيون الى الحدرة ، ورغم انه بذل جهوداً كبيرة من اجل ان يخفف عنه ، ان يشغله بأمور كثيرة ، فقد ظل بادي الحزن . أما حين اخذ يغني ، وفعل ذلك عدة مرات ، وابدى رجال القافلة سرورهم بغنائه ، فقد شعر ان غناءه في هذه المرة حزين واقرب الى اللوعة .

هل كان يعني فراقه الابدي لاماكن لن يراها ولاشخاص لن تتاح له الفرصة ، مرة اخرى ، لان يلتقي بهم ؟ هل كان يعني فراقه لوطفة وهذه الرحلة المجهولة التي لا يعرف الى اين يمكن ان تحمله .. ثم هل يعود منها ومتى ؟ هل كان يعني حياة وذكريات بدأت تغيب وتتلاشى ما ابتعدت القافلة عن الحدرة ؟

ان فراقاً من نوع ما كان يرفرف فوق الرؤوس ، كان يصرخ في الظلمة ، في ساعات الليل الأخيرة او في ساعات الفجر . ان هذا المجهول الذي بدآ يغرقان فيه ، خطوة بعد اخرى ما ابتعدا عن الحدرة ، لن يستطيعا النجاة منه ولن يفارقهما حتى النهاية .

ومع هبات الريح القوية التي تعفّر وجوه الرجال ، وتجعل الجمال عصبية سريعة الإثارة ، والتي تمنع الرؤية وتحد من السير ، مع هبات الريح كانت وجوه تنبعث

وتضيء ، وهذه الوجوه بمقدار ما تظهر تفجرُ قوى داخلية عاتية في داخلهم ، وتدفعهم اكثر واكثر على السير ونسيان التعب .

قال صويلح ، وقد بدت روضة المشنى تظهر :

ـ نمرح في الروضة يوماً واحداً ثم نتابع سفرنا الى عجرة .

قال هذه الكلمات وهو يتطلع الى عيني فواز تماماً ، وكأنه يمتحن تلك النوايا العاتية التي ملأته في رحلتهما السابقة . ولما ظل فواز صامتاً تابع :

ـ انت تعرف انه من عجرة يمكن ان تسافر الى الاماكن التي تقصدها ، يمكن ان تسافر الى بغداد او الشام ، ويمكن ان تسافر الى عمان . . واذا اردنا نقدر ان نصل الى مصر .

• • • •

الخطأ الآخر الذي ارتكبه فواز انه وافق صويلح على البقاء فترة قصيرة في روضة المشنى ، ثم تابعا سفرهما الى عجرة .

كان صويلح شديد الخوف من أن يتشبث فواز بروضة المشنى ، ان يهيم على وجهه بحثاً عن ابيه ، خاصة وهما يعبران الوادي ، وبعد ذلك الصوت القاسي المفاجيء الذي انطلق من فمه دون ارادة : « هنا . . هنا يا صويلح » ومثل قطٌ قفز عن ذلوله وهي تخب به وأشار بخيزرانته الى مكان بذاته .

وبصبر كبير هزّ صويلح رأسه دلالة الفهم والموافقة ، او ربما بيّت في نفسه امراً آخر ، اذ ما كاد يراه هكذا حتى نزل . امسك بناقته واناخها ، ثم اناخ ناقة فواز ايضاً ، وسأل بطريقة قاسية ، وربما مؤذية :

ـ ما تقول ، يا فواز ، لو امرحنا نهارنا كله هنا ؟

هل كان يريد ان يتحداه ؟ ان يقول له ، بطريقة غير مباشرة ، ان ما رآه في رحلتهم السابقة مجرد وهم من الاوهام ؟ هل يريد ان يثبت له ان اباه الذي رآه في هذا المكان ، على فرض انه كان هنا فعلاً ، قد رحل الى مكان آخر ، ولذلك لا جدوى من البقاء او البحث عنه في هذا المكان ؟

لا بد ان يكون قد توصل الى قرار نهائي ، ويريد الآن ان يجبره على السير معه ، بالطريقة التي يشاء . كان فواز متهيجاً خائفاً ، وربما كان بحاجة الى من يفكر ويتخذ

القرار نيابة عنه ، اذ ما كاد صويلح يقترح ذلك الاقتراح ، بان ينفصلا عن القافلة ويقضيا اليوم في هذا المكان ، حتى شعر فواز انه يسخر منه ، رد عليه بحدة :

ـ قلت لك بهذا المكان شفته ، وانه بهذا المكان كان ، ما قلت لك نمرح هنا .

ـ هذا المكان زين وقريّب ، وما به شي لو امرحنا .

ـ لا . . نمرح مع الجماعة عند البيار .

ـ القول قولك ، يا ابن عمي ، واللي تشوفه .

هذا هو الخطأ الأول في الرحلة ؛ لو ان صويلح لم يقل ما قاله بتلك الطريقة لقضيا يومهما في هذا المكان ، المكان الذي اطل منه متعب الهذال وتحدث الى اهل روضة المشنى ، وسمعه الرجال والنساء والاطفال ، وطغى صوته على الرعد وهدير السيل ، فاذا لم يأت الى هذا المكان في النهار فلا بد ان يأتي في الليل . واذا لم يأت فلا بد ان يكون في مكان قريب . أما ان يوافق صويلح ويتابعا الرحلة فيقطعا الوادي ويصلا الى نهاية روضة المشنى ، من ناحية الشرق ، على طريق عجرة ، قرب الآبار ، ان يوافق معه على ذلك ، ان يطلبه بنفسه ، فقد ارتكب الخطأ .

في روضة المشنى اصبح انساناً آخر . انها المياه الملعونة التي ان دخلت الى الجسد تشله ، تجعله عاجزاً . اذ ما كادا يقضيان يومهما الأول ، وكان من المقرر ان تبقى قافلة ابن الاعسر ثلاثة أو اربعة ايام ، حتى قال له صويلح :

ـ الجماعة يبغون البيع والشراء ، وحنا ما عندنا ما نشري وما نبيع ، ما قولك لو مشينا؟

وبنفس الطريقة السحرية الفتاكة ، وربما نتيجة الخوف من المياه الملعونة ، وافق فواز على ان يواصلا سفرهما الى عجرة في اليوم التالي .

وبمقدار الفرح الذي كان يحرك صويلح ويدفعه لان يواصلا السير بسرعة في قافلة صغيرة الى عجرة ، كانت الهواجس وحالة من الخوف تسيطر على فواز وتشل تفكيره وتجعله يغرق في الصمت .

ظن صويلح ان المرض او حالة مشابهة لا بد وان تمنع فواز من مواصلة الرحلة ، ولا بد ان تولد مشاكل لم يكن مستعداً لها ، لذلك بذل اقصى ما يستطيع من اجل ان يخفف عنه . بدأ يحدثه عن العالم الذي يقودهما اليه الطريق السلطاني ، بعيداً عن

البادية الميتة القاسية ، وهناك سيجدان كل ما يشتهي الانسان . لن تطول سفرتهما وسوف يرجعان اغنياء . لم يكتف بذلك ، اعاد كل القصص التي سمعها عن رجال فقراء ركبوا الطريق السلطاني وسافروا الى امكنة بعيدة ، وخلال فترات قصيرة اصبحوا مضرب المثل لغناهم واهميتهم ، منهم من عاد ومنهم من بقي الى الآن . تزوجوا وخلفوا ، وبدل المرأة الواحدة تزوج الواحد منهم زوجتين او ثلاثا ، ويبعثون الى اهلهم في الحدرة ، في الرحبة ، او عجرة ، يبعثون اليهم بالمال والثياب ، وهم لا بد عائدون في يوم من الأيام .

لم يترك صويلح قصة سمعها عن الرجال الذين سافروا الى الاماكن البعيدة الا واعادها عليه ، وحين وجده صامتاً بعيداً بدأ يغني .

وصويلح حين يغني ينتزع الاحشاء . لقد سمعه مرات كثيرة ، لكن هذه المرة ، وهما في طريقهما من روضة المشتى الى عجرة ، غنى بطريقة لم يعهدها فيه . كان يصعد وينزل كما لو ان حمامة وصقراً يتحاوران . كان صوته يغيب حتى يتلاشى ، ثم فجأة يصرخ ويعلو حتى يصل السماء .

ما كادا يصلان الى الطريق السلطاني ، وعلى مسافة ساعة او ساعتين من عجرة ، حتى شاهدا خيمة ، وما كادا يقتربان اكثر حتى شاهدا جمعاً من الرجال ، ووسطهم كان ابن الراشد .

لما رآهما ابن الراشد تشبث بهما ، لم يتركهما يصلان الى عجرة الا في اليوم الثالث ، فقط لكي يشتريا ما يحتاجان إليه ، لأن « العمل يبدأ من اليوم . . والمعاش يبدأ من اليوم . . ولا يمكن ان ننتظر » .

وبهذه الطريقة ، ومن حيث لم يقدر احد ، ولم ينتظر ، اصطادهما ابن الراشد وذهبا معه الى : حران .

ما كاد ابن الراشد يلتقي بهما في عجرة ، او قبلها بقليل ، حتى قبض عليهما : « جبتوا والله جابكم . انتم قرابتنا ، والواحد ما له الا قرابته وجماعته ، فاذا ما شغّل جماعته ما يصير براسه خير . لازم تروحوا معي الى حران ، رجلي على رجلكم » . نسي كل الكلمات التي قالها قبل شهرين في وادي العيون ، أما حين حاول فواز أن يذكّره ، ان يقول شيئاً ، فقد رد لكي ينهي الموضوع :

ـ الله يلعن الشيطان ، والنبي أدم دائما عجول .

ثم راح يؤكد لهما ان العمل في وادي العيون شاق ولا يلائمهما ، أما في حران ، « وخلال سنة أو سنتين » الواحد يصير عنده كوم من ذهب » . اتبع أساليب شيطانية من أجل اقناعهما ، ورغم الكراهية العميقة والمرارة التي تولدت من رفضه السابق ، وميل فواز الى عدم الموافقة ، الا أن صويلح كان رخواً في امتناعه ، ثم بدا متردداً ، واخيراً وافق اذا ذهب معه فواز ، ولذلك لجأ ابن الراشد الى الاغراء والضغط ، مع الكثير من الوعود ، حتى اضطره للموافقة .

بعد بضعة أيام في عجرة ، وبعد أن جمّع ابن الراشد العدد الذي يحتاج اليه ، بدأوا رحلتهم الى حران ، الى ذلك المكان المجهول الذي لم يسمع به إلا

القليلون ، ولم يصله اي واحد منهم من قبل . توقفوا في الطريق عدة مرات ، سألوا بعض رعاة الابل وشيخاً وجدوه قرب أحد الغدران ، ليتأكدوا انهم يسيرون في الاتجاه الصحيح ، وبعد مسيرة خمسة أيام اشرفوا على البحر .

حيث توقفوا ونظروا ، فوجئوا الى درجة عدم التصديق : مياه . . . مياه لا نهاية لها ، مياه على مدى البصر ، انه البحر ! البحر كالصحراء بامتداده واتساعه ، وبمجرد النظر الى هذه الكمية الهائلة من المياه يُصاب الانسان بالفرح والخوف معاً .

لم يكن أحد ليفكر أو ليحلم أن في مكان من العالم هذا المقدار الهائل المخيف من المياه . من اين أتت ؟ هل جاء بها السيل أو نبعت من باطن الأرض ؟ وأهل الحدرة والروضة وعشرات الأماكن الأخرى ، وراء هذه التلال ، هل يعرفون بوجود هذه الكميات من المياه ؟ والى متى تبقى والى أين تذهب أو تصل ؟

لم يكن اي من الرجال العشرين قد رأى البحر من قبل . لقد ظهرت الدهشة والاستغراب على وجوههم وهم ينظرون ، وفاتهم ان يروا ، من هذا المكان ، قرية صغيرة لا يمكن للعين ان تميزها من هذا البعد . أما حين قال ابن الراشد « حسب وصف الشايب اللي لقيناه امس لازم تكون هذه هي حران »، وأشار بإصبعه ،التفت الجميع الى حيث اشار ، كانت كتلة من البيوت الطينية الواطئة تبدو من بعيد ، وكانت هناك مجموعة من التلال على يمين البيوت وعلى يسارها ، والى مسافات كبيرة ، كما ظهرت بضع أشجار ، لم يستطع احد أن يميز نوعها من هذا البعد .

يصمت أقرب الى الخفاء أو التآمر بدأوا يهبطون التل متجهين الى حيث أشار ابن الراشد .

لأول مرة سمع الرجال باسم حران في عجرة ، والآن ، بعد أن وصلوا ، يرون حران ويعرفون ماذا تكون .

سأل فواز صويلح بتهكم وهما ينيخان ناقتيهما :

ـ هذه هي الشام اللي قلت لي عليها يا ابن خالي ؟

قهقه صويلح وأجاب بسرعة :

ـ اسكت . . الأماكن كلها مثل بعضها . .

وبعد قليل اضاف كأنه يخاطب نفسه :

ـ وهذا المكان أقرب من الشام بكثير .

لم يستغرب اهل حران وصول القافلة ، وكأنهم كانوا على علم سابق بقدومها ، خاصة وان اثنين من رجال ابن الراشد كانا قد سبقا الجميع الى هناك ، وربما زيارات سابقة لآخرين قد تمت قبل وصول هذه القافلة . كان اهل حران مثل أهل وادي العيون ، كرماء ، يحبون المساعدة ، وكانوا يفعلون كل ما يطلب منهم ، الفرق الوحيد أن أهل حران كانوا شديدي الصمت لا يتكلمون الا القليل . . . وحين يسألون فقط .

ومثلما فعل ابن الراشد في وادي العيون فانه جمع رجال حران وبدأ :

ـ ابشروا يا جماعة الخير ، الخير جاءكم ، والله سبحانه وتعالى فتح عليكم أبواب السماء،وإن شاء الله بعد تعبكم وشقاكم ترتاحون . طويل العمر وصى بكم وقال اهل حران ما مثلهم رجال ، نشامة وأجاويد ، وهذه الشركة شركتكم ، جاءت لمصلحتكم ولخدمتكم وهي تريد مساعدتكم ولازم تساعدوها ، أما بخصوص التعويض المستحق لكل منكم فابشروا ان شاء الله ما تكونون الا راضين،الواحد يأخذ حقه وزود . . . .

استراح قليلاً ، نظر في الوجوه بإمعان ثم أضاف بصوت خفيض :

ـ الخويا يصلون بعد كم يوم ونريدكم تبيّضون الوجه وتكونون بالشغل مثل النار وبالطاعة مثل المحبس باليد .

بعد ذلك تشعبت الأحاديث والأسئلة ، وابن الراشد الذي كان في وادي العيون يجد ويسخر ، ويتصرف كأب ، ولا يتردد في مناقشة اي انسان ، بصبر ، اصبح في حران انساناً آخر: كان شديد الثقة بنفسه ،وقد خلت أحاديثه من المزاح ، وبدا جاداً وبعض الأحيان قاسياً . كان يوجه أوامر قصيرة حازمة ، ويتحدث بطريقة يحار الانسان في تفسيرها ، هل هي نتيجة عداء تجاه الآخرين أم نتيجة عدم ثقة . أما حين قال أحد المسنين ان الحياة التي يعيشونها ترضيهم ولا يريدون ان تتغير كما لا يريدون شيئاً آخر ، فقد تطلع ابن الراشد الى الوجوه باهتمام وكأنه يبحث عن ابن

متعب الهذال ، وبعد أن التقت اعينهم للحظة خاطفة قال للرجل المسن :

ـ يا عم بعد كم سنة تقول لنفسك : علواه لو كنت أصغر وأقوى ، لأن الخير الجاي يغرق الدنيا ، وكل واحد لازم يغرف منه نصيبه .

قال الشيخ بيأس وعيناه تطرفان :

ـ أخذنا نصيبنا من هذه الدنيا ، يا ابن أخي ، وانشاء الله حسن الختام !

وبطريقة حازمة لا تتيح أية امكانية لمزيد من النقاش اكد ابن الراشد على ضرورة التعاون مع الشركة ومساعدتها ، وأفهمهم ان البيوت التي يسكنون فيها ستهدم ، لأن المنطقة ستتغير خلال فترة قصيرة ، ثم غرق في اسئلة تفصيلية حول الأماكن المجاورة ، اسمائها والمسافات بينها والطرق اليها ، وما اذا كان يوجد فيها ماء كثير أو قليل .

بعد بضعة أيام وصلت مجموعة من الأميركيين عن طريق البحر ، وبدا انهم كانوا في هذا المكان عدة مرات من قبل ، لأن معرفتهم بالرجل المسن وببعض الآخرين من أهل حران كانت واضحة ، اذ اخذوا يمازحون الرجال ، ويربتون على الأكتاف ، ثم انصرفوا الى أوراق استخرجوها من صناديق كانت معهم ، وبدأوا يكتبون ويخططون ، وقالوا لابن الراشد ، عن طريق المترجم ، ان باخرة ستصل بعد أيام ، وطلبوا اليه ان يستعد العمال للمساعدة في نقل أشياء كثيرة ستصل على الباخرة .

بعد أن وصلت تلك الآلات الجهنمية عن طريق البحر، ولم تكد بضعة أيام تمرّ، حتى بدأ هدم البيوت في حران . واذا كان اهل وادي العيون قد أبدوا استغرابا وصل حدود الدهشة ثم الذهول ، وهم يراقبون وصول تلك الآلات ، ثم عملها، فان اهل حران كانوا اقل انفعالاً . صحيح أن الباخرة التي وقفت بعيداً عن الشاطىء افزعت الجميع ، حتى ابن الراشد نفسه بدا عليه القلق الشديد ، وكان واضح الارتباك عندما سئل عن هذه « البلية » التي تقترب من حران ، وقال لجماعته أو للذين سألوه ،كلمات غير واضحة ولم يكن متأكداً منها . أما الحديث الهامس الذي جرى بينه وبين المترجم ، والذي تخلله الكثير من الاشارات والحركات ، فقد جعله في النهاية موافقاً ، لكن لم تزايله ابداً الدهشة ، وكذلك الرجال الآخرون كانوا شديدي القلق والخوف ، اذ ابتعدوا مسافات كبيرة عن الشاطىء وتركوا المساعدة في انزال الآلات من المراكب الصغيرة التي انزلت بدورها من الباخرة لأهل حران . وحين أراد ابن الراشد ان يحثهم ، ان يقنعهم بضرورة الاقتراب والمساعدة ، وقد حاول شرح كل ذلك بطريقته ، لم يستجب اليه الرجال ، قالوا : « كل شيء

نفعله الا الاقتراب من الماء . . الماء غدار » وقد فهم ما قصدوا اليه ، فلم يلحّ عليهم بعد ذلك ، اذ انشغل بمراقبة كل شيء باهتمام المستطلع الخائف .

شعر اكثر الرجال بألم وحزن وهم يهدمون البيوت الصغيرة الفقيرة ، أما أهل حران الذين رحلوا الى التلال الغربية ، فقد وزعت عليهم الخيام واعطوا مبالغ من المال ، لكي يتدبروا امرهم ، على أن يجري التعويض عليهم في وقت لاحق .

قال صويلح في ذلك المساء ، بعد أن سويت حران مع الأرض :

ـ لو لم نأت نحن لوجد ابن الراشد غيرنا وقاموا بنفس العمل .

وبكثير من البراعة ، وبهدف أن يقنع نفسه قبل أن يقنع أحداً ، اكد ان العمل هو العمل ، سواء في هدم البيوت أو باستخراج الملح أو في اي مجال آخر ، لا فرق ، أما ما ذكره فواز عن رطوبة الجو في حران ، وعدم قدرته على التحمل ، فقد رد عليه برجاء حزين :

ـ الانسان يتعود يا ابن عمتي . إصبر شهر شهرين وبعدها تتعود .

خلال الأيام الأولى فكر عدد من العمال ان يتركوا حران ، ان يعودوا من حيث أتوا ، حالما يتسلمون أجورهم ، لكن الراتب الأول الذي دفعه ابن الراشد غيّر قناعاتهم ومواقفهم ، اذ لم يحلم أحد باستلام مثل هذا الراتب ، ولم يدخل جيب أي منهم مبلغ مثله ، وقد جرى ذلك بطقوس من الصمت والاهتمام كانت أقرب الى الجلال .

ففي عصر الخميس الثالث ، وبشكل مفاجيء ، طلب ابن الراشد من الجميع ان يقفوا صفّاً . كان يقف مزهواً والى جانبه دحام المزعل ، وما كاد الرجال ينتظمون حتى بدأ ينادي عليهم واحداً بعد آخر ، ومن كيس خيش صغير ، كان ينتزع كمية من النقود الفضية ، وبعد أن يتركها تكرج كالسيل من يد الى أخرى ، مع ذلك النغم المنتظم الرنان ، يعدها بمهارة وسرعة ، لفرط ما تعود على ذلك ، ويناولها طالباً من كل واحد أن يعدها مرة أخرى ، بعد أن ينتحي جانباً ، ويشير اليه اين يذهب ، ثم يلتفت الى دحام ويطلب اليه أن يتأكد من شطب الاسم ، حتى اذا هز دحام رأسه اكثر من مرة ، دلالة انه فعل ذلك ، يطلب اليه المناداة على الاسم الذي يليه ، وهكذا الى أن انتهى .

لما أتم ابن الراشد توزيع الرواتب ، وتأكد ان الجميع قاموا بعدّها ، قال ان الراتب سوف يرتفع في الشهور القادمة ، لأن الحسومات التي تقتطع الآن ثمناً للأكل ، سيعاد فيها النظر ، ويترك الخيار لكل واحد ما اذا كان يفضل أكل الشركة أو أن يحضّر اكله بنفسه ،بعد أن يشتري ما يشاء من الدكاكين التي ستقام خلال فترة قريبة .

أوضح ابن الراشد هذه الأمور بأساليب عديدة ، ثم قال وهو يتطلع في الوجوه :

ـ عندنا سالفة ثانية معكم يا جماعة الخير . . .

تطلع اليه الجميع باهتمام :

ـ الاباعر . . من اليوم مالها فائدة هنا .

وخيرّهم بين أن يبيعوها اليه مباشرة أو أن يكلّف واحد منهم فيأخذها الى عجرة ، وهناك ، في السوق ، يمكن ان تباع ، مع تأكيده ان السعر الذي سيدفعه لن يحصل عليه احد في عجرة او في غيرها .

إنها المرة الأولى التي يشعر فيها الرجال انهم يواجهون موقفاً صعباً وخياراً حاسماً ، اذ يطلب منهم ان يتخلوا عن أعز شيء يملكونه ، واذا كان كل واحد منهم قد تعب وركض كثيراً من أجل أن يشتري ناقة أو جملاً ، فانه يعرف انه اذا باع اليوم فقد لا تتاح له فرصة قريبة لأن يشتري بديلاً ، ومعنى ذلك أن يرتبط هنا ، ان يظل وقتاً طويلاً ، وربما الى الأبد .

وفواز الذي حارب وتعب حتى حصل من أبيه على تلك الناقة التي رافقته خلال السنتين الماضيتين ، وكانت شديدة الطاعة والفهم والاستجابة ، وقد بنى عليها آمالاً كباراً ، لا يمكن ان يتركها تذهب لا يعرف لمن أو الى أين ، كان مستعداً لترك العمل والعودة من حيث أتى على ان يستغني عن ناقته . أدرك صويلح ذلك دون ان يقول له أحد ، ودون ان يشير اليه فواز ، فبدا حزيناً ضائعاً ، وفي الليل المتأخر ، بعد أن نام أغلب العمال ، طلب من فواز ان يخرجا الى الفلاة ، لأن النوم لا يأتيه ، ولأنه يريد أن يتحدث معه .

في هدوء الليل ، في هذا المكان الذي لم يعد له اسم ، بعد أن هدمت البيوت

وزالت تل العالم ، كان صويلح يريد أن يقول أشياء كثيرة ، ان يتكلم دون توقف ، لكن بدا مرتبكاً متردداً ، وفجأة استعاض عن الكلمات التي كانت تملأ صدره بالغناء .

غنى غناء حزيناً اقرب الى النجوى ، كان يغني وطفة ، يريد أن يطير اليها ، ان يراها ولو لثانية واحدة ، ان يسمع منها كلمة ، ومن أجل ذلك يمكن ان يتحمل كل شيء ، يمكن أن يتعذب ويسافر ، ويعمل في أي مكان ، حتى إذا جمع المبلغ اللازم فلن يبقيه شيء او أحد ، ولا بد ان يعود الى الحدرة .

بعد ان غنى قال كأنه يحدث نفسه :

ـ كبدي محروق، والله بلاني ، ولازم ، يا ابن عمتي ، تساعدني !

كانت كلماته أقرب الى التوسل ، كان يريد من فواز ان يبقى ، ان يتحمل كل شيء ، حتى اذا كانا قادرين على العودة عادا فوراً ، ولذلك ، لا يمكن ان يربط الانسان مصيره بناقة ، عليهما ان يوافقا على عرض ابن الراشد .ان يبيعا الناقتين دون تردد ، فاذا حان وقت عودتهما الى الحدرة يمكن ان يشتريا مطايا جديدة من أي مكان .

لما تكلم صويلح بهذه الطريقة أحس فواز أنه ذهب بعيداً ، وانه من أجل وطفة ، من أجل تأمين مبلغ معين ، مستعد ان يفعل اي شيء ، إن يتخل عن كل شيء . رد في لحظة من لحظات الغضب والانفعال :

ـ هذا المكان ما يفيدني ولازم امشي .

هل نظر اليه صويلح في الظلمة ؟ هل أطلق زفرة او اثنتين ؟ هل تصرف بطريقة أوحت اليه أنه يتخل عن إنسان او انه يقتل انسانا ؟ لا بد أنه فعل شيئاً من ذلك ، لأنه وجد نفسه فجأة اكثر استعداداً لكي يقف معه . صحيح أنه لم يقل ذلك مباشرة ، ولم يصدر عنه أي تصرف يوحي بهذه الموافقة ، لكن شعر بانقباض وقهر ، وشعر اكثر من ذلك انه وحيد في هذا المكان الغريب النائي . حتى صويلح ، أقرب الناس اليه ، أكثر الناس فهماً له لا يهمه سوى تأمين مبلغ من المال لكي يعود ويتزوج . فاذا كان كذلك فيمكن لابن الراشد ان يفعل أي شيء .

في اليوم التالي ، ودون نقاش أو مساومات ، سلما ، مع الآخرين ، جمليهما

لابن الراشد ، فدفع لهم اثمانها ، وقال وهو يتطلع في وجوههم

ـ . . . وهالحين ما عاد عندكم همّ ، خلصناكم من المطايا وهمها .

ولم يتكلم احد ، اذ انصرفوا الى التفكير في كيفية حفظ النقود الفضية في أمكنة امينة لكي لا تسرق ولا تضيع ، وبعد تفكير طويل وتردد رأى الكثيرون ان افضل الأمكنة وأكثرها امناً ان يودعوها مرة أخرى عند ابن الراشد !

وادي العيون ، عجرة ، الرحبة ، روضة المشتى ، الحدرة ، وغيرها الكثير من القرى والبلدات والدساكر فالطرق تأتي منها القوافل والأخبار ، الناس يعرفون هذه الطرق ، يراقبونها ، ينتظرون أن يأتي القادمون منها ؛ حتى أم الخوش حين كانت تنتظر ، وبعد أن تتعب من السؤال والبحث ، كانت تنتظر في الظهرة ، على كثيب لا تغيره أبداً ، لأنه يشرف على الطريق ويكشفها لمسافات بعيدة ، وفي الروضة كانت الآبار في محل مرتفع قليلاً ، وهناك كانت القوافل تصل ، وكان الناس ينتظرون ، حتى عجرة التي تصب فيها الطرق من أنحاء متعددة كان الطريق السلطاني هو « الطريق » بنظر الناس إذا سئلوا ، إذا انتظروا ، وما عداه ليس إلا مسالك تقود اليه بالضرورة .

هكذا هو الحال بالنسبة لمعظم الأماكن في الدنيا ، أما أن تتعلق العيون بهذه المياه الرجراجة ، أن لا تتوقف عن النظر باتجاه البحر ، إذ من هناك سيأتي الرجال والقوافل والأخبار ، فأمر لم يألفه الكثيرون ، لكن هكذا كان الحال في حران .

البادية من الجهة الثانية أصبحت أغلب الأحيان صماء مقفرة ، لا يأتي منها شيء أو أحد إلا نادراً ، حتى الطعام الذي يقدمه ابن الراشد للعمال ، بدل أن يبعث من

يأتي به من عجرة ، أوصى عليه وبدأت تأتي به المراكب من أماكن عديدة . أما البدو الذين رفضوا في الأيام الأولى الاقتراب من البحر أو المشاركة في إنزال الأشياء من المراكب الصغيرة ، فما لبثوا أن أُخذوا باللعبة ، بدت لهم طريقة مثيرة وفيها مقدار من المجازفة ، ولذلك لم يترددوا طويلاً حتى اقتربوا من البحر . فعلوا ذلك على مراحل متعددة وبنوع من الاختبار الأقرب الى السرية . كان الواحد منهم يقترب اقتراباً حذراً بطيئاً ، يمشي بموازاة الماء مدة طويلة ، محافظاً على مسافة لا يغيرها ، حتى إذا اطمأن بعض الشيء خطا بسرعة وبخفة قط راسماً خطاً منكسراً مقترباً من الماء الى أقصى حد ثم مبتعداً مرة أخرى وبنفس السرعة . فعل الكثيرون ذلك مرات لا حصر لها . جلسوا على الشاطىء ، تأملوا المياه بامعان وغرقوا في التفكير ، وحين رأوا أهل حران ، الصغار منهم والكبار ، وهم يخوضون في الماء ، يركبونه بتلك السهولة كما لو أنهم يمشون على الأرض ، عجبوا أشد العجب ، حسدوهم لأنهم قادرون على ذلك ، تمنوا في أعماقهم لو كانوا يستطيعون مثلهم ، لكن الخوف لم يزايلهم أبداً لأن « الماء غدار يبلع ولا يشبع » .

في وقت متأخر بدأوا يخوضون في المياه الضحلة . بدت شديدة الاغراء وهي تداعب أرجلهم ببرودتها وكثافتها ، واصبحوا ، مع مرور الوقت ، لا يترددون في أن يستحموا في البحر ؛ كانوا يقرفصون على الشاطىء تماماً، المياه تغمر أرجلهم وترتفع حتى منتصف الساق ، وبأيديهم أو بطاسات معدنية يغرفون ويسفحون الماء على رؤوسهم وأجسادهم ، فاذا جاءت موجة صغيرة فزعوا ، نهضوا بخوف وتراكضوا متطلعين حولهم خشية أن تفترسهم هذه الوحوش الماكرة .

بين هذه المجموعة من البدو أخوان : مزبان وهاجم ، وحدهما كانا يعرفان السباحة ، تعلما في بئر في قريتهما . كانا أكثر الجميع فرحاً بالماء ، ولم يترددا في أن يساعدا أهل حران ، وينزلا الى البحر بمجرد أن طلب منهما ابن الراشد ، بل وكانا يقضيان وقتاً طويلاً في مرح طفولي وهما يتسابقان ، وهذان الأخوان أبديا استعداداً وحماسة لأن يعلما الآخرين السباحة ، وكانا يؤكدان أن السباحة عملية سهلة يمكن للانسان أن يتعلمها في يوم واحد . . إذا أراد ، لكن لم يستطيعا إقناع أحد .

والآخرون يسمعون ، يراقبون ، يبدون إعجابهم ، وبعض الأحيان يتظاهرون بالتصديق ، لكنهم لم يكونوا مستعدين لأن يدخلوا في هذه التجربة الخطيرة ، لأن

البحر الذي يرونه أمامهم بلا نهاية ، والذي يحمل هذه « البلايا » ويحركها رغم ضخامتها ، ثم القصص التي بدأت تروى عن مراكب كبيرة ، وعلى ظهرها مئات الناس ، كيف إبتلعها البحر في لمح البصر ولم يبق منها أي أثر ، خلق في نفوسهم نوعاً من التهيب يصل حدود الفزع .

وإذا كانت الأشياء الجديدة ، من ظواهر أو أماكن ، تثير في الانسان الرغبة في الاكتشاف ، وتخلق لديه تحريضاً لا يمكن أن يقاومه طويلاً ، فإن البحر ، خاصة لمن لم يره من قبل ، يثير تساؤلاً مستمراً ويولد مخاوف لا يمكن التغلب عليها ، فاذا ترافق ذلك مع القصص التي تروى وتلك التي يخترعها الخيال فان التساؤل عندئذٍ يصبح دون أجابة . إذ رغم الساعات الطويلة التي يقضيها كل واحد متأملاً غارقاً في افكار لا نهاية لها ، فإن الغموض يزداد يوماً بعد آخر : من أين أتت هذه المياه كلها ؟ ولماذا تكون في هذا المكان ولا تكون في الأماكن الأخرى حيث يحتاجها الناس ؟ وإذا كانت مياه المطر والغدران والآبار حلوة مستساغة ، أو حتى لو كانت مالحة بعض الشيء يمكن أن تشرب ، فكيف أصبحت مياه البحر شديدة الملوحة والمرار ولا يمكن لأحد أن يشربها ؟

الذين جاءوا من الداخل ، من أعماق الصحراء ، تاهوا في دوامة التفكير والحيرة . بدوا شديدي القلق والخوف ، وزاد الخوف وتعاظم حين اشترى ابن الراشد الجمال كلها . شعروا أنهم يواجهون حالة من العجز الكامل ، وأنهم في هذا المكان المعزول عن العالم ، والذي فقد حتى اسمه ، مجموعة من الرجال المحاصرين لا يعرفون ماذا يجب أن يعملوا وماذا ستكون عليه الحياة في الأيام التالية ، ولذلك استبدّ بهم القلق وانتابتهم الوساوس ، حتى الرغبة في الأكل لم يعودوا يشعرون بها . عزوا ذلك الى نوعية الطعام الذي يقدمه ابن الراشد ، وأكد آخرون أن رائحة البحر ، والتي تملأ الانسان بالضيق ، تجعله غير قادر على الأكل . وفسر غيرهم الأمر بأن الاميركان ورائحتهم ورائحة البلايا التي جاءوا بها تقطع نَفَس الكلب ، ولذلك لا يجدون في أنفسهم حتى مجرد الرغبة في الاقتراب من الطعام .

حين بلغت الحالة بالرجال هذا الحد لم يستطع ابن الراشد ان يتهرب أو أن يؤجل ، فقد مرض بعض الرجال ، وجاءه آخرون طالبين استعادة جمالهم ، لأنهم ينوون الرحيل والعودة من حيث أتوا ، فبدا غاضباً عصبياً أول الأمر ، ثم ما لبث أن

طلب من الجميع التحمل والصبر ، وأن يمهلوه بعض الوقت ، فقط ليصل الى عجرة ويعود ، فإذا عاد فسوف يستجيب لكل ما يطلبون : أن يطبخوا بأنفسهم ، أن يطبخ واحد منهم ويأكل الجميع . . فقط ليمهلوه ريثما يذهب ويعود ، أو مسافة الطريق كما قال ، وحتى ذلك الوقت أمر أن تزاد كمية اللحم والرز .

المراكب لا تهدأ ولا تنقطع ، مراكب صغيرة وأخرى بحجم الجبال ، ومن هذه المراكب تنزل أشياء وأشياء لا يدري أحد ما هي أو لماذا ! ومع الاحمال التي تتراكم وتزداد كل يوم يأتي رجال لا يعرف أحد من أين أتوا أو ماذا سيفعلون . كانوا ينشغلون ساعات في إنزال الاحمال الثقيلة ، كانوا يشدونها بحبال قوية ثم يرفعونها حتى تصبح أعلى من المراكب . من يرفعها ؟ كيف ترفع ؟ كانت الدهشة تستبدّ بكل الناس وهم يراقبون بخوف هذه الصناديق الضخمة ترتفع في الهواء ، دون أن يروا أحداً يرفعها ، وحتى الرجل الذي كان على ظهر المركب ، وبيد واحدة يدفع هذه الصناديق الهائلة ويحركها من جهة الى اخرى ، بدا للواقفين على الشاطىء ، إنساناً أقرب الى العفاريت . أما حين سماه دحام المزعل بالعفريت فقد وجد الجميع أن هذه التسمية تلائمه تماماً ! كانت العيون تتابعه باهتمام ، تراقب كل حركة من حركاته وكل تصرف من تصرفاته ، فلما نزل الى الشاطىء كانت العيون لا تتركه لحظة واحدة ، كيف وقف ، كيف حرك يديه ، وكيف نظر الى الذين كانوا حوله . أما حين نزع ثيابه ولم يبق الا قطعة صغيرة تستر عورته ، ثم رمى نفسه في الماء ، فقد تراجع الكثيرون . خافوا أن يكون لنزوله قوة خارقة تشابه قوته حين كان على ظهر الباخرة ، بل وتأكدوا ، وهو يرفع يداً ويضرب الماء ، أن الماء لا بد وأن يرتفع ويرتفع حتى يغطي اليابسة والى مسافة كبيرة ، وقد حمدوا الله كثيراً لما اتجه من الشاطىء الى داخل البحر ، إذ لو فعل العكس فلا بد ان تقع المصيبة ، ولما اقترب من الباخرة التي كان عليها قال دحام المزعل :

ـ ابن الحرام حرك البابور كله ويمكن يقلبه .

ظل بجانب الباخرة وقتاً ليس قصيراً ، ولما بدأ من جديد يتجه الى الشاطىء طلب دحام من الجميع أن يبتعدوا وأن يظلوا شديدي الانتباه والحذر « لأن من يقدر على تحريك بلية مثل الجبل لا يمكن لاحد ان يقف في وجهه » . وحين وصل الى الشاطىء وتمدد على الرمل راقبه الجميع بانتباه وظلوا بعيدين أيضا ، إذ يمكن أن

ينهض هذا الوحش في أية لحظة ، وقد يتصرف كالوحوش أيضاً ، إذا لم تعجبه النظرات أو حتى أشكال البشر ؛ أما حين اقترب منه نعيم ، المترجم ، وبدأ يتحدثان ويضحكان ، ثم كيف نزل نعيم الى البحر وبدأ يغرف الماء بيديه الاثنتين ويلقي به على هذا العفريت ، وهو في مكانه يتقي ويصرخ ، إلى أن بلغ احتماله حداً معيناً فقام راكضاً نحو نعيم ، وما كاد يخوض في الماء مسافة أربعة أو خمسة أمتار حتى سقط ، قام من جديد ، وبغضب حاول اللحاق بنعيم ، لكن الأخير كان قد ابتعد ، وظلت المحاولة مستمرة والجمع يراقب مقطوع الأنفاس منتظراً ، إلى أن اختفى الاثنان وراء الباخرة من الناحية الثانية .

كان كل شيء عجيباً في هذا المكان النائي ، وإذا كان وصول البواخر وعليها عشرات الاشياء يشغل الناس ويدفعهم الى العمل ، فان دحام ، وهو يحث الرجال ، لم يكن يكتفي بالصراخ والالحاح ، كان فمه يمتلىء بالشتائم ، يوجهها الى أولئك الذين يبدون أكثر فقراً أو أصغر سناً ، أو لأولئك الغرباء الذين جاءوا من أمكنة بعيدة ، في محاولة لأن يجبر الجميع على العمل بهمة لا تعرف التوقف أو التردد .

رغم وصول البواخر وما يخلقه من اهتمام ورغبة في الاستطلاع، ثم ما يتبع ذلك من تعب يهد الرجال ، ويجعلهم غير قادرين على الحركة أو حتى مجرد الحديث النشيط ، فإن حالة من الحزن كانت تطغى على الجميع من هبوط الليل ، وكانت هذه الحالة تزداد وتتكاثف مع تناقص حركة البشر ثم انقطاعها ، ومع ارتفاع صوت البحر وتلك الرياح التي تهب فجأة . كان الرجال يغرقون في الصمت وشعور المرارة يخيم عليهم تماماً ، خاصة وأن كثيراً من الأسئلة التي يستطيع الانسان الاجابة عنها في أماكن أخرى ، لا تجد هنا جواباً ، إذ لا يعرفون الى متى سيبقون وكيف ستكون حياتهم في الأيام القادمة ، في هذا المكان النائي الذي وجدوا أنفسهم فيه .

ففي هذا المنخفض من الأرض ، حيث كانت مجموعة بيوت طينية فقيرة ، قريباً من البحر ، تتشكل الطبيعة على نحوٍ لا تماثله أمكنة أخرى ، ففي جانب يمتد رأس صخري طويل داخل البحر ، وفي جانب آخر يتكون خليج ضحل المياه شديد التعرج ، حتى إذا امتد الى مسافة معينة انفتح البحر واتسع ، وبدل الصخور الكبيرة القاسية يصبح الشاطىء رملياً ، وخلف هذا مجموعة من التلال ، متفاوتة

الارتفاع ، وبعد ذلك تبدأ الصحراء .

في هذا المنخفض ، والذي يشبه حضن الأم ، وفي نقطة التقاء المياه باليابسة ، وعلى مسافة كافية من البحر ، لتجنب المد والجزر أو غضب الطبيعة الذي يهب فجأة ودون توقع ، تكونت في يوم من الأيام تلك القرية الصغيرة ، والتي سمّت نفسها ، أو سماها أحد الغرباء العابرين : « حران » . كانت أكثر حرارة وأكثر رطوبة من الأمكنة الأخرى ، ربما لأن الرياح الشرقية ، التي كثيراً ما تصل الى الأماكن الأخرى ، لا تصلها بنفس القوة أو بنفس المقدار ، إذ تتكسر هذه الرياح حين تصطدم بالرأس الناتىء أو حين تلتف حوله . ورياح الصحراء ، التي تكون طرية ناعمة في أوقات معينة من السنة ، تجتاز حران مارة فوقها دون أن تتوقف . أما حين تهب العواصف وتحمل الغبار فان نصيب حران من هذا الغبار الكثير ، إذ تسفّ التلال التي حولها كميات هائلة من الرمال ، وقبل أن تصل البحر وتصطدم بالمياه يتساقط القسم الأكبر على أطراف الخليج .

حران في الصيف هي الجحيم بذاته : يسكن الهواء تماماً ، وتبدو السماء قريبة ثقيلة وكأنها قبة من رصاص ، كما يتشبع الجو برطوبة كثيفة ، فيصبح التنفس صعباً وتصبح الأجسام ثقيلة لزجة ، فتنزّ عرقاً دون توقف . أما الملابس فانها تتحول الى عبء لفرط البلل وتلك الرائحة التي تولدها الأجسام . وفي مثل هذا الجو يصاب الانسان بالعجز والتعب ، حتى الجسد يصبح الاحساس بكل عضو منه إحساساً منفصلاً . كما لو أنه رُكِّبَ من مجموعة أعضاء دون تناسق ودون لحمة تشدها بعضها إلى بعض .

وإذا كانت الأماكن الأخرى المشابهة تصبح مقبولة في الليل ، فان ليل حران لا يختلف عن نهارها ؛ فما تكاد الشمس تغيب حتى تنعقد في الجو كتلة هائلة من غيوم خفيفة ، وهذه الغيوم تجعل الرؤية محدودة والتنفس عسيراً . أما تلك البرودة التي تأتي من غياب الشمس فانها هنا تصبح مثل الالحفة الرطبة الثقيلة ، لا يعرف الانسان هل الأفضل أن يحتمي بها أو ان ينزعها ، وتظل الحرارة الممزوجة بالملوحة هكذا الى ما قبل شروق الشمس بساعة أو ساعتين ، وفي هذه الفترة القصيرة فقط يمكن للانسان أن يتنفس ملء رئتيه ويشعر ببعض الراحة انتظاراً ليوم قاس آخر .

هكذا تكون الطبيعة وهكذا يكون الطقس معظم أيام السنة ، عدا فصل

الشتاء ، ففي هذا الفصل ، والذي يمتد ثلاثة شهور تقريباً ، ترقّ الطبيعة حتى لتصبح خفيّة متوارية وأشبه ما تكون بالطيف ، فلا يحس الانسان بالحرارة أو البرودة ، وتنعدم الرطوبة أو تكاد ، ويصفو الجو عدا أيام قليلة حين يتساقط المطر غزيراً قوياً ، لكن هذا لا يدوم الا ساعات قليلة ، وبعد ذلك تهب على حران من الصحراء رياح مفعمة بالطيب ورائحة الأرض ، والأعشاب النادرة ، فتخلق في الأجسام قوة وتذكراً حاداً .

من أجل هذه الأيام أو لانتظارها عاشت مجموعة منسية من البشر ، عاشت من الصيد ومن المساعدات التي تأتيها من المسافرين ، معتمدة على مراكب صغيرة لا تذهب مسافات بعيدة داخل البحر . كانت صلة حران بالعالم محدودة ، لكنها غريبة ومتفجرة ايضاً ، إذ رغم أنها لا تعرف الا طريقين أو ثلاثاً في رحلاتها القصيرة المتباعدة من أجل تأمين حاجاتها القليلة ، فكثيراً ما يستبد الهوس ببعض الرجال وتغريهم نداءات البحر الغامضة المثيرة ، وعندئذٍ يجرون بمراكبهم الصغيرة الى أن يصلوا ذلك الميناء الذي لا يبعد سوى يومين ، يصلون إلى « منال » ، فاذا عاكستهم الريح أو ضربتهم الأمواج القوية فانهم قد يتأخرون يوماً أو يومين في الوصول ، أما إذا كانت الريح أقوى من احتمالهم فلا بد عندئذٍ من أن يعودوا ، انتظاراً لوقت آخر . حين تواتي الريح ويصلون الى منال يتصرفون كالمجانين . أكثرهم يبيعون مراكبهم ويواصلون سفراً طويلاً مجهولاً على واحدة من تلك السفن التي تكون عادة في الميناء . وفي هذه الأسفار يعملون ويعيشون ويغنون ويتذكرون ، وقد تمر سنوات قبل أن يعود الكثيرون ، فاذا عادوا الى حران كانوا يحملون معهم من الأماكن الأخرى القصص والذكريات أكثر مما يحملون الأموال والأشياء ، ويعيشون على ما حملوا سنة أو اثنتين ، ويرجعون الى الصيد وحياة حران ، فاذا ملّوا أو لم يعودوا قادرين على التحمل عاودوا الرحلة مرة اخرى . لقد فعل ذلك عدد من الرجال ، وهذا التصرف الذي يحزن النسوة والصغار ، لم يكن موضع احتجاج المسنين ، لأن في حران شيئاً يجعل الانسان يتصرف بهذه الطريقة ، حتى المسنون الذين استقروا ، ولم تعد نداءات البحر تغريهم أو تحملهم على اتخاذ قرارات مجنونة ، فانهم عاشوا في أيام سابقة حالة ارغمتهم على السفر والإبحار باتجاه منال ثم ما بعدها .

ومثلما كانت نداءات البحر قوية مثيرة تحمل عدداً من الرجال باتجاه منال ،

كانت نداءات الأرض وراء حران لا تقل إغراء وجاذبية بالنسبة لآخرين ، فالرجال الذين دخلوا الصحراء ، فوصلوا عجرة ، ثم أخذوا الطريق السلطاني وسافروا بعيداً. انقطعت أخبار بعضهم فترات طويلة ، لكن ما لبثت الأخبار أن جاءت ورجع بعض الذين سافروا . وإذا كان مسافرو البحر يعودون بالقصص اغلب الأحيان ، فان الذين اخذوا الطريق السلطاني كانوا يعودون بقصص أقل ، وتشبه تلك التي يصادفها المسافرون في كل مكان ، ويستعيضون عنها بأشياء كثيرة حملوها معهم ، وبدا أن الطريق السلطاني أكثر خيراً وخصباً بالنسبة لأغلب الذين سافروا . والذين لم يعودوا ، أو طالت أسفارهم أكثر مما قدروا لم ينسوا حران ، كانوا يبعثون لمن فيها كل ما يستطيعون ، كانت تصل الأرزاق والدراهم والرسائل ، مع تأكيدات لا تنقطع أنهم سيعودون في فترة قادمة .

لهذه الأسباب كانت تعيش حران وتنتظر . كانت تحتمل كل هذه القسوة انتظاراً لأيام الشتاء ، حتى الناس فيها اذا تذكروا أيام الشتاء بدوا أكثر قوة وأكثر تفاؤلاً ، ولا يتردد بعض المسنين في التأكيد أن جو حران أفضل من أماكن أخرى كثيرة !

فان زادت الرطوبة عن حد معين واثقلت الحرارة المصحوبة برياح غربية الجو بطبقة من الغبار الكثيف ، وأصبح الناس غير قادرين على الاحتمال ، فلا بد أن تكون صور أبنائهم المسافرين هي التي تثبتهم في هذا المكان النائي من العالم وتجعلهم يصبرون ويحتملون ... وينتظرون .

هذه هي حران منذ ان قامت في هذه البقعة من الارض ، وهكذا كانت حين وصلها ابن الراشد ورجاله ، أما رجال الشركة ، الذين زاروا اماكن كثيرة قبل حران ، فقد استقر رأيهم على اختيارها لتكون مدينة وميناء ومقراً للشركة ، ولتكون مدينة اللعنة والنهاية . . ايضاً !

اذ ما كادت البواخر تصل واحدة بعد اخرى ، وما كادتْ تتكدس الصناديق الكبيرة باعداد تتزايد مع وصول كل باخرة جديدة ، حتى سيِّجت رقعة كبيرة من الارض بأسلاك شائكة ، وكانت هذه الارض تبدأ من وسط الخليج وتمتد باتجاه الشرق والشمال حتى تصل التلال البعيدة . وطُلب من ابن الراشد ورجاله ان يكونوا في الجهة الاخرى من حران ، وعلى مسافة لا تقل عن الف متر من الاسلاك . وخلال فترة قصيرة ، وبعد وصول عدد من الرجال الغرباء ، في مركب مختلف عن المراكب التي وصلت الى حران من قبل ، بدأت حركة لا تعرف التوقف او البطء ، حركة اقرب الى الجنون او السحر ، حيث يتراكض الرجال من مكان الى آخر ، وتتراكض معهم تلك الآلات الصفراء العاتية التي ترفع التلال ، وتردم البحر ، وتدك الارض ، تفعل ذلك دون توقف ودون رحمة ، ورجال ابن الراشد الذين جُمعوا بعد ايام من وصولهم وقسموا الى مجموعات صغيرة ، كل مجموعة من

ثلاثة الى اربعة رجال ، فانهم وسط الركض المجنون والآلات التي تهدر وتتحرك كالجمال الهائجة ، كانوا شديدي الحيرة والارتباك ، لا يعرفون على اي وجه يمكن ان يساعدوا وان يكونوا مفيدين . كانوا يحملون الالواح الخشبية ، قضبان الحديد ، العوارض الاسمنتية، كانوا يفعلون ذلك لكن بخوف وارتياب كثيراً ما اديا الى وقوعهم ، الى اصطدامهم بالصناديق ، او الى وقوع الاشياء .

كان الاميركيون ينظرون الى وجوه الرجال بتساؤ ل محايد ، حين كان نعيم يحدد لهم ما يجب ان يعملوا ، لكن هذا الحياد ما لبث ان تحول الى نوع من الدهشة حين بدأ هؤلاء الرجال يتحركون وينتقلون من مكان الى آخر حاملين الالواح والقضبان ، تحولت الدهشة الى قهقهة وإشارات لما اصطدم بعض العمال بالصناديق ، وحين وقع واحد منهم ؛وهذه الضحكات العالية المصحوبة بالاشارات ولَّدت خوفاً ومرارة في نفس الوقت ، وزادت في وقوع الاخطاء ، الامر الذي ادى باحد الاميركيين ، وكان يتنقل بين المجموعات ويراقب الجميع ، الى الطلب من نعيم ان يصرف العمال العرب في وقت مبكر .

كان العمال وهم يعودون الى المكان الذي خصص لهم في الجهة الغربية ، يمشون مثل قطيع ، ورغم الشمس التي كانت تنصبّ كشلال غزير من السماء ، الا ان حالة من السواد غشيت عيونهم وقلوبهم . كانت حلوقهم جافة وفيها تلك المرارة التي تجعل لكل شيء طعم العلقم ، كما انتابتهم حالة من التعب جعلت الخطوات قصيرة والصمت كاملاً . كانوا يريدون ان يصلوا باسرع وقت الى خيامهم ، ان يلقوا باجسادهم على الارض ، ان يغيبوا في نوم عميق لكي لا يعودوا الى تذكر او استعادة تلك الحركات البلهاء والابتسامات الساخرة والنظرات التي كانت تلاحقهم وتراقبهم في كل خطوة من خطواتهم .

ودحام الذي كان في الصباح الباكر مثل ديك ، وهو يمشي بين العمال، اذ كان يتحرك حركة نشيطة زائدة ، لم يستطع ان يفهم لماذا طلب اليه ان يأخذ العمال ويعود في هذا الوقت بالذات ؟

انه الآن يسير باتجاه الخيام في الجهة الغربية مثل الآخرين : صامتاً حائراً ، بل ويبدو مليئاً بالقهر . قال في نفسه « لو كان ابن الراشد موجوداً لما دخل لسانه الى حلقه ، ولخلق لنا الف مشكلة ! »

واذا كانت عادة دحام ان يتدخل في كل الامور ، ان يتكلم كثيراً ، ولا يتردد في ان يشتم ، فقد كان يريد ان يصل قبل الرجال ، ان يتوارى ، لان الخطأ ، اذا كان هناك خطأ من نوع ما ، لا بد ان يكون مسؤولاً عنه . لو استطاع ان ينقل الى الرجال التعليمات بدقة ، ان يفهمهم ما يجب ان يعملوا لسارت الامور بشكل افضل ، » ونعيم لماذا صوته منخفض هكذا ويشبه صوت النساء ؟ لماذا لا يتكلم بطريقة اخرى ؟ » وشعر بحقد تجاهه . إنه المسؤول الوحيد عن الاخطاء ، إنه يقول الاشياء في اللحظة الأخيرة وبتلك الطريقة الرخوة غير المفهومة .

حين دخل صويلح وفواز الى الخيمة كان هاجم ومزبان قد سبقاهما ، لم يستطيعا ان يميزا شيئاً خلال اللحظات الاولى ، خاصة وان الصمت كان مخيماً . أما حين الفت عيونهم الظلمة الحقيقة ، بالمقارنة مع الوهج خارجها ، فقد قال مزبان كأنه يخاطب نفسه :

ـ الله كتب لي عمراً جديداً .. اليوم .

سكت قليلاً ثم أضاف :

ـ ولولا الأسود اللي لجم البلية لطاحت بعظامي .

كان معظم العمال قد رأى كيف كادت تلك الآلة الجهنمية الصفراء تسحق مزبان ، خاصة بعد تلك الصرخة التي ندّت عن الاسود الذي كان يسوقها ، ولفتت نظر الموجودين كلهم ، فقد كان يروق لكل واحد منهم ان يسمع من جديد ، ان يستعيد تلك التجربة المريرة ويفهم لماذا حصلت وكيف .

ومزبان الذي روى من جديد « القصة » بصوت خافت ومتعب ، وبدا حزيناً وسعيداً في وقت واحد ، لم يستطع ان يفسر ما حدث . كان بعيداً عن تلك « البلية » . كان يحمل لوحاً من الخشب ، وفجأة وجد نفسه وجهاً لوجه امامها . لماذا لم يسمع صوتها الذي كان يصم الآذان ؟ لماذا لم يرها تقترب منه وهي بهذا الحجم الذي لم ير مثله من قبل ؟

وبكثير من الحنق ، الذي تخللته الشتائم ، بدأ صوت صويلح يهدر :

ـ اولاد الحرام يتراكضون مثل العفاريت . الواحد منهم ظرف ويتدعبل من هنا من هنا ما تعرف وين رايح ومنين جاي . وهذه البلايا تتراكض ، تتناطح ، تشب

فوق بعضها ، فوق الناس وصوتها يهدر ويصمّ .

زفر بحرقة واضاف بصوت حزين :

ـ منين جاءت هذه البلايا وكيف نقدر عليها ؟

قال هاجم بحدة :

ـ الله يلعن اليوم اللي رافقنا ابن الراشد ووصلنا الى حران .

وضحك بسخرية . تطلع الى الوجوه وقال بلهجة مختلفة :

ـ هذه البلايا اذا ما قتلتنا اليوم تقتلنا باكر .

وغرقوا في الصمت من جديد، احسوا ان حالة من القهر تفتك بهم ، وان الأيام الصعبة ، الايام السوداء ، ليست تلك التي مرت ، وانما هي التي ستأتي . واحسوا أيضاً ان ابن الراشد لم يخدعهم فقط وإنما وضعهم في حالة لا يستطيعون معها أن يتحركوا ، ان يتصرفوا بحرية ، وها هو قد سافر وتركهم في هذا المكان الملعون ، ومع هؤلاء البشر الذين لا يفهمون شيئاً منهم ، ولا يعرفون كيف يتصرفون او ماذا يفعلون .

أما حين نادى حميدي داعياً الجميع الى الغداء فقد قال صويلح بسخرية :

ـ من له خبزة في هذي الدنيا لا بد ياكلها .

ولما ظل فواز في مكانه لا يتحرك ولا يجد في نفسه رغبة للاكل ، فقد قال صويلح مخاطباً الجميع :

ـ الله يلعن الاميركان وابو الاميركان ... جاءوا وجاء معهم كل البلاء .

• • •

بين العصر والغروب من ذلك اليوم جاء نعيم ، جاء على غير توقع ، رغم ان احساساً غامضاً راود الجميع بان شيئاً ما لا بد ان يحصل .

الرجال في ظلال الخيام او الى جانبها يجلسون في تلك العصرية . كانوا يفكرون ويسافرون ، ينظرون الى البحر والى التلال القريبة ، يحتسون الشاي ، بعد ان برد ، على غير عادتهم .

بدا من بعيد مثل شبح اسود لكنه لم يلفت نظر احد . انه واحد من المعسكر الآخر ، وبشر المعسكر الآخر ، كعادتهم كل يوم ، يفعلون اشياء غريبة : يهرولون ، يسبحون ، يتلاحقون كالكلاب ، يتهارشون كالاطفال ، بكلمة انهم

يفعلون كل شيء لا يخطر ببال ، أما وهو يتحرك ، وظله يمتد خلفه ، ويقترب خطوة بعد اخرى من معسكر العمال ، ومثلما كانوا يفعلون دائماً ، فقد تراهنوا : من يكون ؟ ودون تردد كبير خرج اكثر من صوت : الشعيرة . . الترجمان .

حتى لما وصل الى مسافة قريبة لم يرفع نعيم رأسه ، كان يمشي ونظره الى الارض ، وكأنه يفكر ، او لا يريد ان يتطلع الى وجوه الرجال ، او لا يريد ان يكتشف انهم يراقبونه ويتابعون خطواته .

ودون تردد ، بعد ان رفع وجهه مرة واحدة فقط ، وتأكد من خيمة دحام ، توجه مباشرة نحوها .

كان دحام قد خصص لنفسه الخيمة الأولى ، لانه يريد ان يكون الاول ، الاقرب في مواجهة معسكرهم ، واقرب ما يكون الى الطريق التي تنزل من جهة التلال الغربية ، طريق عجرة . قال الرجال في نفوسهم : « لدى الرجل سالفة ، وهي التي حملته الى هنا ! » كان كل واحد يفكر ويقدّر الاسباب التي حملت نعيم على المجيء في هذا الغروب ، وانه لا بد ان يكون لها علاقة بعمل اليوم ، خاصة وانه لم يصل الى هذا المعسكر الا مرتين او ثلاثاً ، وبعدما الحّ ابن الراشد عليه كثيراً ، وبعث اليه باكثر من رسول مؤكداً له ان لديه اشياء هامة يريد ان يبلغه بها .

الآن وهو يقطع المسافة مطرقاً مفكراً ، وبعد يوم عصيب ، لا بدّ ان يكون حاملاً رسالة ، اذ ما كاد احد الرجال يراه آتياً ويبلغ دحام بالامر ، حتى خرج هذا الاخير لملاقاته ، خرج مرحباً بصوت عالٍ وبشكل استعراضي مبالغ فيه ، ولذلك ازدادت مخاوف الرجال وتساؤلاتهم ، أما حين دخل الخيمة بسرعة ، دون ان يلتفت ، دون ان يتوقف ، فقد تأكد الجميع ان في الامر خطورة غير عادية .

لما وقف دحام بباب الخيمة ونادى : « فواز . . يا فواز » شعر فواز ، للحظة خاطفة بالاضطراب ، لكن شعور التحدي كان اقوى وكان هو المسيطر ، بدا ذلك شديد الوضوح ، حتى ان صويلح ، الذي كان يجلس مقابله ووجهه نحو البحر ، التفت بانفعال لما سمع النداء ، وحين لاحظ علامات الغضب على وجه فواز قال بطريقة ابوية :

ـ احرص . . اذا غلطوا عليك لا تغلط عليهم .

كان فواز في تلك اللحظة مستعداً لكل شيء ، رغم صغر سنه ، واذا كان قد استطاع ان يفرض نفسه ، وان يتعامل مع الآخرين بطريقة تفرض الاحترام ، فان دحام يتعامل معه بطريقة لا يحظى الكثيرون بمثلها . ربما قال له ابن الراشد ان يتجنبه ، وربما بسبب تلك المسافة التي حرص هو عليها منذ ان كانوا في عجرة وحتى الآن . أما الكلمات التي تبادلها مع دحام خلال الاسابيع الماضية فلم تزد عن تحية او سؤال . . الآن في ظل هذا الغروب ، اي شيء يريد منه دحام بعد ان جاءه الترجمان ؟ ولماذا اختاره بالذات ؟ هل الامر متعلق بخطأ ارتكبه ام بالخطأ الذي وقع فيه مزبان ؟

ان في الامر شيئاً لا يريح ، لكنه رغم ذلك كان مستعداً لمعركة ، لمجابهة اي انسان . لم يلتفت لكلمات صويلح ولم يتطلع الى وجوه الرجال الذين كانوا يجلسون بالقرب من الخيام . وما كاد يصل الخيمة ويحيي دحام حتى قال هذا الأخير بصوت خافت كأنه لا يريد ان يسمعه نعيم :

ـ الترجمان يريدينا نقرأ على رؤوس الجماعة ، نفّهمهم كيف يشتغلون .

ظل نعيم جالساً حين دخل فواز ، وحتى التحية لم يكلف نفسه بالرد عليها . هز رأسه قليلاً ، ونظر الى فواز نظرة اقرب الى العداء ، وكأنه لا يثق به ، وبعد فترة صمت سأل :

ـ اتعرف القراءة والكتابة ؟

هز فواز رأسه دلالة الايجاب . لم يكن حتى هذه اللحظة متأكداً ، ومن جديد سأله :

ـ اين تعلمت ؟

ـ في وادي العيون .

ـ اتوجد مدرسة في وادي العيون ؟

ـ تعلمت عند الشيخ .

كانت عينا نعيم تتفرسان في وجه هذا الفتى ، تراقبان حركاته ، تكتشفان اي انسان يكون . واذا كان فواز قد تعلم الكثير من ابيه ، فان احد الدروس التي اتقنها ، وكثيراً ما كان يُختبر فيها حين كان في وادي العيون ، ان يتطلع الى وجوه الذين يتحدث اليهم ، لان الانسان اذا عجز لسانه تتكلم عيونه ، وربما لم ترق لنعيم

هذه النظرات المحددة الصلبة ، والتي تحمل عداء مقابلاً ، او على الاقل عدم التقدير الذي كان يتوقعه ، سأل بسخرية :

ـ ما هو الشيخ ؟ وماذا تعلمت ؟

ـ الشيخ مناور امام مسجد وادي العيون هو الذي علم الاولاد القراءة والكتابة والحساب !

لا يعرف فواز لماذا شعر نحوه بعداء اكبر ، فالاسئلة لا تحمل اي مقدار من البراءة ، بل هي اقرب الى عدم الثقة والسخرية ، أما طريقته ثم نظراته الرخوة ، وهذا الشكل من الرجال ، الاقرب الى صغر الحجم ، والذي تخرج كلماته من بين اسنانه ، وكأنها تخرج من جسد آخر ، فقد جعله يحس بالكراهية . قال دحام ينقذ الموقف وينهي هذا النقاش العقيم :

ـ فواز يكتب الرسائل للجميع .

رفع نعيم يده في الهواء دلالة عدم الاهتمام او عدم الثقة ، وقال بتعالٍ :

ـ المهم ، انتم ، الاثنين ، تقع عليكم المسؤولية . نحن كتبنا التعليمات التي يجب ان يتقيد بها العمال ، ويجب ان تفهموا هؤلاء البشر .

ومد الى دحام ورقة كبيرة مطبوعة فاستلمها منه بلهفة واحترام . تطلع اليها ، هز رأسه دلالة على الاهتمام الكبير ، تابع نعيم بنفس الطريقة الرخوة :

ـ اولها شرط آخرها سلامة .

قال هذه الكلمات غير الواضحة ، تطلع اليهما متسائلاً ، فظلا صامتين ، اضاف وهو يضحك بسخرية :

ـ غداً لا يأتون الى العمل . غداً تقرأون عليهم هذه التعليمات . تقرأونها مرة .. مائة مرة حتى اذا فهموا تبدأ العمل بعد غدٍ بدون مشاكل ..

وبعد قليل اردف بلهجة حازمة :

ـ غداً قبل الظهر ترسل لنا ثلاثة لاستلام الملابس الجديدة ليلبسها العمال بدل هذه الخرق والبهدلة .

وضرب الفراش ايذاناً ان مهمته اوشكت على الانتهاء ، وسأل :

ـ مفهوم ؟

وبكل الخنوع الذي تعرفه الحيوانات الذليلة الجائعة عبّر دحام عن فهمه المطلق ،

وعن استعداده غير المعهود لكي ينفذ التعليمات بدقة . عبر عن ذلك بالكلمات والحركات وهذا الانفعال المبالغ فيه ، وهو ينقّل نظراته بين الورقة التي ظلت مفتوحة وبين وجه الترجمان .

أما فواز فقد شعر بالانقباض وما يشبه الكراهية لهذا الرجل القصير ، لدحام ، وهو يتذلل بهذه الطريقة ، ثم لهذه المهمة التي لا يعرف كيف وجد انها مفروضة عليه . أما محاولات دحام في ان يستبقي نعيم على العشاء ، فقد قابلها الرجل بابتسامة تحمل معنى الرفض اكثر مما تحمل معنى الاعتذار قال وهو يهز فنجان القهوة دلالة أنه اكتفى ، وكان يقف في باب الخيمة ويتطلع بنظرة واسعة وكأنه يختبر نفسه ويختبر الآخرين . قال كلماته الأخيرة وهو يمشي :

ـ بعد غدٍ سنرى !

خلال اقل من شهر بدأت تنشأ مدينتان : حران العرب وحران الاميركان .

العمال الخائفون المرتبكون ، الذين اثاروا سخرية الاميركان ثم قهقهاتهم في البداية ، هم الذين بنوا المدينتين . هم الذين ثبتوا الالواح الخشبية البيضاء براغي قوية ، وهم الذين حملوا العوارض الحديدية الثقيلة ووضعوها فوق الالواح ثم شدّوا بعضها إلى بعض ، وهم الذين ثبتوا الزجاج وعاكسات الشمس ، ثم قاموا بالطلاء . كانوا بعد كل بضع ساعات ينفضون أيديهم ويتراجعون قليلاً الى الخلف لكي يلقوا نظرة على بيت آخر فرغوا منه . والمهندس الاميركي الذي يشرف ويراقب ، ما ان يفرغ العمال حتى يلقي نظرة ، ثم يختبر الجدران والسقوف باليدين ، بالآلات ، فاذا تأكد من كل شيء ، تطلع الى الوجوه السمراء باعجاب يمازجه الدهشة ، وذات الكلمات تتردد : O.K

لقد حصل هذا مرة بعد اخرى في حران الاميركان ، وخلال أقل من شهر كانت نواة مدينة كبيرة ومنظمة قد بدأت تتوضح وتتكامل : شوارع متصالبة عريضة واخرى ضيقة ، لكن باستقامة حادة ، وكلها دكتها الآلات الملعونة الثقيلة ، ثم فرشت بمواد سوداء لزجة . بيوت تشبه الاوز الذي يمر فوق وادي العيون ايام

الشتاء ، بيوت صغيرة واخرى لا يدري احد من سيسكنها لفرط كبرها واتساعها . عدد من برك السباحة في امكنة متعددة ومتباعدة ، والى جانبها تماماً بيوت من القش وسعف النخيل ، وطريق طويل يربط التل الشمالي الشرقي بالبحر ، وقد وضعت مئات الأنابيب على الطريق وظلت مثل سر لا احد يعرف ماذا ستكون . .

وخلال هذه الفترة لم تتوقف البواخر عن الوصول . كانت تحمل مواد لا يمكن لاحد ان يحزر لاي امر ستُستعمل : حتى بعد ان تفك عنها الصناديق الخشبية وتخرج من الاوراق الخشنة او من العلب ، وينكب عليها واحد او اثنان من الاميركيين ، وتبدو مثل تلال حديدية متألقة ، لا يمكن لاحد ان يقول كلمة واحدة عن هذه « البلايا » الجديدة .

كان العمال العرب ، والذين بدوا مثل الدمى في الأيام الاولى ، بعد ان دكوا اجسادهم الناحلة في الاوفرهولات ووضعوا على رؤوسهم تلك القبعات البيضاء الصلبة، كان هؤلاء قد قسموا الى مجموعات ووزعوا في انحاء متعددة ومتباعدة من المعسكر ، ولم تمضِ اسابيع قليلة حتى اصبحوا مخلوقات اخرى . كلمات الاطراء تترافق مع ضربات خفيفة على الاكتاف دلالة الاعجاب والتقدير . كانوا لا يترددون عن القيام باي عمل او تقديم اية مساعدة اذا طلب منهم ذلك . انهم الآن مستفزون الى درجة يمكن معها أن يفعلوا أي شيء ، اذ بعد الأيام الاولى ، وبعد التهيب الذي وصل حدود الخوف ، خاصة بعد ان قرئت عليهم تلك التعليمات الميتة ، شعروا بتحدٍ وصل درجة القهر ، وبطريقة مكابرة ، ودون اتفاق ، بدأت الامور تأخذ شكلاً جديداً ، اذ اصبحت الايدي تتحرك بطريقة مختلفة عن السابق ، ومعها بعض الاسماء والكلمات ، ولفرط ما تكررت ترسخت في الذاكرة دون ان يعرف احد كيف ، وبدأت معها تتكون العلاقات ، وتترافق مع ابتسامات واشارات اكثر ، فزال الخوف او تراجع .

وعلى نفس البواخر التي حملت « البلايا » كان يأتي رجال يتزايد عددهم مع كل باخرة جديدة . رجال لا يُعرف من اين اتوا او ماذا سيعملون . كانوا يتدفقون كالجراد ، ينتشرون في جميع انحاء المعسكر . وخلال يوم واحد ترتب اقامتهم وسكنهم ، حتى الطعام الذي يقدم في تلك الغرفة الطويلة ، والتي لم يعرف احد لماذا اعدت حين اكتمل بناؤها ، كان جاهزاً لكل واحد منهم .

ومع كل بناء يكتمل يندفع العرب خطوة الى الوراء ، اذ بعد ان تبنى الجدران تركب السقوف ، وبعد ان يوضع الزجاج والعاكسات يبدأ الاميركان باعمال غامضة ، اذ يمدون حبالاً سوداء قوية داخل الجدران ، ويضعون في الشبابيك كتلاً حديدية وأشياء تنفث ريحا باردة ، حتى إذا جاء البشر على ظهور البواخر أعطيت لكل واحد منهم تجهيزات كاملة من الملابس والاغطية والادوات ، وخصص له مكان بذاته ينام فيه ، وبعد يوم أواثنين يختلط هؤلاء بعضهم ببعض ، وكأنهم على معرفة سابقة ، ويندفعون في اعمال لا نهاية لها . كانت مهمة بعضهم في البحر ، ومهمة آخرين ان يمدوا تلك الانابيب من مكان الى آخر ، وكانت مجموعة تنصب الآلات التي فكت من الصناديق . كان الجميع يتراكضون مثل القطط المذعورة من مكان الى آخر ، وهم عراة تقريباً ، اذ عدا السراويل القصيرة والقبعات البيضاء ، كانوا لا يضعون شيئاً على اجسامهم اغلب الوقت . كانت البقع السوداء تغطي الاجسام والوجوه ، وكانت بعض الجروح الصغيرة تظهر في الاصابع وفي اماكن اخرى من الجسم ، والعرق يسحّ كأنه المطر من الصدور والوجوه ، فاذا اختلطت هذه الاشياء معاً يبدو الانسان مضحكاً ، لكن لفرط ما تكرر مثل هذا المشهد لم يعد يثير احداً او يلفت نظر أحد .

* * *

وخلال اقل من شهر عاد ابن الراشد محاطاً بعدد من الرجال . لا احد يعرف من اين ، ما عدا سبعة من ابناء المنطقة ، من عجرة والروضة ، فان الآخرين جاءوا من اماكن بعيدة ومختلفة .

واذا كان ابن الراشد قد ترك حران ارضا عراء ، لا بيت فيها ولا علامة تدل عليها ، عدا مجموعة من الخيام في الجهة الغربية ، ومجموعة من الصناديق الخشبية الكبيرة التي جاءت بها « البلية » ، فقد ابدى دهشة بلغت حدود الاعجاب الشديد حين رأى من بُعد تلك الاشياء الخارقة التي قامت في فترة غيابه . عبّر عن ذلك بصوت عالٍ وامام المجموعة التي كانت معه . أما حين وصل ورأى الرجال ، وقد عادوا من حران الاميركان ، وهم يلبسون الاوفرهولات ويضعون على رؤوسهم تلك القبعات ، فقد رفع يديه الاثنين بدهشة اقرب الى الخوف وصرخ :

ـ يا سبحان الله . . ويش سويتم بارواحكم يا اولاد الحلال ؟

اغلب الرجال لم يفطن لحقيقة استغراب ابن الراشد في الوهلة الأولى ، نظر بعضهم الى بعض ، ثم نظروا الى ابن الراشد متسائلين ، أما هو فقد تابع وكان يقهقه :

ـ قلت لنفسي : الاميركان ما يُغيّرون اولاد العرب ولو طلعت بروسهم نخلة

واقترب من دحام الذي بدا مضحكاً بملابسه الضيقة ، بكرشه الكبير قليلاً ، ومؤخرته النائتة ، وقال وهو يربت على كتفه :

ـ ابن آدم كل يوم يطلع له قلب .

ورغم ان الدهشة لم تزايل ابن الراشد ، فقد اثنى ، بصوت عالٍ ، وبمبالغة كبيرة ، على كل شيء رآه او سمع به . اثنى على دحام وعلى الرجال الآخرين ، اثنى على البيوت الجميلة التي اقامها الاميركان ، وقال ان العرب يجب ان يفعلوا مثلهم ، ثم بدأ يستفسر عن كل شيء بلهفة ، عن المنشآت متى اقيمت ، ومن اقامها ، وكم احتملت من الوقت ، وعن الملابس متى حصلوا عليها ، ثم امتدت يده الى احدى القبعات فتلمسها باهتمام دلالة الاعجاب ، ولم ينس ان يسأل ما اذا كان الرجال كلهم قد حصلوا على هذه الملابس والقبعات ، وما اذا كان يوجد منها اعداد اخرى . كان شديد الانفعال ، حتى ان الاسئلة كانت تتلاحق ، ولم يكن ينتظر ليستمع الى كل التفاصيل ، لان لهفته وانفعاله ، ثم رغبته في ان يعرف كل شيء فوّتت اكثر التفاصيل التى حرص دحام على ذكرها .

في غمرة الدهشة والانفعال فات ابن الراشد تقديم الرجال الذين جاءوا معه ، وهؤلاء الذين أخذوا ايضاً بهذا الجو ، ظلوا في جهة ، قريباً من الجمال ، صامتين ، ثم لما غرق ابن الراشد بالاسئلة قام بعضهم باناخة الجمال والبدء بفك احمالها ، حتى اذا التفت واكتشف انهم لا يزالون بعيدين ، وفي محاولة لان يقدّم ادهاشاً موازياً لما رآه تحرك بسرعة وصخب طالباً من الجميع ان يعاونوا في انزال الاحمال وادخالها الى خيمته .

وبجو من الحماسة والمشاركة تمت العملية في فترة قصيرة ، وقد تخللتها اسئلة وكلمات مازحة ، ونظرات تبادلها الذين كانوا من قبل مع الذين جاءوا ، وفي لحظة من الحزم ، وكأنه تذكر شيئاً ، قال ابن الراشد مع الاحمال الأخيرة التي انزلت :

ـ ابشروا يا جماعة الخير . . كل شيء راح يصير مثل ما تريدون .

أما حين تجمع اغلب الرجال وجلسوا في تلك الفسحة بين الخيام ، في مواجهة البحر ، بعد ان انتزع اكثرهم الملابس الضيقة التي كانوا يلبسونها ، او فكوا ازرارها التي كانت تجعلهم مثل القوالب ، وانتزعوا ايضاً القبعات وتركوها في الخيام او وضعوها جانباً على الارض ، في لحظة من لحظات الصمت التي تعمدها وخلقها ابن الراشد ، ابلغ الرجال ان احد الذين جاءوا معه سيتولى القصابة ، وقال عنه انه قصاب اباً عن جد ، وسوف يبيع اللحم للذين يشاؤ ون . وقال إن آخر ، واشار الى رجل مربوع او اميل الى القصر ، وشديد السمرة ، سيتولى بيع الحاجات لجميع اهل حران ، وستكون هذه الحاجات كثيرة ومتنوعة ، مثلما هو الحال في عجرة او امكنة اخرى . ثم التفت الى اكثر من جهة حتى التقت عيناه بعيني ذلك الرجل الصغير الضامر ، قال وهو يضحك فتبين اسنانه الفارغة :

ـ انا اعرف البدوان . . تعودوا على خبز ما يغيرونه ، والخويا يعرف كيف يسويه . .

وضحك بصوت عال وهو يضيف :

ـ وكُلوا يا عربان وادعوا لطويل العمر !

ولم يفهم من يقصد بطويل العمر ، هل هو الخباز ام ابن الراشد ذاته ام احد غيرهما ! أما ذلك الشاب الخجول الذي كان يلبس بنطالاً وسترة ، وقد ظل بعيداً وصامتاً ، وكأنه في حلم او يشهد مسرحية غريبة ، فقد قال ابن الراشد انه « المهندز » الذي سيبني للعرب بيوتاً يغار منها الاميركان .

هكذا ابلغ ابن الراشد الرجال . واذا كان قد بدا عليه التعب من الرحلة الطويلة ، فقد كان شديد التوقد والحركة ، يريد ان يرى كل شيء ، ان يسمع عما حدث أثناء غيابه : عدد البوابير التي جاءت والأشياء التي حملتها ، والأشخاص الذين وصلوا خلال هذه الفترة . ودحام الذي تولى الاجابة ، وبعض الاحيان باستفاضة ، لاحظ ان الرجل تشغله امور اخرى ، وكان يفكر باشياء مختلفة ، اذ ما لبث ان رآه يقوم ويطلب منه ان يرافقه الى حران العرب .

مع اهل حران كان ابن الراشد انساناً مختلفاً . ابدى الكثير من اللطف والتبسط في الحديث . سأل كل واحد منهم . سأل ما اذا كانوا بصحة جيدة ، وسأل عن مساكنهم الجديدة وهل هم مرتاحون فيها ام بحاجة الى شيء آخر ، وقد ابدى

اهتماماً خاصاً « بالشايب » ، كما كان يسمي ابن نفاع تعبيراً عن الاحترام ، حتى اذا فرغ من هذه الاسئلة ، بدأ يسأل عن اراضي حران ، هل هي ارض مشاع ام مقسمة ، واذا كانت مقسمة من هم الذين يملكونها ، والاراضي التي بجوارها هل هي مراعٍ ام أراضٍ مملوكة ، وقد كان شديد الاهتمام والدقة بكل ما قالوه ، وطلب من دحام ان يسجل كل شيء ، ثم عاد واكد عليه مرة اخرى ، اثناء عودتهما ان « يضبط هذه الامور لانها مهمة » ولم يقل شيئاً آخر .

ابن الراشد وحده الذي يفكر ويقرر ، لا يعطي سره لاحد ولايستشير احداً . لقد حرص على ان يذهب الى عجرة بشكل مفاجىء ، وكأنه يدبر مؤامرة ، اذ لم يعرف بسفره الا الذين رأوه يركب ويمشي . طلب من الرجال ان يمهلوه « مسافة الطريق » كما قال واكد اكثر من مرة ، وبعد ان غاب شهراً ها هو يعود ، وبدل ان يحل مشكلة السابقين جاء برجال جدد ، وبمشاكل اخرى .

كل هذه اسراره الخاصة ، حتى عندما وصل سأل عن نعيم قبل ان يسأل عن اي انسان آخر ، ولما قال له دحام المزعل « الخويا وصل عدد كبير منهم ، ونعيم مشغول معهم » طلب ابن الراشد من أحد رجاله أن يذهب الى معسكر الأميركان ، وأن يبلغ نعيم بوصوله ، وأنه يريد أن يراه لأمور هامة . فلما ذهب الرجل وعاد ، دون أن يرى نعيم أو يعرف عنه أي شيء ، قال ابن الراشد يخاطب دحام :

ـ يلزم تشوفه باكر من كل لزوم وبد . . .

وابتسم وهو يضيف ، لكن بصوت خافت :

ـ هو المفتاح . . . ولازم ندبره .

ولم يفهم دحام شيئاً مما قاله ابن الراشد ، لكن هز رأسه دلالة الموافقة ! . .

حران الاميركان تنمو وتتسع كل يوم ، ومع نموها واتساعها تزداد غرابة وتغيراً ، أما في عصر ذلك اليوم الذي صُرف فيه العمال باكراً ، ولم يسمح لهم ان يقتربوا من بعض الاماكن ، رغم انهم لم ينجزوا العمل فيها ، خاصة البركة الكبيرة . . عصر ذلك اليوم بدت حران الاميركان غير عادية ، وكأنها تستعد لشيء ما ، واذا كان ابن الراشد قد قرر ان يخصص عصر اليوم نفسه ، واليوم الذي يليه ، وكان يوم عطلة ، من اجل الانتهاء من بناء الدكاكين الثلاثة التي ستخصص للمخبز والقصابة وبيع الحاجات ، الا ان السفينة الكبيرة التي بدأت تظهر في الافق غيّرت كل شيء في حران العرب وحران الاميركان معاً ، وغيرت كل ما كان فيه الكثيرون .

لما وصلت السفينة الكبيرة عند الغروب ادهشت الجميع . فشكلها يختلف كثيراً عن السفن التي وصلت من قبل ، اذ كانت تتلألأ بانوار ملونة ، وقد حوّلت البحر الى كتلة من اللهب ، أما حجمها الهائل وهي تتقدم فقد جعل الناس في ذهول شديد . لم ير اهل حران ولا العمال الذين جاءوا من الداخل شيئاً مثلها من قبل ، عجبوا وتساءلوا كيف يمكن لشيء مثل هذا الحجم ان يطفو فوق الماء . . وكيف يسير .

ما كادت الباخرة تقترب حتى بدأت الاغاني والطبول والاصوات تنبعث من كل مكان ، من على ظهر الباخرة ومن اليابسة ، حيث اصطف كل الاميركيين الذين كانوا في المعسكر . وباحتفال صاخب بدأت المراكب الصغيرة ، بعد ان توقفت الباخرة ، تنقل الذين كانوا على ظهرها . نقلت المراكب عشرات الناس ، مئات الناس . وكانت مع الرجال اعداد كبيرة من النسوة . كانت النسوة : طريات ، لامعات ، باسمات ، او كالخيول بعد شوط طويل من الركض . كل واحدة مغسولة ، قوية ، مستعدة وكأنها خارجة لتوها من حمام ساخن . كانت الاجساد لا تسترها الا قطع صغيرة من اقمشة ملونة . السيقان شامخة ظاهرة واقوى من الصخر . الوجوه والايدي والصدور والبطون . . كل شيء ، نعم كل شيء ، كان يشتعل ، يرقص ، يطير . وكان الرجال يشتبكون مع النسوة على ظهر الباخرة ، ثم في المراكب الصغيرة ، أما على ظهر اليابسة فقد حصل شيء لا يمكن لاحد ان يصدقه .

انه منظر لا ينسى ، ولا يمكن ان يتكرر ايضاً . اصبح الناس كلهم كتلة واحدة ، واقرب ما يكونون الى جسم جمل عملاق ، لم يبق احد الا واشتبك بالآخرين ، التحم بهم .

واهل حران وهم يقتربون خطوة بعد خطوة ، دون شعور منهم ، وكأنهم منومون ، يزدادون دهشة وعجباً . كانوا لا يصدقون ما ترى اعينهم ، وما تسمع آذانهم . هل يوجد شيء مثل هذا ، سفينة مثل هذه ، بهذا الحجم ، بهذه الروعة؟ هل يوجد في العالم هذا النوع من النسوة اللواتي يشبهن الحليب والتمر معاً ببياضهن المحروق ؟ وهل يتصور احد ان يقمط الرجال النساء دون خجل ، دون خوف من الآخرين ؟ والنسوة . . هل هن زوجات ام عشيقات ام شيء آخر ؟

كان رجال حران يتطلعون ، يتابعون بانفاس لاهثة ، وكانوا اذا رأوا شيئاً لا يصدقونه ، ينظر بعضهم في وجوه بعض متسائلين ، ومع النظرات ابتسامات وشهوة ، وبعض الأحيان صرير حاد بالأسنان أو ضربات قوية على الأرض . والأطفال سبقوا الجميع ووصلوا في وقت مبكر . جلسوا قريبا من الماء ، ولم يتردد عدد منهم في النزول الى البحر والاقتراب من الباخرة . أما الكثيرون فقد فضلوا البقاء على اليابسة لكي يتحركوا بسرعة وسهولة ، ولئلا يفوتهم اي شيء . . حتى النسوة تابعن كل شيء

من بعيد ولم تجرؤ اية واحدة منهن على الاقتراب .

انه اليوم الذي يؤرخ لحران : متى قامت وكيف قامت ، لأن الكثيرين لا يتذكرون حران قبل هذا اليوم . حتى ابناء حران ذاتها الذين كانوا في هذا المكان منذ وقت بعيد ، والذين خافوا حين وصلت المجموعة الاولى من الاميركيين ، وخافوا اكثر حين رأوها تزرع الشاطىء والتلال ؛ اهل حران الذين ولدوا وعاشوا هنا ، والذين حزنوا كثيراً حين ابلغوا أن بيوتهم سوف تهدم ، فاستعادوا احزاناً قديمة ، كما تذكروا الموتى والمسافرين ، ان هؤلاء انفسهم يتذكرون يوم وصول تلك الباخرة اكثر من اية ايام اخرى ، بمزيج من العجب والخوف والدهشة ، حتى ليكاد يصبح التاريخ الوحيد الباقي في ذاكرتهم .

أما العمال الذين زحفوا مجموعة بعد اخرى ، والذين رأوا كل شيء باعينهم ، فقد كانوا في حالة من العصبية والقهر واللوعة اكثر مما كانوا فرحين . لأول مرة يتملكهم شعور ساحق موجع بانهم جاءوا الى هذا المكان بطريق الخطأ ، ويجب ان لا يبقوا طويلاً . وابن الراشد الذي تظاهر بعدم الاهتمام اول الأمر ، وطلب من واحد او اثنين ان يستطلعوا « البلية الآتية » ، وكان يهيّء العمال لكي يبدأ حملة ببناء حران الجديدة ، حتى ابن الراشد لم يستطع ان يصبر طويلاً او ان يظل بعيداً ، اذ ما كادت الباخرة تتقدم وتطلق دوي صفارتها مرتين ، ثم وقوف الرجال والنساء على شرفاتها ، وكانوا يلـوّحون بايديهم ويتحركون ، ومع الاضواء والموسيقى ، حتى هبّ ابن الراشد وهو يقول لدحام وآخر ظلا معه :

ـ اذا جن قومك عقلك ما ينفعك .

وضحك بصوت عالٍ ثم تابع :

ـ كل طارش بعثناه لا رجع ولا رجّع خبر ، ولازم نشوف اللي صار بهذه الدنيا !

مشى مشياً بطيئاً هادئاً ، لكن كلما اقترب نحو البحر ، وكلما اخذت المعالم تبين والصورة تتكامل ، كان يحس ان قوة في داخله تدفعه لكي يسرع . أما حين جلس وسط العمال ، قريباً من الماء تماماً ، وبدأت تظهر النسوة وتسمع الضحكات ، وفي اللحظة التي اعقبت زفرة قوية كاوية من احد العمال ، وقد خيم الصمت ، فقد قال بنزق اقرب الى الانفعال :

ـ يا خويا . . هذا هو بلاط نبيّ الله سليمان . . اللي قالوا عليه .

علت الضحكات وترافقت مع تعليقات كثيرة صدرت عن اشخاص عديدين ، حتى بعض الصبية صدرت منهم تعليقات او اصوات معينة ، ولم يعترض عليها الكبار .

مقابل الصمت الذي كان يملأ حران العرب ، والمتابعة الدقيقة الملهوفة التي كانت تحكم كل واحد من الرجال الذين جلسوا على الشاطىء ، بلغت الضجة على الباخرة وعلى اليابسة ، في حران الاميركان ، حداً لا مثيل له . واذا كان العمال لم يروا ولم ينتبهوا ، حين وصول الاميركان السابقين لوجود آلات موسيقية من اي نوع ، فقد ابدوا دهشة كبيرة لما رأوا الطبول والمزامير وآلات اخرى ، وقد تجمعت على الشاطىء . وحالما وقفت الباخرة ، وهدأت اصوات الموسيقى التي تنبعث منها ، بدأت موسيقى الشاطىء اقوى وأوضح ، خاصة وقع الطبل الكبير ، والذي كان يقود حركات المحتفلين واصواتهم ، ويجعل لكل شيء لوناً وطعماً مميزاً .

قال احد العمال بحرقة

ـ اولاد الحرام الاميركان . . اذا دخنوا عمونا واذا حشّوا ما اطعمونا .

رد هاجم :

ـ اكلهم اكل الشيوخ يا مبارك ، والمستريح اللي من « ذاك » خالي .

كان لدى الكثيرين كلمات او تعليقات يمكن ان يقولوها ، لكن الحركة النشيطة والموسيقى الصاخبة القوية ، وهذه المشاهد التي تتوالى بسرعة لم تترك لاحد ان يتكلم ، حتى لو اراد . فالآخرون كانوا غارقين في متابعة هذا الحلم المستحيل . كانوا ، اول الامر ، يشيرون بخوف او بخجل الى بعض المشاهد التي يرونها تجري . يلفت بعضهم نظر بعض بكلمات قصيرة ، بوخزة كوع ، لكن مع تزايد المشاهد ، ومع توالیها السريع ، ووقوف رجال ونساء ، عراة او اشبه بالعراة ، على ظهر الباخرة ، او في تلك المراكب الصغيرة ، وقيامهم بتلك الادوار المسرحية : ايد ممدودة على طولها متباعدة ، ثم هجوم سريع وعناق وقبل ، او يحمل احد الرجال امرأة او اثنتين على ظهره وصدره ، او ان تجلس امرأة في حضن احد الرجال . . حين بلغت الأمور هذا الحد لم يعد احد يخشى او يتردد في ان يشير بيد ممدودة ، في ان يصدر اصواتاً او كلمات واضحة الدلالة . أما التعليقات فقد بلغت الذروة مع وصول المركب الاخير

قادماً من الباخرة . كان في المركب رجل واحد وسبع نساء . كان الرجل في وسط المركب بلحيته الكثيفة وصدره المليء بالشعر ، والنساء السبع حوله نصف مضطجعات ، وهو يدور دورة كاملة . يداعب هذه ، يداعب تلك ، ينحني فوق واحدة ، ينحني فوق اخرى ، يمسك امرأة بيد ويمسك اخرى باليد الثانية ، يدور ، يضحك بصخب ، يقفز ، يهز المركب ، ترتفع اصوات الطبل ، يدور مرة اخرى ، ينحني ، يرفع واحدة حتى تقف امامه ، يدور معها ثلاث او اربع دورات ، يتوالى صوت الطبل قوياً منتظماً ، حتى اذا اقترب المركب من الشاطىء ، قفز الرجل قفزة قوية فاصبح في الماء ، واخذ بيده يدفع المركب حتى وصل ، ومع وصوله ارتفعت اصوات البشر في غناء سريع مرح . قال عبد الله الزامل :

ـ جنات عدن تجري من تحتها الانهار ، الجواري والغلمان فيها مخلدون

رد حماد الزين :

ـ والله مثل ما قال ابو محمد : نبي الله سليمان والف بلقيس . . وموتوا بغيظكم يا اولاد الكلب . . يا عربان .

لم يصدق احد شيئاً مما جرى أمامه او رآه رأي العين ، لان ما جرى يفوق الوصف ولا تكفيه اية كلمات ، ولا يمكن ان يحدث ايضاً . حتى الصبية والاطفال الصغار الذين كانوا كثيري الحركة ولا يتوقفون عن التعليق والضحك بصوت عالٍ ، بدأوا في لحظات معينة مأخوذين تماماً بما يشاهدون فصمتوا . والرجال الذين داروا نصف دورة ، والذين تحركوا قليلاً واخذوا مواقع وامكنة جديدة لكي يتابعوا هذا الموكب في رحلته الجديدة الى داخل حران الاميركان ، كانوا مأخوذين اكثر من الصبية والاطفال . صحيح انهم كانوا أميل الى الصمت ولم تصدر عنهم تعليقات كثيرة ، الا انهم شعروا بنوع من الدوار ، واحس اكثرهم بآلام حادة تمزق اجزاء معينة من اجسامهم ، بل ووصل الأمر ببعضهم ان صدرت منهم اصوات حادة تعبيراً عن هذا الالم ، وتمنى آخرون لو انهم لم يأتوا ولم يشاهدوا هذا الذي يجري امامهم .

* * * *

اغلقت البوابة بعد دخول ركاب الباخرة الى حران الاميركان ، ووقف جمعة الاسود ، مثل ملك الموت ، الى جانب البوابة ، وبيده كرباج صنع من ذنب الفيل . واخذت الضجة والاصوات تبتعد وتتداخل الا انها لم تتلاش ابداً . وحتى

وقت متأخر من الليل ظلت اصوات الموسيقى تُسمع من أماكن بعيدة ، وفي اللحظات التي تنقطع كان الرجال المرابطون على الشاطىء يتوقعون شيئاً ما في اللحظة التالية ، لان كل مرة يخيم الصمت فيها ويمتد لدقائق قليلة ، كان ينفجر بعده الصخب والضحك عنيفاً قوياً ، ثم تتبعه موسيقى اقوى من المرات السابقة ، ولان هذه اللعبة تكررت فقد اصبح انتظارها ومراقبتها لذيذاً وقاسياً معاً .

لم يحس اي من الرجال الجالسين على الشاطىء بالبرودة التي اخذت تملأ الجو ، ولم يجد احد منهم الرغبة في ان يقول شيئاً محدداً او جدياً ، ورغم ان وقتاً طويلاً قد مضى على وصول الباخرة ودخول الاميركيين الى المعسكر ، الا ان الزمن في هذه الليلة كان مختلفاً عن الليالي السابقة . واهل حران الذين تعودوا النوم مبكراً ، ولا يشذ عنهم الا بعض العمال الذين يلعبون الورق ، فان احداً لم يحس بالزمن الذي مر ، او الرغبة بمغادرة المكان . حتى الاطفال والصبية الذين أخذوا بما رأوا فان الأمر لم يستمر طويلاً ، اذ ما لبثوا ان تحركوا ، تراكضوا وتفوهوا ، بهمس مسموع ، بكلمات لم يتصور الكبار ان الصغار يعرفونها ! ووصل بعضهم الى الخيام ، وربما نقلوا للنسوة ما شاهدوه بتفاصيل دقيقة ، لأن النسوة اللواتي ظللن بعيدات طوال الفترة التي وصلت فيها الباخرةوالتي أعقبتها ، عرفن اشياء كثيرة ، وكأنهن شاهدن كل شيء بانفسهن . حتى التيس ، كما اطلقن على الملتحي الذي وصل بالمركب الأخير ، روين بالتفصيل كيف كان يدور وينحني ، وكم امرأة كانت معه في المركب ، ثم لما قفز في البحر ؛ روين كل شيء بخجل اول الأمر ، ثم بوضوح بعد ذلك . واذا كانت النسوة قد طلبن من الصغار ان يذكّروا آباءهم لكي يأتوا لتناول العشاء ، فقد فعلن ذلك دون وضوح كافٍ ودون الحاح ، كما ان الاطفال والصبية في غمرة الانفعال والركض والانتظار نسوا او اهملوا نقل هذه الرسائل .

لو أنها ليلة من ليالي الصيف ، لو ان القمر كان يملأ السماء ، او لو انها ليلة من ليالي عودة المسافرين الذين طالت غيبتهم ، لأمكن تفسير هذا السهر الذي ملأ هذه الليلة في حران ، ولرافقت السهر احاديث لا تنتهي ، عن الأيام القديمة والاماكن البعيدة ، ولتخللت ذلك ضحكات صاخبة تعبيراً عن الفرح والشوق ، ثم ما يعقبها من الاسئلة عن المسافرين الآخرين والاماكن الاخرى ، وعن المطر والعشب . أما ان يمتد السهر والرجال اقرب الى الصمت ، عدا اسئلة عجولة ولا تنتظر اجابات ،

فقد تفجرت في الصدور احزان واسئلة لا نهاية لها .

كان يمكن لكل واحد ان يقول الكثير ، حتى الرجال الذين تعودوا الصمت فان لديهم اشياء يمكن ان يقولوها . ولربما غنى بعضهم ، لو ان قلوبهم لم تكن مثقلة بهذا الحزن كله . لكن حين هجم الحزن هكذا وسيطر على الحواس ، فقد اصبح العجز يربط الالسنة ، والالم يهد الاجساد ، وانتشرت حالة من المراراة مع جفاف الحلوق وتوتر الاعضاء ، فساد الصمت ، حتى ابن الزامل الذي كان سريع الحركة وصدرت منه تعليقات كثيرة ، وذهب عدة مرات الى البوابة ، ووقف الى جانب الاسلاك الشائكة لعله يدخل او يقترب ، وكان اذا سمع شيئاً ينقله بسرعة الى الآخرين ، حتى ابن الزامل ما لبث ان خمد شيئاً فشيئاً بعد ان تعذر عليه الوصول الى اية نتيجة ، فنهض بعصبية وقال وهو يمشي :

ـ اذكروا الله يا جماعة

توقف قليلاً ، حتى اذا انتبه اليه بعض الرجال تابع :

ـ الاميركان اولاد الحرام ما من وراهم الا التعب ووجع الرأس ، هم باللحم وجماعتنا على العظام ما تحصل .

وبعد ان مشى بضع خطوات التفت وقال :

ـ اتركوهم ، يا جماعة ، الله يخزيهم ويخزي اليوم اللي وصلوا فيه .

كان يجب ان يفعل احد ذلك لأن حالة الخدر التي عمّت الجميع ، والتي بدت من الصمت والانتظار ، ثم ذلك الرحيل الى أماكن مظلمة ، قريبة وبعيدة ، وهذا الخيال الذي اشتعل دفعة واحدة ، لم يترك لاحد ان يفكر او يتصرف . وابن الزامل الذي حاول مثل ذئب جائع ، والذي انتقل من مكان الى آخر ، ثم حرّض الصبية على ان يذهبوا الى اقصى الناحية الشرقية ويقفزوا فوق الاسلاك ، لكي يروا وينقلوا الى الآخرين ، رغم محاولاته التي فشلت كلها ، ادرك بغريزته ان الاستمرار في هذا المكان ، وبهذا الوضع ، سيولد المزيد من التعب والعذاب لكل واحد ، ولذلك حين قرر ان يذهب وقال للرجال هذه الكلمات بدأت حركة غير عادية ، ترافقت مع مجموعة من الشتائم والزفرات والتحدي .

قال ابن الراشد وهو ينهض ويتنحنح :

ـ القول قولك يا ابن الزامل . الجماعة سالفتهم طويلة وهمهم أطول .

رد احد ابناء حران :

ـ ايام السرور قصار !

قال ابن الزامل الذي ابتعد قليلاً :

ـ ولياليه اقصر

قال احد الرجال ولم يبن وجهه في الظلمة كما لم يتميز من صوته :

ـ قولوا اللي تقولوه ، لكن أخاف اننا ضيعنا الدنيا والدين ، لا نحن مع الاميركان باللحم ولا مع غيرهم بالمرق !

وضج الجميع بالضحك ، لأنهم ادركوا ما يرمي اليه الرجل ، أما ابن حران الذي اشتعلت مخيلته بكل هذه الرؤى ، والذي سافر من قبل الى امكنة بعيدة ، وربما رأى وعاش اياماً تختلف عن ايام الناس في هذا المكان النائي المجهول من العالم ، فقد كان لا يرضى ان يعود هكذا . قال بعد ان هدأت ضحكات الرجال :

ـ آخر الليل تأتيك العلوم .

* * * *

ربما لم ينم احد في حران كلها تلك الليلة . الاميركان ظلوا يصخبون ويغنون طوال الليل ، وقد اكد عدد من الرجال ، في وقت لاحق ، ان الشمس أشرقت وكان صوت الغناء اقوى من بداية الليل ، كما اكد آخرون ان الباخرة صفرت صفيراً عالياً مع شروق الشمس ، وقد حرّض هذا الصفير الناس فبدأوا من جديد .

والناس في حران العرب لم يناموا ايضاً ؛ حتى الصبية ، بعد ان عاد الرجال ، ظلوا يحوّمون على الشاطىء مقابل السفينة ، وقريباً من الاسلاك الشائكة ، فلما تعبوا او ملّوا اقتربوا من الخيام وبدأوا يغنون ويمزحون ويتبادلون النكات البذيئة . وقد صاح حماد الزبن اكثر من مرة على الكلاب والصبية طالباً السكوت « لأن الناس تريد ان تنام ! » لكن احداً لم يسمع ولم يستجب .

أما الرجال الذين عادوا متأخرين فقد شعروا بالجوع لكن لم يشعروا برغبة الأكل ، وحين قال عبد الله الزامل ان اباه كان دائماً يروي حديثاً للنبي يؤكد ان الطريقة الوحيدة لتجنب الفتنة والغواية هي الصيام ، ولذلك يقترح على الرجال ان يناموا دون عشاء ، فقد لاقى هذا الاقتراح هوى في نفوس الكثيرين ، او ان

الكثيرين لم يجدوا في انفسهم القوة ، في هذا الوقت المتأخر ، لاعداد الطعام ، فاكتفوا بالشاي ، اذ جلسوا في الفسحة بين الخيام واخذوا يرشفون من الاقداح وهم صامتون .

ومثلما كان الحال على الشاطئ، فان حالة المرارة استمرت وزادت ، حتى الاحاديث التي تبدأ لا تلبث ان تخبو وتتراجع ، في الوقت الذي كانت الفلاة كلها تضج باصوات الموسيقى والضّحكات العالية . لقد حصل هذا عدة مرات ، وحتى النكات البذيئة التي رواها هاجم وحماد ، وكان من الممكن ان تثير ضحكاً صاخباً لو رويت في وقت آخر ، او في ظروف اخرى ، فانها قوبلت بابتسامات شاحبة صغيرة متكلفة .

وكانت الحال نفسها ايضاً في منازل اهل حران ، اذ اكتفى الرجال بأكل خفيف ، وذهبوا الى النوم مباشرة ، لكنهم لم يناموا حتى وقت متأخر !

لقد انفجرت في هذه الليلة الاحزان والرغبات والاشباح والمخاوف . لم يبق احد الا ومرت في رأسه زوبعة من الرؤى ، وشعر الناس كلهم ان عصراً جديداً قد بدأ هذه الليلة . فحران التي كانت بعيدة منسية ، والتي لم تكن تستقبل الغرباء الا في اوقات متباعدة ، خاصة اولئك الذين يأتون حاملين معهم بعض البضائع والمواد لكي يبيعوها او يبادلوها ثم يقفلون راجعين ، ما عدا هؤلاء الغرباء ، لم يكن يأتي الا رسول يبعث به احد ابناء حران المسافرين وتكلف بمصاريفه كلها من عجرة او ابعد منها لينقل بعض الارزاق والرسائل والدراهم للعديدين .

اما أن تتحول حران الى هذا الشكل وبهذه السرعة ، وان تصلها البواخر وهذه الاعداد المتزايدة من البشر ، وان تبنى فيها تلك الابنية في الجهة الشرقية ، فأمر لم يقدره احد ، ولم يخطر ببال . ومع ان الناس بدأوا يألفون الابنية الجديدة ، وتعودوا يوماً بعد آخر على الوجوه التي وصلت ، فان اقصى درجة من درجات الخيال لا تبلغ بانسان ان يتصور وصول مثل هذه الباخرة . واذا كان ابن الراشد قد سماها باخرة سليمان ، لأن النساء اللواتي جئن عليها يشبهن بلقيس او اجمل منها ، فلا يمكن لاحد من اهل حران ان يصف لآخرين ما وقعت عليه عيناه وما رآه .

اي عصر يبدأ الآن وماذا ينتظر حران في الأيام القادمة ؟ وماذا يستطيع الرجال ان

يتحملوا والى متى يمكن ان يصبروا ؟ وهذه الليلة اذا مرت ، فكيف ستكون الليالي القادمة ؟

الاسئلة التي لم يطرحها احد ، والتي مرت في كل الرؤوس ، حملتها الاشباح في الغفوات القصيرة القلقة حين ذهب الرجال الى النوم ؛ وحتى الرغبات المكتومة التي لا يصرح بها الانسان لنفسه انبعثت مرة اخرى في الليل المتأخر وعند الفجر . فالذين ذهبوا الى الفراش ، دون ان يشعروا بالنعاس ، والذين اخذتهم تلك الغفوات القصيرة ، ما لبثوا ان هبوا فزعين بعد ان طاردتهم الاطياف وملأتهم بالرغبة واللذة والخوف والانتظار !

لم يكن وصول باخرة نبي الله سليمان ، او باخرة الشيطان ، كما اطلق عليها ابن نفاع ، ثم مغادرتها بعد غروب اليوم التالي ، السبب الوحيد في ان يمتنع الرجال عن البدء بانشاء المدينة الجديدة . فابن الراشد الذي فكر اكثر من مرة في ان يعرض على الرجال البدء بالعمل ، تردد ثم اجلّ الامر ، لان الحالة التي كانوا عليها لم تتح امكانية من اي نوع لبحث الموضوع . فمن لا يشكو من سهر الليلة الفائتة ، لا بد أن يدعي مرضاً أو تعباً ، ومن كان أكثر جرأة او صراحة لا يتردد في أن يقول انه يريد البقاء على الشاطىء ، مقابل « البلية » لكي يرى كيف يتنا (. . .) الأميركان! أما أهل حران الذين يعرفون من اين تقطع الحجارة وعندهم الأدوات التي تساعدهم في ذلك ، فلا بد أن يعتبروا صلاة الجمعة سبباً كافياً لعدم تلبية أي طلب . ولذلك فضل ابن الراشد ان يطوي الموضوع ، خاصة بعد ان لاحظ في صباح وظهرة اليوم التالي أن الرجال في حالة عصبية شديدة الوضوح . كانت وجوههم صفراء ، وتصرفاتهم تتسم بذلك المقدار الكبير من الحدة ، ورغم ان الصمت لا زال مسيطراً ، قال ابن الراشد لنفسه بنوع من التسليم : « الانسان انسان ، واذا كان العمال قد تركوا أهلهم منذ وقت طويل وصبروا دون أن يصدر عنهم أي خطأ فإنهم بعدما رأوا هذه العجائب أمس لا بد أن يتحولوا الى وحوش ، ولذلك فالأفضل ان

يتركوا إلى أن يبردوا » .

كانت عادة اكثر الرجال ان يصلّوا الجمعة في المسجد ، المكان الذي تُرك دون ان يطرأ عليه ايّ تغيير ، كما طلب ذلك ابن الراشد من الأميركيين عن طريق المترجم ، خاصة بعد ان سوّت الآلات الارض . اما في هذا الصباح فقد بدوا شديدي الحرج ، وتنازعتهم الافكار والآلام والآثام معاً . فالذين كان يجب ان يذهبوا الى البحر لكي يغتسلوا وجدوا صعوبة وحرجا ، لان الناس انتشروا منذ الصباح الباكر على شاطىء البحر . كان بعضهم يراقب الباخرة ، وآخرون يمشون بعصبية ، قاطعين - مسافة كبيرة وهم ساهمون ، حتى اذا ابتعدوا عادوا مسرعين خوف ان يفوتهم شيء ، وغيرهم شغلته اسئلة وهموم جعلته لا يفكر بغيرها .

قال ابن الراشد لدحام ، حين سأله الأخير ، ما اذا كان قد حان وقت دعوة الرجال الى العمل :

- اترك السالفة يا ابن مزعل ، العربان بالها ما هو معها . . .

وحين تظاهر دحام بعدم الموافقة ضحك ابن الراشد وخرجت الكلمات مبعثرة من فمه :

- يا ابن مزعل . . انت تعرف ان من جامع المصلين صلى ومن جامع المغنين غنى .

توقف لحظة وهو ينظر في وجه دحام ، دون ان يراه :

- والخويا امس ما خلوا غناء في روسهم ، طلعوا الزايدة والناقصة .

وفهم دحام ولم يلح بعد ذلك .

وحران التي لم تنم في الليلة الفائتة لم ترف لها عين لحظة واحدة منذ ان اشرقت الشمس . انتشر الناس في كل مكان . حتى النسوة اللواتي ظللن بعيدات في اليوم السابق ، اصابتهن جرأة مفاجئة ، كانت تراودهن الرغبة في ان يتقدمن نحو البحر ، في ان يراقبن كل شيء بانفسهن . والصبية الذين اطالوا النوم في هذا الصباح ، افاقوا مذعورين حين لاحظوا شروق الشمس وتقدم النهار ، ودون ان ينتظروا ، ودون ان يسألوا ، انطلقوا مثل الطيور الخائفة نحو البحر لكي يروا اي شيء حصل خلال هذه الساعات . أما الرجال الذين ارقتهم الليلة الفائتة وملأت رؤوسهم بالاسئلة والمخاوف والرهبة ، اضافة الى عشرات الرغبات الخفية ، فأبدوا نوعاً من التردد في ان يذهبوا الى البحر مباشرة ، لكن ما لبثوا ان وجدوا اسباباً كثيرة تدعوهم

الى ذلك . وخلال فترة قصيرة انطلقوا .

كان أهل حران كلهم على الشاطىء ، عدا بعض المسنين او المتدينين ، اذ رابطوا في المسجد او ظلوا بعيدين . صحيح ان الذين كانوا على الشاطىء لم يتجمعوا في مكان واحد كالليلة السابقة ، لكنهم كانوا جميعاً هناك ، وكان من السهل ان يكونوا في اي مكان دون دعوة ودون تحريض ، لكي يشهدوا كل شيء بانفسهم . حتى ابن الراشد ودحام اللذان ظلا يتحدثان بطريقة مليئة بالحكمة والتعقل كانا مشغولين تماماً ، كانت آذانهم تتابع الاصوات البعيدة ، أما حين صفرت الباخرة فقد تظاهر ابن الراشد بالانتباه ، قال لدحام وهو ينهض :

- ترى الجماعة رحلوا .

وبنفس طريقة اليوم السابق سارا باتزان وبطء ، الا ان قوة داخلية كانت تدفعهما الى السرعة ، وحين وصلا الى الشاطىء كانت السفينة لا تزال في مكانها مثل جبل ابيض ، ومجموعة من البحارة يلمعون الحديد ويتنقلون من مكان الى آخر . قال ابن الراشد موجهاً الحديث الى اكثر من ابن الزامل :

- ها . . . اشوف الجماعة بمكانهم . . ما قولك عرسهم خلص أو بعده ؟
- اولاد الحرام عرسهم ما يخلص ، يعرسون في كل وقت ، في الليل والنهار ، وجماعتنا وصلت ارواحها لحلوقها .
- مثل ما قال الخويا امس : ايام السرور قصار .
- ايامنا القصيرة ، يا ابو محمد ، وانت الصادق .
- اشوفك حنّيت واشتهيت .
- من هو اللي ما يحّن ويشتهي بعد شوفات البارحة ؟

توقف ابن الزامل لحظة ، زفر بحرقة وابتسم بحزن ثم تابع كأنه يحدث نفسه :

- طقّت خصاوي الرجال من شوفات الامس ، يا ابو محمد ؛ كل نتْية ولا حورية جنة ، كل فخذ كأنه تنور ، وهات صبارك واصبر ، وهات حبالك واعقل الرجال ، يا ابو محمد ، بعد هذا اليوم .

ضحك ابن الراشد ودحام ، ضحكا بصخب ، وكأنهما بحاجة الى هذه الكلمات ولم يجرؤ واحد منهما على ان يقولها بصوت عالٍ ، وفي محاولة من ابن الراشد لكي

يجعله يتابع قال باستفزاز :

- الحريمات ما هن بزيونات ، الواحدة مثل النعجة : بياض ورخاوة وما بها شي خلافه .
- يا ابو محمد ، يا طويل العمر ، عطني النعجة واعطاك الله الجنة .
- النعجة ما هي واقعة بايدينا يا ابن الزامل ، لو وقعت لهانت مصيبتنا كلنا .

قال دحام وهو يصرّ على اسنانه :

- لو وقعت واحدة بين يدي . . والله لاخليها تتشاهد ، تقول : اشهد ان لا اله الا الله !

لما حانت صلاة الظهر لم يذهب الى المسجد الا عدد قليل من الرجال ، اقل من اية مرة سابقة ، وكان لدى الذين لم يذهبوا اسبابهم ! أما حين غادرت الباخرة عند الغروب ، وقد جرت اثناء المغادرة اشياء لا يمكن لاحد ان يذكرها ، ولا يمكن لاحد ان ينساها ، فقد ذهب الرجال تلك الليلة الى النوم مبكرين . لكن قبل ان يناموا سافروا بعيداً ، سافروا الى آفاق لم يروها من قبل . وحين ناموا التقوا في تلك الاماكن بنساء كثيرات . نساء بيضاوات مكتنزات ، مشدودات الاجساد ، والتقوا باخريات لا يعرفن للشبع معنى او حداً ، وقد فرح الرجال في نومهم وكانوا اقوياء ، وكانت النسوة اكثر فرحاً واكثر رغبة ، وظل هذا الفرح يتكرر مرة بعد اخرى ، الى ان طلع النهار ، وحين فتح الرجال اعينهم شعروا ان حلوقهم جافة واعضاءهم متوترة ، وان تعباً غير عادي يهدهم . أما حين تذكروا الاشياء التي مرت في الليلة الفائتة وفي اليوم الفائت ، وحين تذكروا الاحلام التي ملأت ليلتهم ثم تطلعوا حولهم فقد شعروا فجأة بالخيبة والحزن الشديد .

في صباح اليوم التالي ، وعلى غير العادة ، سمعت ضجة عالية وحركة مضطربة بين الخيام ، ترافقت مع نداءات واسئلة ، وما كاد العمال يخرجون لاستطلاع الخبر حتى احسوا ان شيئاً غير عادي قد حصل . ومن الاسئلة ، من الاجابات القصيرة والسريعة ، ثم من ركض دحام المضطرب ونظراته التي لا تستقر ، عرف ان ثلاثة من العمال قد غادروا المعسكر ، وقد كان اثنان منهم اخوين ، والثالث يمت لهما بصلة القرابة . ومما جعل الأمر خطيراً بنظر ابن الراشد انهم سرقوا اربعة رؤوس من الجمال ، ولم يكتشف ذلك الا بعد ساعات طويلة من مغادرتهم ، ومما يؤيد انهم غادروا في اول الليل ، وبمجرد ان ذهب الرجال الى خيامهم ، العثور على ملابس العمل ممزقة وقد تركوها في بداية طريق عجرة ، لكن الريح نثرتها ، كما تعمدوا ارسال « تحية » مباشرة الى الشركة والى ابن الراشد بالذات ، اذ خروا في القبعات الثلاث ، ويبدو ان واحداً منهم لم تساعده امعاؤه فملأ القبعة الخاصة به بالبعر !

ومن خلال المناقشة وبعد اختبار الاثر تبيّن انهم غادروا حران مبكرين ، وقد اختاروا اطيب الابل واقدرها على المشي السريع ، ولذلك فان مسألة اللحاق بهم او ادراكهم بدت غير ممكنة ، ومع ذلك فان ابن الراشد لم يسلّم ، اذ اصطحب معه دحام وثلاثة آخرين من العمال ولحقوا بهم .

واذا كان العمال قد استغربوا وتساءلوا فان صور الرجال الثلاثة ، وهي تتراءى امامهم مرة اخرى ، تثير الاعجاب ، كان الثلاثة ، خاصة الأخوين ، يتمتعون بهمة عالية ولا يترددون في تقديم المساعدة للجميع ، وجوههم أنيسة وتصرفاتهم تتسم بذلك الحد الكبير من الاحترام للآخرين . وكان واحد منهم محدثاً بارعاً يحفظ قصصاً كثيرة يرويها باسلوب ساحر ، وكان الرجال ، اغلب الاحيان ، يبحثون عنه ، ويذهبون الى حيث يكون لكي يستمعوا الى احاديثه وقصصه .

الآن بعد ان تركوا بهذا الشكل ، بدأ كل واحد من الرجال يستعيد تصرفات الثلاثة في اليومين الأخيرين ، واذا كانت الوقائع قد غابت او لم يتذكرها الكثيرون ، لكن لم ينس الجميع ان محيسن هو الذي رتب بعض المقالب اثناء وصول الباخرة ، ثم عند مغادرتها ، ورغم ان بعض المقالب نفذها الاطفال فانه كان هو وراءها ايضاً ! فهزاع المجول ، الطفل اليتيم في حران ، والذي كان عمره تسع سنين ، هو الذي رمى قطة في المركب حين كان الاميركيون يغادرون ، وقد سببت ذعراً ، خاصة بالنسبة للنساء ، وكاد احد الرجال ان يرمي القطة في البحر للتخلص منها ، لكن اختباءها تحت المقاعد ، ثم الهرج الذي وقع بعد ذلك ، نتيجة ارتفاع دقات الطبل ، شغلت الجميع ، وقد عاد المركب بالقطة ، بعد ان وصل الركاب الى الباخرة ، وما كادت تقترب من الشاطىء حتى قفزت وسقطت في البحر ، لكنها استطاعت النجاة ، وكانت موضع قهقهات صاخبة من الذين كانوا يراقبون .

وهزاع المجول ، الذي بعض امرأة من الاميركيات ، حين كانت تهمّ بالصعود الى المركب ، فعل ذلك بتحريض من محيسن ، أما حين امسك جمعة حارس الباب ، باذن الصغير وشدها فقد احس هزاع ان اذنه طارت فصرخ ثم شتم الاميركين كلهم ، وما كاد يفلت حتى بدأ يشتم باعلى صوته ثم بدأ يقذف الحجارة .

وهزاع المجول هو نفسه الذي جمع الحصى وبدأ مع اطفال آخرين يرجمون البشر والمراكب ، وقد صرخ به حماد الزبن ، فلما لم يتوقف ركض وراءه ، وكاد يمسك به ، لولا أن حماد تعثر في اللحظة الأخيرة وسقط ، وقد سبب سقوطه ضحك الجميع ، وظل الكثيرون يتذكرون هذه الحادثة بعد وقوعها بفترة طويلة ؛ أما حماد فلم يأت على ذكرها أبداً ، رغم ان خنصر يده اليسرى قد انكسر وظل مربوطاً لمدة ثلاثة أسابيع .

هذه الوقائع التي جرت كان محيسن وراءها . واذا كانت قد فهمت على انها مداعبات ، وربما دون تدبير من احد ، فانها تبدو الآن شيئاً مختلفاً ، خاصة تلك التحية التي تركها للشركة ولابن الراشد . أما هروبه وهروب الاخوين ، دون ان يحس احد ، ودون ان ينبيء اي تصرف من تصرفاتهم عن ذلك ، فانه يكتسب معنى اضافياً ويدل على تدبير سابق ، وكأنهم كانوا يستعدون منذ وقت طويل . تمنى الرجال ان تضيع آثارهم،أن لايستطيع ابن الراشد اللحاق بهم ، اذ لو ادركهم فلا بد ان تقع معركة ، وابن الراشد الذي يعتز بالبارودة الانكليزية ، والتي كانت تنتقل ما بين كتفه وظهر الناقة بشكل مبالغ فيه ، وللتظاهر اغلب الاحيان ، اثناء الرحلة من عجرة الى حران ، واستعملها مرتين ، الاولى بعد ان طلب الى احد الرجال وضع نيشان في بداية الرحلة وبعد مغادرة عجرة مباشرة . والمرة الثانية حين جرها بانفعال وصوبها نحو حصيني لكنه اخطأه ، واختفى الحصيني تماماً ، في هاتين المرتين كان يريد ان يعطي الرجال درساً ، وان يدخل الخوف الى قلوبهم . الآن ، اذا ادرك الثلاثة فلا بد ان يستعمل بندقيته لكي يخلق الهيبة التي يريدها لنفسه ، خاصة وان الثلاثة لن يسلموا ولن يرجعوا .

كان الرجال يستعيدون الوجوه والوقائع بانفعال ظاهر ، ويحسون في اعماقهم ان مجموعة من المصائب تنتظر الجميع . ويحسون ايضاً ان وصول باخرة الشيطان ، بما تحمله من غواية ، بداية لفترة من الشدة ، والا لماذا هرب الثلاثة في هذا الوقت بالذات ؟ وهل كانوا مضطرين لسرقة الجمال وتعريض انفسهم الى مخاطر لا احد يعرف الى اين ستصل ؟ قال ابن الراشد وهو يتسلم الجمال ، بعد ان اشتراها ، انه مستعد لاعادة اي جمل لصاحبه اذا اراد ، فلماذا يعرض الرجال الثلاثة انفسهم وحياتهم للخطر ؟ والهروب . . لماذا هربوا ؟ كان يكفي ان يحزم الواحد منهم امتعته ويقول لابن الراشد انه لم يعد راغباً او مستعداً للاستمرار ، وابن الراشد مهما حاول لن يستطيع ان يرغم احداً على البقاء او العمل . لقد كان شديد اللين حين سافر الى عجرة ، طلب من الرجال ان يمهلوه ريثما يذهب ويعود ، وبعد عودته سوف تتغير الامور . صحيح انه لم يف بوعده ، وقد مضى على وصوله فترة ، لكن الامور ستتغير بالتأكيد .

هكذا كانت الافكار والتساؤلات تملأ الرؤوس ، أما القناعة الحقيقية التي

سيطرت على الجميع ، وجعلتهم متأكدين ، فهي ان الباخرة ، النساء اللواتي في الباخرة ، كنَّ السبب الوحيد في هروب الرجال . . لم يحتملوا ، فاختاروا هذا الطريق الذي لم يجدوا غيره .

أما عندما وصل الرجال الى المعسكر الآخر ، الى حران الاميركان ، فقد بدأوا ينظرون الى كل شيء نظرة جديدة . كانوا يريدون ان يكتشفوا آثار تلك الليلة واليوم الذي تلاها . ماذا صنع الاميركيون وكيف هم الآن بعد ان افرغوا هذا العذاب الذي يملأ اجسادهم ؟ وتلك الباخرة اللعينة ، والنساء اللواتي وصلن عليها . . . هل رحلن جميعاً ام لا تزال مجموعات منهن باقيات ؟

بدا الاميركيون في هذا الصباح اكثر مرحاً واكثر نشاطاً ، وصدرت عن الكثيرين ابتسامات وتصرفات لم تكن مألوفة من قبل ، وحين تساءلوا عن العمال الآخرين ولم يجدوهم ابدوا استغرابهم ، ولما جاء نعيم لكي يستفسر ويترجم بدا نصف نائم ، كانت عيناه حمراوين ، وكان التعب ظاهراً عليه ، وبشفاه لا تكاد تنفتح سأل عن دحام ، ثم عن ابن الراشد ، ولما قدم العمال معلومات مشوشة صرخ :

- هؤلاء البدو لا تنفع معهم الا العصا .

وبعد ان تكلم مع الاميركيين ، ولا احد يعرف ماذا قال لهم ، التفت الى العمال مرة اخرى وقال بغضب :

- حسبنا انكم صرتم بشراً ، وتعرفون ان العمل هو العمل ، لكن الظاهر ان الخطأ ما هو خطأكم ، الخطأ على من يضع ثقته ببشر مثلكم !

ولما ظل العمال صامتين سأل بحدة :

- الخرا ابن الراشد والاخرا منه دحام . . وين صاروا ؟

ولما وجد العمال صامتين لا يجيبون ، ربما لانهم لا يدرون ماذا يجب ان يقولوا ، او احتجاجاً على الكلمات التي قالها وطريقته في التعامل ، قال بلهجة مختلفة :

- طيب . . طيب اذا جاءوا نتفاهم .

وتمتم بكلمات لم يفهمها احد. ثم وزع العمال من جديد وبدأوا يعملون ، لكن حالة من الغيظ وصلت حدود القهر سيطرت عليهم ، واذا كانوا يعتبرون انفسهم غير مخطئين فان مشاعرهم تجاه ابن الراشد ، وتجاه النصيّص، الاسم الجديد الذي اطلقوه على نعيم ، كانت مزيجاً من الكراهية والاحتقار والحقد ، لكن مع هذه

المشاعر كان حقدهم على انفسهم يزداد ، لانهم قبلوا وجاءوا الى هنا ، وكانت تتردد في صدورهم رغبات كثيرة في ان يتركوا ، في ان يحطموا ، في ان ينقضوا على ابن الراشد بالذات الذي ورطهم في هذه الورطة .

في غروب اليوم التالي عاد ابن الراشد ، عاد خائباً ، أما محيسن والاثنان الآخران اللذان كانا معه فقد واصلوا سفوهم ، ولا أحد يعرف إلى أين .

لما عاد ابن الراشد عاد انساناً آخر ، حتى شكله تغير . المرح الذي كان يتظاهر به انتهى ، التبسط في الحديث الذي بدا منه في اليومين الماضيين والاستماع الى الجميع ، حل مكانهما التجهم والصمت ، كما اصبح يثور لاقل الاسباب ، ولا يتردد في استعمال كلمات قاسية اقرب الى الشتيمة ، واصبح ايضاً شديد الارتياب بكل من حوله . بدأ يراقب كل شيء بنفسه ، ويسأل عن ادق الامور ، أما حين نقل اليه العمال ما قاله نعيم ، وقد تعمدوا ان ينقلوا الكلمات التي استعملها ، فقد هزّ رأسه ولم يعلّق . كان العمال يتصورون انه سيثور ، وانه سيهدد ويشتم ، لكنه سمع كل شيء وصمت . قال الكثيرون ان الغيظ الذي يملأ صدره ، بعد ان فشل في العثور على الهاربين واعادتهم ، او على الاقل اعادة الجمال ، لا بد ان يفرغه في النصّيص . لا بد ان يرد على كل شتيمة باقسى منها ، وسوف يضع حداً لغرور هذا القزم الرخو ، ويفرض طريقة جديدة في التعامل .

في اليوم التالي ، والرجال يستعدون للذهاب الى العمل ، بدا دحام اكثر ارتباكاً وخوفاً . كانت نظراته زائغة وفكه مرتخياً ، وبدا اقرب الى الحيرة . أما ملابس العمل التي يرتديها فقد بدت غريبة اكثر من اي يوم سابق ، او كأنه يلبسها لاول مرة ،

وحين حانت لحظة انطلاقهم الى المعسكر ركض نحو ابن الراشد وتشاور معه ، وقد بدا من حديثهما انهما قلقان واقرب الى الخوف .

كان الجميع ينتظر اللحظة التي يلتقي بها دحام بنعيم ، سوف يقف الرجلان في مواجهة بعضهما مثل الديوك : كلمة من هذا ، كلمة من ذاك ثم يتماسكان ، يتضاربان ، ولا بد ان يشهد المعسكر اولى معاركه الكبرى ! سوف يقف الجميع مبهورين حين يلوي دحام رقبة نعيم ويلقي به الى الارض ، واذا لم يشترك العمال الآخرون في هذه المعركة فسوف يكوّنون سداً لحماية دحام من الاميركيين ، اذا تقدموا لمساعدة نعيم ، سوف يصفقون له ، سوف يشجعونه . والاميركيون ، ماذا سيفعلون ! وماذا يظنون ؟ او لو يشترك احد منهم في المعركة ، سوف يكتشفون في هؤلاء الرجال الذين كانوا يسخرون منهم انهم اقوى واشد مما توحي به اجسامهم الضامرة . وسوف يقلبون المعسكر رأساً على عقب . انها الفرصة لكي توضع الامور في نصابها ، لكي يُعرف الرجال . لن تنتهي المعركة بسهولة ، وايا كانت الاسلحة التي توجد لدى الاميركيين فسوف يدفعون ثمناً لتدخلهم . الافضل ان يبقوا على الحياد،ان لا يتدخلوا ، ولا بد ان يدفع النصيص ثمن الكلمات التي قالها بالامس ، فاذا كان شجاعاً وقوياً فقد حانت الساعة التي يتم فيها الحساب .

مرت هذه الخواطر والصور في رؤوس الرجال وهم يمشون نحو المعسكر ، وكان يمكن لهذه الخواطر والصور ان تتحول الى كلمات ، الى قبضات تشدّ على يدي دحام ، تدفعه وتحرضه ، لكن مشيته في مؤخرة الجماعة ، على غير عادته. وهذا الوجوم الذي سيطر عليه جعل الرجال يترددون ثم يصمتون .

مع الخطوات الاولى في حران الاميركان ، وما كاد دحام يشاهد نعيم من مسافة بعيدة ، وكان يقف مع احد الاميركيين ، قريباً من المطعم ، حتى اندفع نحوه ، ركض بهرولة مضحكة ، وكاد يتعثر ويقع . أما حين اقترب واراد ان يتكلم معه ، فقد اشار اليه نعيم بيده اكثر من مرة ان يصمت وان ينتظر ، ومثل طفل صغير وقف على مسافة خطوتين او ثلاث خطوات . استمر نعيم يتكلم مع الاميركي ، حتى اذا ضحكا بقهقهة عالية وربت الاميركي على كتف نعيم ثم انصرف وهو يشير بيده ، التفت نعيم نحو دحام ، وتبادلا بعض الكلمات ، هز بعدها نعيم رأسه واقترب منه ، وظلا يتحدثان بعض الوقت ثم انصرف باتجاه الادارة .

اي شيء قاله دحام ولماذا ظل نعيم هادئاً بعد تهديدات الامس ؟ هل نقل اليه اخبار الرجال الذين هربوا وكيف انه ذهب وراءهم هو وابن الراشد وابلغه انهم فقدوا اثرهم وعادوا خائبين ؟ والرجال اذا اخذوا الجمال وسافروا هل يعني ذلك ، بنظر نعيم ، سرقة كبيرة وخطيرة ؟

لا بد ان يكون شيء خطير قد نقل الى نعيم ، استنتج الرجال ذلك من هزات رأسه ثم توجهه الى الادارة . كانت العادة ان يأتي كل صباح لكي يشرف على احصاء الرجال وتوزيعهم ، وكانت تترافق هذه العمليات مع نظرات مملوءة بالكراهية وعدم الثقة . ان يتخلى عن هذه العادة ، خاصة بعد ان جاء جميع الرجال ، عدا الثلاثة الذين تركوا المعسكر ، وما يتطلبه ذلك من اعادة توزيع العمال ، ثم وجه دحام الذي تغير خلال هذه الدقائق القليلة ، اذ زالت منه الحيرة وبدت نظراته اكثر ثباتاً ، ان هذه التغيرات تؤكد ان حديثاً خطيراً قد جرى . أما حين جاء نعيم مرة اخرى واشار من بعيد الى دحام ان يتبعه فقد تأكد الجميع ان الامر اكثر جدية وخطورة مما قدروا في البداية .

ابن الراشد جاء الى المعسكر قبل الظهر بقليل ، كان يمكن ان يأتي قبل هذا الوقت ، لكن اختياره لفترة الظهيرة معناه ان زمناً طويلاً قد انقضى على بداية العمل ، وان فترة الغداء لا بد ان تكون احسن الفترات لكي يوضح لنعيم جميع الملابسات ، ومعناه ايضاً ان الغيظ الذي يملأ صدر الرجل قد زال او تراجع كثيراً .

بإشارات اكثر من الكلمات اوضح دحام لابن الراشد كل شيء ، ويبدو ان ما نقله اليه كان خطيراً الى درجة انه هزّ رأسه عدة مرات دلالة الفهم والاهتمام . أما حين التقى الرجلان ، وقد وصل نعيم فجأة ، فقد فتح ابن الراشد يديه الاثنتين وبدأ الترحيب بصوت عال وبكلمات حارة وودية للغاية وكأنه لم يره منذ وقت طويل ، والرجال الذين رأوا المشهد وسمعوا الكلمات ، لم يتمالكوا انفسهم من الابتسام وتبادلوا فيما بينهم نظرات ماكرة . . وتذكروا ايضاً الكلمات التي قالها نعيم امس الأول !

في ذلك اليوم ، بعد الغداء مباشرة ، أُخذت للعمال صور شمسية ، وقد كانت هذه الصور موضع اهتمامهم الى درجة اثارت الدهشة والاستغراب ، وظلت

موضوعاً لاحاديثهم حتى بعد انقضاء فترة من الزمن . أما حين اخذت بصمات الايدي فقد داخلهم الخوف وسيطرت عليهم الشكوك ، ورغم انهم وافقوا بنوع من التسليم ، الا ان احداً لم يستطع ان يفسر الأمر بشكل مرضٍ ، وقد تحدثوا في ذلك مع أهل حران ، ومع الذين وفدوا في الاسابيع الأخيرة ، الا ان احداً لم يستطع ان يقدم تفسيراً واضحاً او مقبولاً ، واظهر اثنان او اكثر من العمال رغبتهم في ترك العمل والعودة الى عجرة لان « اغنية الشيطان بدأت ،وهذه الاغنية حين تبتدىء لا تنتهي » الا ان محاولات دحام ، والتي اتسمت باللين والمكر ، وببعض التهديد ايضاً ، مشيراً الى ان تركهم العمل في هذا الوقت بالذات من شأنه ان يثير حولهم الشبهات . انتهت هذه المحاولات الى الموافقة على البقاء مؤقتاً ، لكن الخوف لم ينته والشكوك لم تتراجع ، واعتبر الجميع ان ابن الراشد هو المسؤول عن كل ذلك . وانه يرتب اموراً رديئة سوف تؤذي الجميع ، خاصة بعد ان اصبح شخصاً مختلفاً وشرساً ، وبعد ان وضع حاجزاً بينه وبين الآخرين .

قال هاجم لاخيه تلك الليلة قبل ان يناما :

ـ قلت لك : نبقى في ديرتنا ، قلت : لا ، نسافر ، سافرنا ووصلنا الى هنا . . وشفت . واذا كان اليوم مثل ما شفنا . . لا احد يعرف باكر ويش يصير .

رد مزبان وهو يشدّ الفروة ليغطي رأسه :

ـ نم . . نم يمكن تحلم بواحدة اميركانية !

ـ الاميركانيات سافرن ، وهذا الحين دور الاميركان ، فاذا ما كنت حصان طاحوا بك وشقوا طيزك !

قال فواز وهو يقهقه :

ـ يا جماعة الخير : ظني اليوم احسن من باكر ، وباكر احسن من اللي عقبه .

قال هاجم بمرارة :

ـ ابن الراشد مثل ما قال النصيّص : خرا .

توقف لحظة ثم اضاف :

ـ هذا النصيّص لعنة ويعرف الرجال . . وانتم شفتم ابن الراشد اليوم .

قال صويلح :

ـ اصبروا . . يا جماعة الخير . . الصبر طيب .

وظل الرجال فترة طويلة قبل ان يناموا ، أما حين غرقوا في النوم فقد رأوا اشياء كثيرة ، لكن لم يجرؤ اي واحد منهم ان يحدّث الآخرين في اليوم التالي بما رأى !

في الأسبوع التالي لوصول باخرة الشيطان ، وهرب الثلاثة ، بدأ تشييد حران العرب . فبعد ذلك الغيظ الذي اشتد بالرجال ، والمصحوب بالمخاوف والشكوك ، إضافة الى عدة حوادث متعلقة برفض الأكل الذي قدمه ابن الراشد للعمال ، خاصة وإن الرجال الذين جاء بهم من أجل أن يقوموا بتحضير الخبز وبيع اللحم والحاجات الأخرى خلقوا جواً من التحريض ، تم الاتفاق على أن يقوم أهل حران بقطع الحجارة ، خلال أيام الأسبوع ، وأن تنقلها جمال ابن الراشد ، على أن يتم البناء عصر الخميس ويوم الجمعة ، حتى لو لم يشارك فيه أهل حران . وهذا ما حصل فعلاً .

فمن بقايا الصناديق الخشبية الكبيرة والواح الزنك ، إضافة الى مجموعة من الحجارة غير المنتظمة ، والمتفاوتة الحجم ، وقد جمعت على عجل ، أقيمت الدكاكين الأولى في حران العرب . أما السقوف فكانت خليطاً من الزنك وأقمشة الشوادر والكرتون وبقايا الأغصان التي تخلفت بعد قطع الأشجار التي كانت تميّز حران عن غيرها . أقيمت هذه الدكاكين على عجل ، وقد انشغل العمال كلهم باقامتها ، لأنهم كانوا يريدون أن يروا الفرن ، وأن يشتروا اللحم من القصاب مباشرة ، كي يعودوا الى تحضير الأكل الذي يلائمهم ، وكانوا يطمحون أيضاً ، وإن ظل هذا

الشعور غامضاً ولم يفصح عنه أحد ، في أن يقيموا شيئاً خاصاً بهم ، بعد أن أقام الأميركيون مدينتهم على التلال الشرقية وحتى البحر .

عند عصر الجمعة فرغ العمال من البناء ، وقد ذبح إبن الراشد بهذه المناسبة خروفين . ذبحهما أبو شايع ، وأثناء السلخ التهم قسماً كبيراً من الكبد ، أما الإلية فقد اقتطع بالشبرية أجزاء منها ، وبعد أن تذوقها عرض على الآخرين أن يشاركوه في هذه المتعة وأن يتذوقوا ، وحالما انتهى من تحضير الخروفين ، التفت الى أبي كامل وقال بلهجة المنتصر « هذا ذبح عربان ، وباكر نشوف ذبح أهل المدن ! » وابن الراشد الذي كان يدور من مكان الى آخر بحماس ، وقد علق طرف ثوبه بسرواله ، كي لا يعيقه عن الحركة ، قدم توجيهات كثيرة في كيفية انجاز البناء وأين يجب أن توضع بعض الأحجار ، ثم تأكد بنفسه أن الألواح الخشبية ثبتت بقوة ، فلما انتهى كل شيء تراجع الى الوراء وألقى نظرة أخيرة ليطمئن أن كل شيء في مكانه ، حتى إذا بدا راضياً نفض يديه وأنزل ثوبه ، وقال للرجال الذين كانوا حوله :

ـ هذا من فضل ربي !

ومع أقداح القهوة والشاي التي قدمت بعد الأكل تحدث الكثيرون عن كيفية بناء البيوت وعن المدن التي رأوها ، وكيف أن مفلح وصل الى مصر وهناك رأى بيوتاً لا يمكن للجن أن تصل الى أعاليها ، وأكد أن أهل مصر هم أحسن البنائين في العالم ، وأنه لم ير مثل بنائهم في الأماكن الأخرى التي مرّ فيها . وابن الراشد الذي كان بادي السرور ، على غير عادته ، وإن لم يتحدث كثيراً ، أعطى توجيهات للذين سيعملون في الدكاكين ، كيف يجب أن يحافظوا عليها ، وأن يبلغوه بكل شيء ، ووعدهم أيضاً أن يلبي جميع ما يحتاجون إليه وقال وهو يقوم إيذاناً بأن السهر قد انتهى وعلى الرجال أن يناموا لكي ينهضوا نشيطين :

ـ بعد سنة أهل حران لن تعرف حران .

عبده محمد فرّان حران الماهر، يدندن وهو يدخل الأرغفة الى بيت النار ، ويدندن أكثر وهو يخرجها . بالاضافة الى صنع الخبز يحضّر أشياء عديدة : اللحوم المشوية ، الصواني ، المعجنات ، وبعض الأكلات التي يخترعها في اللحظة وحسب توافر المواد . يحب الحياة والغناء ، ويهمسون أنه يحب « الكيف » . بعد أن ينتهي من العمل يصبح انساناً آخر : الوزرة الزرقاء التي يضعها على وسطه من الفجر وحتى بعد الظهر ، لا أحد يتصور أنه كان يلبسها حين يراه بعد العصر في تلك الملابس الباهية وكأنها ملابس حلاق ! الكلمات القصيرة ، وبعض الأحيان العصبية ، خلال ساعات العمل ، تتحول عند الغروب أو في أول الليل الى عذوبة فياضة ، وكثيراً ما يتخللها الغناء والمزاح . لكن هذا لا يدوم طويلاً ، لأن حجة عبده دائماً جاهزة : « الفجر لا ينتظر ولا يتأخر ! » يقولون انه يذهب مبكراً لكي يعمّر رأسه ، والدليل على ذلك أن عينيه دائمة الحمرة ! وهو رغم الطيبة التي تميز سلوكه وعلاقاته سريع الاثارة ، عصبي المزاج . كلمة واحدة تكفي لأن تغيّر عالمه وتجعل منه إنساناً آخر ، يؤكد عبد الله الأبيض ، صاحب الفرن الثاني الذي قام في حران بعد سبعة شهور ، أن « في رقبة عبده قتيلين » وهذا الذي جاء به من تهامة أو سومطرة ، ولهذا السبب أيضاً لم يرجع الى أهله منذ سنوات طويلة . وحين يُسأل عبده متى سيرجع الى

وطنه ويزور أهله لا يجيب اجابات واضحة ، وقد عزز هذا الشكوك حوله ، لكن مع ذلك لم تتغير علاقات الناس به .

لما أقام ابن الراشد الفرن كان عبده مجرد صانع يتقاضى أجراً ، وقد استمرت هذه الصيغة طيلة السنة الأولى ، لكن حين اتسعت مشاريع ابن الراشد وتكاثرت جاء من نصحه أن يشارك الذين يعملون معه ، لأنه تصبح لهم مصلحة في أن تزداد الأعمال ، والأعمال إذا زادت تعطي أرباحاً أكبر ، وقد وجد ابن الراشد في هذه النصيحة حكمة ، خاصة وان « دحام غير قادر على ضبط الدفاتر ، وابن هذال صغير ويمكن يورطنا ، والانسان انسان ، ينسى ، تفوته بعض الأمور ، لأن عقلة ما هو دفتر » وهكذا أصبح عبده محمد شريكاً بالثلث .

منذ اليوم الأول زيّن عبده الفرن بمجموعة من الصور انتزعها من المجلات الافرنجية التي حملها العمال من حران الأميركان ، وقد اختارها بعناية ، ثم اختار امكنة مناسبة فعلقها فيها ، مستعملاً العجين في لصقها .

حين شاهد الكثيرون هذه الصور دهشوا أشد الدهشة ، وظلوا يتأملونها فترة طويلة ، وعلقوا على كل صورة . أما أهل حران ، خاصة بعض المتدينين ، فقد اعترضوا ، لأن الأطفال ، بمن فيهم البنات الصغيرات ، كثيراً ما يترددون على المخبز ، ومن شأن هذه الصور أن تفسدهم ، فطلب ابن الراشد من عبده أن يقتصر على « صور الخيول والقصور والمناظر المحتشمة » وقد استجاب له عبده في الفترة الأولى ، لكن استجابة شكلية ماكرة ، إذ علق فوق الصور التي اعترض عليها صوراً أخرى ، علقها من أعلى فقط ، بحيث يستطيع بنفخة من فمه ، أو بحركة من أصابعه الماهرة ، أن يجعل الصورة العليا « تطير » قليلاً وتظهر ما تحتها ، وقد أوحت له هذه الطريقة بفكرة جهنمية ، إذ ما كادت تقع في يده مجلة مليئة بصورة نساء أشبه بالعاريات حتى تفنن في لصقها ثم في ترتيبها وعرضها . كان يرفع ببطء وإثارة الصورة العليا ، فما تكاد الأجزاء السفلى من السيقان تظهر حتى يبدأ تدريجياً برفعها ، ومع كل حركة صغيرة ، بطيئة ، تزحف الكلمات والتأوهات ، كان يفعل ذلك حين يكون وحيداً ، لكن مع الأيام بدأ يتساهل ، وسمح لبعض الذين يعرفهم ويثق بهم أن يطلعوا عليها . كان يفعل ذلك بعد أن يغلق باب الفرن بإحكام ويتأكد أن لا أحد يراقب .

في وقت لاحق طوّر عبده هذه الطريقة ، بحيث وضع صور نساء ورجال بأوضاع وأشكال يمكن أن تعطي دلالات واضحة ، وأصبحت هذه القضية تشغله ، كما أصبح لا يكتفي بذلك ، بدأ يضع إضافات هنا وهناك بالفحم ، وأعطى النساء أسماء من عنده كما أعطى لوضعيات معينة تسميات خاصة . ثم بدأ يقص ويركب كما يوحي له خياله ، وكان في كل مرة يفعل شيئاً يرضى عنه يبدو شديد السرور والانفعال .

العمل يتزايد ويتسع كل يوم ، والبشر يتكاثرون . أبناء حران بدأوا ببناء بيوت خاصة بهم في أقصى مكان نحو الغرب ، قريباً من التلال . الدكاكين الثلاث التي قامت في الأيام الأول بدأت تتضاعف وتزداد كل شهر ، أما الطريق الى عجرة الذي كان يضيع فيه المرّي فقد أصبح سالكاً بحيث تصل منه قافلة أو أكثر كل أسبوع ، أما ابن الراشد الذي لا يُعرف ما اذا كان مقيماً أو مسافراً ، لأنه كثير الحركة سريع التنقل ، ولا يبوح لأحد بما سيفعل ، فكان كل مرة يغيب فيها أسبوعين أو ثلاثة يرجع مصطحباً معه مجموعة من الرجال ، مجموعة متنوعة الى أقصى حد ، بحيث لا يستطيع الانسان أن يقدر من أين جاءوا أو ماذا سيعملون ، إذ إضافة الى العمال الذين سيعملون في الشركة ، كان يأتي آخرون يقضون أياماً في حران وهم يذرعون الأرض من الشاطىء وحتى التلال البعيدة ، يقيسون بأرجلهم أو بحبال المسافات بين مكان وآخر ، ثم يضعون رجوماً صغيرة من الحجارة هنا وهناك لتعليم الأمكنة وتمييزها . حتى إذا فرغوا من ذلك أخذوا يطيلون التأمل وبعض الأحيان اعادة القياس . ولما تنتهي هذه العمليات ويسافر هؤلاء الناس يستريح أهل حران من أولئك الصامتين الغامضين الأقرب الى السحرة في حركاتهم وتصرفاتهم . لكن ما يكاد يمر شهر أو اثنان حتى يعودوا ، وبعودتهم تضجّ حران وتتقلب ، وخلال فترة قصيرة تقوم مجموعة من الدكاكين الجديدة ، واحدة تصبح مطعماً ، وثانية مخزناً للمواد ، وثالثة لبيع القماش والحبال وأشياء أخرى ، ورابعة تصبح مركزاً لابن الراشد وللذين جاءوا معه لكي يستقبل في هذا المركز المراجعين والذين يريدون أعمالاً ، وفيه توزع الرواتب ايضاً .

وعبده الذي يجد وقتاً ليغني ويمزح مع الأصدقاء أثناء العمل ، وكان يفرغ من العجين في وقت مبكر ، بدأ يواجه أفواهاً تزداد يوماً بعد آخر ، وكان عليه أن يطعم

هذه الأفواه ، فبدل الشوال الواحد من الطحين كان يكفي حران كلها ، بدأت الكمية تزداد اسبوعاً بعد آخر . أما صواني اللحمة التي كان يتفنن فيها أول الأمر ، وكذلك المعجنات ، فلم يعد مستعداً لأن يمد يده اليها الا بعد أن تنتهي اخر قرصة عجين ، وبعد أن يخرج آخر رغيف من بيت النار ، هكذا كان يقول بحدة . أما علاقاته مع أبو كامل اللحام ، رغم المودة في البداية ، فقد أصبحت أكثر برودة ودائمة التوتر ، لأنه وراء الاقتراحات التي يأتي بها الكثيرون من اجل تحضير غداء في الفرن ، وهو عبارة عن كمية من الخضر مع قطع من اللحم ، أو بعض رقائق العجين باللحم ، كان عبده يعرف أن اقتراحات من هذا النوع أوصى بها أبو كامل لكي يخلص من لحمته بسرعة ويستريح .

وإذا كان الكثيرون قد تعودوا على رفض عبده الصلب في البداية ، إلا أن نقاط الضعف التي يعرفونها فيه ، حين يسألونه عن « ولعة » و« راكبة السيف » و« الشقرة » . أو حين يبدأون بنفخ الصور فتتطاير السيقان وتتساقط الأرداف . . عندها يحس عبده أن ذهنه تشتت ومقاومته ضعفت ، فاذا ذكّره أحد بحادثة أو نكتة فعندئذٍ يصبح أكثر استعداداً لأن يسمع ويتنبه . وهكذا يتراجع خطوة بعد أخرى ، فبعد الرفض القاطع يصبح الأمر ممكناً « ليس الآن . . . بعد ساعة أو ساعتين ، إلى أن أفرغ من هذه الأقراص » فاذا وجد الحاحاً أو وجد في نفسه رغبة يتنازل عن كل اعتراضاته ويقول بصوتٍ حادٍ :

ـ أعرف . . أنتم في قلوبكم تقولون ان عبده مثل حمار العرس ، ظهره قوي ويحمل . . . لكن في يوم من الأيام تطلع برأس عبده . . . وعندها الله يستر

وبطريقة لا تخلو من المكر يقولون له إنه اعظم رجال حران وأكثرهم كرماً ، ولذلك هم يطمعون به ، يحبون الأكل الذي يخرج من بين يديه ، ثم ان ساعة معه ، وفي هذه الجنة : الأنهار والجبال والحور العين ، هي التي تجعل الحياة ممكنة في حران . وتبدأ أصابعهم الخشنة تمتد الى الصور تقلّبها ، فما يكاد يرى العبث وقلة الدراية بتقليب الصور حتى يصرخ :

ـ النار . . . النار . . . .

وحين يتطلعون نحوه مذعورين يضيف بلهجة ساخرة :

ـ يا جحاش أنت وهو . . هذا الرزق لازم الواحد يتعامل معه مثل ما يتعامل مع

الجفن والعين : رقة ونعومة . . . والآ راح . . .

يتوقف لحظة يتطلع اليهم ، يهز رأسه ثم يضيف :

ـ الواحد منكم يتصور نفسه يعقل ناقة أو يقطع حجراً . اتقوا الله . قولوا الحمد لله ، ربنا أنت وحدك المعبود لأنك خلقت لنا مثل هذا الحسن . . إنك جميل وتحب الجمال .

وبعض الأحيان ، إذا رق مزاجه ، يسترسل ، يقول شعراً خالصاً ، وقد يغني . إن ذلك يتوقف على حالته النفسية ، على مدى التعب ، وبعض الأحيان يتوقف على ردود الأفعال التي تصدر عن الذين حوله .

هكذا كان عبده محمد . . . . وهكذا ظل لفترة طويلة .

واذا كانت حران قاسية خانقة حتى بالنسبة للذين كانوا فيها من قبل ، فانها بالنسبة للذين يأتون اليها أكثر قسوة ، إذ تولد في صدورهم حالة من الانقباض يشعرون بها منذ الساعات الأولى لوصولهم ، إلا إذا وصلوا في الشتاء ، وتظل هذه الحالة تزداد يوماً بعد آخر ، مع ما تجره من الضيق والحدة في الطبع ، وبعض الأحيان الهياج الذي يؤدي الى العراك .

ورغم أن الفرن باللهب الذي ينبعث من بيت النار شديد الحرارة في الصيف والشتاء ، في النهار ومعظم ساعات الليل ، ولا يقوى أحد على تحمله ، خاصة عندما يتوقف الهواء وتصبح السماء ثقيلة فوق حران ، فقد كان بالنسبة لعبده مكان العمل ومكان النوم ، والمكان الذي يقضي فيه أغلب الوقت ، حتى لو لم يكن يعمل أو لم يكن نائماً . فسر بعض الناس الأمر بأن عبده « يكيف » خلال هذه الساعات ولا يريد أحداً أن يراه أو يعرف ذلك . كان يغلق الباب بإحكام ولا يردّ على الطرقات التي قد يطرقها من يبحث عن الخبز ، إذا فاته الحصول عليه . وقد يطرقها بعض معارفه ، أو من يعتبرون أنفسهم أصدقاءه . فاذا توالى الطرق واستمر فترة طويلة فكان يخرج صوته كما لو أنه صادر من بئر عميقة :

ـ يفتح الله . . نقّفنا واغلقنا .

فاذا استمر الطرق أكثر من ذلك وترافق مع أصوات تطلب منه أن يفتح كان يتقدم حتى يصبح في مواجهة الباب من الداخل ويصرخ :

ـ يا عباد الله . . اتقوا الله ، اتركوا الناس بهمومها ومصائبها . . اتركونا نستريح .

لقد تكررت مثل هذه الحالة مرات ، وتكررت إجابات عبده وتكرر موقفه . ولذلك تأكد الكثيرون أن الامر أمر « الكيف » لكن أحداً لم يقل ذلك بصوت عالٍ أو بقصد الاساءة أو الوشاية ، لأنهم يحبون عبده ، ولا يتصورون أنفسهم قادرين على العيش بدونه ، فقد أصبح جزءاً من حياة حران الجديدة .

وقال آخرون « لا كيف ولا حاجة من هذا الكلام الفاضي . . عبده عابد الصور ، يظل يقلبها ويتفرج عليها حتى يغفو فوق صدر واحدة . . . وينام ! » .

ولم يعرف أحد على وجه الحسم واليقين لماذا عبده هكذا . وحين يسأل يجيب بأسئلة من نوع آخر :

ـ لازم أعرف من هو إبن الجربة ، إبن الحكاكة اللي ما خلاني أنام . . .

ويتطلع بعيون متهمة لعل من يسأله يكون هو ذاته الذي طرق عليه هذا الطرق في الليلة الفائتة ، لكن أحداً لا يعترف ، فيهز عبده رأسه ويتابع :

ـ يمكن أحد دفع له قرشين وقال له عكّر مزاج الناس ، بعبص كيفها !

ويتباطأ كأنه يكلم نفسه :

ـ أولاد الحرام بالدنيا لا بد أن ينكشفوا ، لأن من حفر حفرة لأخيه وقع فيها .

وفي محاولة لأن يطيبوا مزاجه ، يوافقونه على ما قاله ، ثم يغيرون مجرى الحديث ، حتى إذا صار طبيعياً طلبوا منه أن يريهم آخر الصور التي حصل عليها ، وكيف رتبها وما هي الأسماء الجديدة التي اعطاها للحسان الجديدات . كان يستجيب بعض الأحيان ، وكان يرفض أغلب الأحيان . وكطريقة لقطع الطرق على الذين يسألون ولا يريد أن يجيبهم لطلبهم يقول ساخراً :

ـ إتركوا قصص الشيطان يا جماعة . . .

ويتطلع في وجوههم ويسأل :

ـ ما عندكم شغل ؟ ها . . احكوا . .

ولا ينتظر اجابة ، يضيف وهو يضحك :

ـ مثل ما قالوا : اللي ما عنده شغل يلعب بخصيانه .

وبعد أن يستريح ويتنحنح ويذهب بعيداً في أفكار وذكريات كثيرة متداخلة يقول كأنه يحدّث أشباحاً :

ـ يا جماعة . . خلوا الناس تشتغل . . بعد ساعة كل واحد منكم جوعان وهات خبز يا عبده .

أما إذا راق مزاجه تماماً فكانت دائماً لديه صور جديدة ! فما يكاد يرى الجو قد أصبح مناسباً حتى يجرّ من مكان خفي مجموعة من الصور « يا دين النبي ، شوفوا . . شوفوا يا جماعة الخير : الشعر شعرٍ فرس ، الجبين يضوّي ، العيون ولا عيون غزال والفم لوز ، أحلى من اللوز ، الخدود حمرا . . تفاحة ، يا صلاة النبي ، الصدر مرجوحة . سلامي عليك يا سيدنا الخضر ، وألف تحية لك يا من كنت في بطن الحوت . والبطن . . البطن يا جماعة . . آخ . . . آخ ! » ويتوقف ، يلتفت الى الذين يسألون ، يتطلع اليهم لكن لا يراهم ، حتى إذا عاد من رحلته وتطلع الى الصورة من جديد ، قال : « لو واحد شدّ على الخصر ينقطع » ويضرب على الدكة العالية حيث يضع العجين ويجيب نفسه : « ينقطع نَفَسه ، تنقطع رقبته قبل ما يقطعه ، يموت قبل ما يفعل فعلة اللئام . . . » .

فاذا سأله أحد أن يتابع وصفه ، أن يذهب أبعد وأعمق . ينظر بحزن ويقول « عند الخصر أدركت شهرزاد الصباح وسكتت عن الكلام المباح » .

في مرات قليلة ، وأمام أصدقاء قليلين جداً تابع ، قال أشياء شديدة الجمال والرقة ، وكانت مع الكلمات تخرج من الأعماق زفرات حارة ، أشد حرارة من هب الفرن ، وكان الرجال يسافرون ، فاذا عادوا من أسفارهم شعروا بآلام حادة في أجزاء عديدة من أجسامهم ، ومع الآلام كانوا يشعرون بالتعب أيضاً .

استمرت الحال هكذا شهوراً طويلة . حران تكبر والبشر يتكاثرون . عبد الله الأبيض أقام فرناً جديداً بالتعاون مع الدباسي . التنافس بين الفرنين يزداد ، ومع التنافس الاشاعات والخصومة . لكن عبده لا يأبه كثيراً لما يقال ، يسمع وينسى . الحرب بين ابن الراشد والدباسي تتسع وتتشعب ، والفرن ليس إلا أحد الميادين ، وربما أصغر الميادين وأقلها أهمية . حران تغرق في الحرارة والرطوبة والوجوه الجديدة والمفاجآت . وعبده يروق مزاجه يوماً ويعتكر في يوم آخر . الناس تعودوا عليه وبدأوا يعرفون كيف يتعاملون معه بشكل أفضل . وإذا كان عبء الخبز لا يزال يقع القسم الأكبر منه على عاتق عبده ، فقد تخلص من عبء الأكل ، إذ قامت في حران مطاعم من مختلف الأنواع : صغيرة . . تقدم أنواعاً محدودة من الأكل ، تناسب العمال ،

وأخرى أكبر منها وأعلى سعراً ، ثم مجموعة من الدكاكين التي تبيع المعلبات وبعض الخضر والفواكه ، إضافة الى باعة الحلوى .

وعبده الذي شغل الكثيرين في بداية الأمر ، وكان الناس يتتبعون أخباره وأخبار الصور التي وصلت اليه ، بدأت امور أخرى تشغلهم ، ولم يعد أغلبهم يتذكر عبده وصوره الا اذا رآه ، إذا مر لشراء الخبز ، وخلال الدقائق القليلة التي يستغرقها الشراء . ـ فيما لو كان الجو ملائماً ـ فإن الأسئلة ذاتها تتكرر : « ما هي أخبار الصور الجديدة ؟ متى نراها ؟ » وعبده الذي لا يجيب ، أغلب الأحيان ، ويظل منهمكاً في العمل ، يعرف متى يظهر صوره ومتى يخفيها ، ويعرف أكثر من ذلك أمام من يفعل ذلك .

وفي دوامة الحياة اليومية ومشاغلها التي تزداد وتتعقد يوماً بعد آخر يغرق الناس في همومهم . ورغم كثرة البشر وتزايدهم بلا حدود ، ولا توقف ، فإن كل انسان يصبح عالماً مغلقاً . والتعامل بين الناس الذين جاءوا من أماكن كثيرة ومتنوعة وربما متنافرة ، يصبح حذراً ومحفوفاً بالمخاوف . وفي خضم هذه الدوامة لا يحس الكثيرون بالتغير الذي يجري حولهم ، لأنهم يرافقونه يوماً بعد يوم ، ويصلهم دفعة بعد أخرى ، حتى إذا تراكم وتضخم فاجأ الكثيرين .

وعبده الذي ظل يمارس عمله في الفرن ، لم يلحظ الكثيرون ، وهم يتناولون الخبز من يديه ، التغيرات التي بدأت تنسحب على وجهه ، خاصة العينين ، وعلى جسده ثم على تصرفاته . فالوجه الساهم ، الأقرب الى الشحوب ، ثم العينان اللتان غارتا الى الداخل كثيراً ، واليدان المرتجفتان ، واللتان تزدادن ارتجافاً كل يوم ، بالاضافة الى الصمت والغرق في حالة من الذهول ، هذه التغيرات التي بدأت تزحف اليه لم تلاحظ فجأة ، أو دفعة واحدة ، حتى هو نفسه لم يفطن الى ذلك . صحيح أن رجفة اليد بدأت تضايقه ، خاصة عندما يكون مع آخرين ، لكن عزا الأمر الى التعب وكثرة العمل . أما الملابس التي كان يحرص على ارتدائها بعد العصر وفي أول المساء ، وكانت دائماً نظيفة ، أنيقة ، فقد بدأت تصبح أقل نظافة وأقل أناقة .

في وقت متأخر ، ربما نتيجة خطأ وقع فيه ، أو نتيجة مكر أوقعه فيه الآخرون ، بدأ اللغز الذي كان أول الأمر شديد الغموض يتضح ، إذ بعد تردد طويل اعترف

للذين يثق بهم ، إعترف بأنه يحب ، ولم يضف كلمة أخرى ! من هي المرأة ؟ كيف تعرف بها وأين ؟ لم يعرف أحد شيئاً .

ويوماً بعد آخر يغرق عبده في العشق والعذاب ، ويغرق في الصمت والعزلة أكثر . . أيضاً . وإذا كان بعض الذين قالوا في بداية الأمر أن عبده « كَيّف » ، وفي وكره لا يفعل شيئاً إلا أن يعمّر رأسه ، فقد تأكدوا الآن ، أكثر من قبل ، من صحة استنتاجهم . أما الخصومات التي نشأت بين ابن الراشد والدباسي ، وطول لسان عبد الله الأبيض ، فقد ذهبت ببعض الناس الى تفسير العزلة ، أن عبده بدأ يخاف أن يؤخذ بثأر قتلاه ، إذ ربما جاء أحد أقربائهم ، ولا بد أن يصطاده بشكل أو آخر ، ولذلك أخذ كل الحيطة وابتعد لعله . . ينجو .

والذين افترضوا منذ البداية أن عبده عابد للصور ومشغول بها ، فقد ذهبوا بعيداً في سوء الظن ، خاصة بعد رجفة اليد ، التي اصبحت شديدة الوضوح ، قالوا إن عبده غارق في العادة السرية ، وأنه يمارسها عدة مرات في اليوم ، ولولا ذلك لما تدهورت صحته هكذا .

وعبده الذي تصله بعض الأقاويل ، ولا تصله أخرى ، في عالم آخر ، مشغول بقضية لا يعرفها الناس وإذا كان قد صمت وتحمل طويلاً وحده ، ومثلما وقع في الخطأ ، المرة الأولى ، أو نتيجة مكر أوقعه فيه الآخرون . . . واعترف ، فإنه يواصل اعترافه مرة أخرى . . .

فبعد الكثير من الإلحاح ، وفي لحظة من الضعف لم يستطع أن يصمد ، أخرج صورة من جيبه ، أدارها في وجوه الذين كانوا حوله ، واعترف بخشوع أقرب الى الخوف ، وقد كان صوته باكياً :

ـ هذه هي . . .

ولما استغرب الرجال واستنكروا ثم بدأوا يسخرون قال بصوت متهدج :

ـ كانت في الباخرة التي وصلت الى حران . . ذاك اليوم !

وفهموا أنه يقصد باخرة الشيطان ، الباخرة التي وصلت في الأيام الأولى ، فلما تأكد انهم فهموا أية باخرة يعني تابع :

ـ أول ما وصلتْ تطلعتْ اليّ . تركت الجميع وتطلعت إليّ . . ولم تتركني !

وبعد قليل أضاف وكأنه يحدّث نفسه :

ـ كانت تبتسم بفرح ، كانت تضحك . وفي اليوم الذي سافرت الباخرة تركت الجميع وظلت تتطلع اليّ وتبتسم . . حتى لما ابتعد المركب ظلت تلوح وتبتسم .

سمع الرجال ولم يعلقوا .

وانتاب الجميع مشاعر الشفقة والخوف ، خاصة وهم يرونه في حالة من العذاب الشديد ، وبعد فترة ليست قصيرة قال :

ـ وجدت صورتها في مجلة ، وإذا جاء من يقرأ سوف يقرأ عنوانها ويكتب لي رسالة وأرسلها إليها . . وسوف تأتي . . .

القرابة غير الواضحة التي تربط الدباسي بأهل حران تجعل الجميع ينادونه : يا عم . حتى من كانوا في مثل سنه أو اكبر قليلاً ، كانوا ينادونه بهذه الطريقة ، دلالة على الاحترام . جاء الى حران في الشهور الأولى ، وربما بعد وصول « باخرة الشيطان » بأسبوعين أو ثلاثة . يقول ابن الراشد إن « اهل حران مهابيل ، قالوا اللي ما عنده كبير لازم يدوّر على كبير ، لازم يشتري له كبير ، بعثوا طارش ليبحث لهم عن عزوة ، عن وتد فجاء لهم بعفريت ، جاء لهم بزاوية ومحراث » .

ويبدو أن خوفاً دخل الى قلوب الناس وهم يرون الغرباء يأتون افواجاً بعد افواج ، ورأوا الاميركيين ثم تلك الباخرة ـ اللعنة التي غيرّت حياة الكثيرين ، وكانت قبلها التراكتورات قد بدأت تحرث الأرض وتهدم البيوت وتطمر البحر . ولما بدأ ابن الراشد يلتقط الشباب ليبعث بهم الى حران الأميركان ، فقد وصل الخوف بأهل حران درجة لم يعرفوا معه كيف يتصرفون . . كانوا يريدون لهم إنساناً كبيراً وقوياً ، لعله يحميهم ويقف في وجه هذه الموجة التي تتقدم نحوهم يوماً بعد آخر . . وجاء الدباسي .

لا يدرى أي شيء قيل للدباسي ، وما الذي حفزه على المجيء بهذه السرعة ، فقد

كان خلال فترة طويلة مقيماً في عجرة ، او بكلمات أدق كانت له دكان في عجرة ، وفيها يقضي وقتاً من السنة ، لكنه كان كثير الأسفار على الطريق السلطاني ، ولم يصل الى حران الا منذ مدة طويلة ، وصلها مرتين ، الأولى في أول شبابه والمرة الثانية قبل خمس سنين . واذا كان بحكم اسفاره والدكان التي له في عجرة على صلة بأهل حران ، سواء بحمل الرسائل خاصة رسائل المسافرين او الدراهم التي يرسلونها ، فقد كان ايضاً يرسل قافلتين أو ثلاثاً سنوياً الى حران لتأمين ما تحتاجه من مواد . وكان بحكم القرابة ، أو ربما لأسباب أخرى ، كريماً معهم ، وان ظل متشدداً في معظم عمليات البيع والشراء ، وقد تعوّد عليه أهل حران ، المقيمون منهم والمسافرون ، فكانوا يودعون لديه أموالهم ويستلفون منه ، وكان الواحد منهم أول وصوله الى عجرة يسأل عنه ويزوره .

لم يستغرب أهل حران ، اذن ، مجيء الدباسي بهذه السرعة ، بل فرحوا بذلك فرحاً شديداً ، لكن الأمر بدا غريباً لابن الراشد وقالا مستاً . فما كادت ايام قليلة تنقضي ، والدباسي باقٍ ، ويطيل التشاور مع أهل حران ، حتى دبّت بين الرجلين خصومة صامتة . وإن ظلا يحافظان على المودة الظاهرة والاحترام ، وبدا واضحاً ايضاً ان كلاً من الرجلين يرتب اموره ويهيّء نفسه للمرحلة القادمة .

فأهل حران الذين اختاروا الجهة الغربية ، وبدأوا يبنون منازلهم هناك ، تراجعوا عن اكثر ما قالوه لابن الراشد حول الأراضي ، واخذوا يماطلون ويؤجلون ، وإذا كان بعضهم قد تصرف ببيع الأراضي التي كانت عليها بيوتهم ، فقد أخذوا يتشددون في أية عروض جديدة تقدم اليهم ، حتى الأرض التي قامت عليها حران الاميركان قالوا إنها كانت مراعي لماشيتهم ، ولأنهم حرموا من هذه المراعي فلا بد أن يتلقوا تعويضاً مقابل ذلك ، وأشاروا بغموض الى انهم بعثوا الى المسؤولين لكي ينصفوهم قبل ان تتطور الأمور .

والدباسي الذي قضى شهراً او يزيد في حران ، وأشرف بنفسه على تأسيس بعض البيوت في الجهة الغربية ، قفل عائداً الى عجرة ، على ان يعود مرة أخرى ، وفي أقرب فرصة ممكنة . واكد أنه سيطلب من جميع الحرانيين الذين سيلقاهم ، أو يستطيع الاتصال بهم أن يعودوا الى حران بأسرع وقت . وهو الذي أشار على اهل حران ان « يمسكوا الأرض بأسنانهم ، لأنها رأسمالهم الوحيد » . ولذلك ذهبت

محاولات ابن الراشد ، والاتفاقات الأولية التي أجراها معهم في متاهات جديدة ومعقدة من المفاوضات والانتظار . لكن ابن الراشد لم يتوقف ولم يسلم ، اذ بدأ حربا من نوع اخر ، فقد طلب من البعض ان يبلغوا اهل حران ان « الأرض كلها للحكومة ، والحكومة هي التي تعطي وتأخذ ، ثم ان الأرض لا تطعم ولا تسمن ، والأفضل ان يأخذوا ما يعرض عليهم الآن . . . لأنه قد يأتي يوم تؤخذ منهم الأرض ولا يحصلون على أي شيء ، ويصبحون مثل معايد القريتين » .

وأهل حران الذين سمعوا من الدباسي وهزوا رؤوسهم ، ثم سمعوا ما نقل اليهم عن ابن الراشد ، عاشوا في حيرة مريرة . فهم لا يعرفون هل يبيعون أم لا يبيعون . وإذا باعوا هل ما يعرضه عليهم ابن الراشد هو ثمن مجز أم لا ؟ وإذا لم يشتر هو فمن سيشتري غيره ؟ من يملك المال ويشتري ارضاً لم يفكر احد من قبل ببيعها أو شرائها ؟ وهل الأراضي هي لهم فعلاً يستطيعون ان يتصرفوا بها دون أن تحاسبهم الحكومة ؟

إبن الراشد يذهب الى حران الأميركان ، يقضي هناك الساعات الطويلة ، وبعض الأحيان يسهر ، او يعود ببعض الأميركيين لكي يسهروا عنده ، وهؤلاء الذين يأتون ، قبل ان يدخلوا خيمته يتمشون على الشاطىء ، يصلون الى التلال الغربية ، يتأملون وجوه الناس، ولا يترددون في أن ينبسطوا مع الكبار والصغار . كان عدد منهم يعرف العربية ، لكنهم ينطقون الكلمات بطريقة مضحكة ، فاذا انتهت هذه الجولة ، مع ما يتخللها من أحداث تبدو بنظر الناس على جانب كبير من الأهمية والدلالة ، يدخلون خيمة ابن الراشد فيذبح لهم ويولم وليمة كبيرة ، حتى اذا انتهت السهرة ، لا ينتظر طويلاً لكي يبعث برسول او اثنين الى أهل حران ، عارضاً عليهم ان يشتري الأرض منهم ، ان يسعدهم اذا اعتمدوا عليه ، اذا وثقوا به ، ومع الوعود السخية تهديدات غير مباشرة .

وتزداد حيرة اهل حران ويزداد خوفهم . ماذا يفعلون والى متى ينتظرون ؟ والدباسي الذي سافر وتأخر في عجيرة لا يعرف ما اذا كان سيعود ام لا . وحتى لو عاد فهل هو بقوة ابن الراشد او يستطيع مقاومته ؟

كانت الأفكار والشكوك تتكاثر وتزداد بزيادة الحركة وتكاثر البشر، فاذا طال انتظار

أهل حران او استمر ترددهم يبعث ابن الراشد من يقول لهم :

- ابن الراشد لم يرسلني . . جئت وحدي . . .

وحين يظلون صامتين وعيونهم معلقة بفمه يضيف :

- لا بد انكم سمعتم ما صار بوادي العيون ، ما بقي فيها بيت ولا بقي فيها أحد . رحل اهلها كلهم . صار كل واحد منهم تحت نجم : جماعة في الشرق وجماعة في الغرب . . وهنا ، في حران ، بين العمال ، عدد من اهل وادي العيون . . .

يتوقف قليلاً حتى يستوعب الجميع الدرس ، حتى يستعيدوه في ذاكرتهم وقلوبهم ، ويتذكروا معه أبناءهم المسافرين ، فيتابع كأنه يخاطب مجهولاً :

- العقل للانسان زينة ، والعاقل اللي يعرف كيف يتصرف ، يأخذ ويعطي ، يبيع ويشتري . أما إذا عاند يضيّع الأول والتالي .

فاذا استقر هذا النغم في وجدان الناس تركهم هذا الرسول وأتى غيره في اليوم التالي ، وبطريقة تراوح بين الإغراء والتهديد يسأل :

- ها . . . ما قول النشامة ؟

وتتساءل عيونهم فيتابع :

- ابن الراشد يقول : الأرض من المقبرة حتى التل الغربي الأخير لأهل حران ، هم وحدهم ، لا يشاركهم فيها أحد ، ومن المقبرة حتى السوق تباع لمن يشتري ، والسعر سعر السوق ، وابن الراشد ، اذا بعتموه يدفع كوماً فوق سعر السوق .

وباع بعض أهل حران واشترى ابن الراشد . اشترى من عدة اشخاص . واثناء عمليات البيع والشراء تعمد ان يحضر عدداً من الناس ، وان يفتح كيسه بسخاء ، كما كتب أوراقاً ، كتبها له دحام وابن هذال ، وقد أخذ بصمات الذين باعوا واشهد على ذلك عدداً من الناس الحاضرين . استغرب أهل حران هذه الطريقة في البيع ، اذ لم يتعودوا ان يكتبوا اوراقاً ، أما البصمات التي أخذت فقد أثارت الكثير من الارتياب والخوف ، ورفض احدهم ان يضع بصمة إبهامه على الورق ، وقال ان لديه خاتماً كان قد صنعه في الشام قبل سنوات ، وابن الراشد الذي وافق على الخاتم وبصمات الشهود قال وهو يبتسم :

- يا جماعة الخير الرجل باع وانا اشتريت ، وهذا القرطاس ما له قيمة ، كلمة

الرجال فوق كل ورقة وكل مال ، لكن الدنيا حياة وموت ، والأرض التي باعها الخويا ، هي من شرق المقبرة حتى الجامع . . وانتم شهود .

وبطريقة بدائية مقصودة حددت الأراضي التي اشتراها ابن الراشد ، حددت برجوم من الحجارة في الزوايا ، بعد أن استعمل حبلاً في قياسها ، وقد أقام في بعضها مخزناً للأخشاب التي حملها من حران الأميركان ، ووضع في قطعة كبيرة اخرى اكواماً من الحجارة جلبها على الجمال من المحاجر الواقعة غرب حران ، كما نقل مربط الجمال من طريق عجرة الى مكان قريب من السوق .

كان ابن الراشد يتحرك بسرعة وثقة ، وهذه الحركة السريعة بمقدار ما كانت تثير الاعجاب كانت تثير الحسد والمخاوف ، خاصة وأن الأميركيين الذين يأتون الى حران العرب ، ويزورون ابن الراشد ، بدأوا يقضون وقتاً اطول بين الناس ، ووقتاً طويلاً مع ابن الراشد ذاته ، دون أن يرافقهم النصّيص ، كما كان يحصل من قبل ، كما أنهم لا يفعلون شيئاً سوى الحديث مع الناس وسؤالهم عن كل شيء .

قال الكثيرون ان هؤلاء الذين يتكلمون العربية مسنون ، ولذلك لا يستطيعون العمل . وقال آخرون انهم كفرة ويريدون ان يصبح الناس مثلهم . وهم مثل الشياطين يتحركون من مكان الى آخر ، وابن الراشد معرّف الشياطين .

ما كادت ثلاثة شهور وبضعة أيام تنقضي حتى عاد الدباسي . جاء ومعه إثنان من ابنائه وثلاثة من أقاربه . جاء هذه المرة لكي يبقى في حران ، ليسكن فيها ويستقر ، بعد أن ترك ابنه الأوسط في عجرة . وبمجيئه بدأت مرحلة جديدة في حران .

* * * *

بالرغم من تأخر الدباسي ، فقد كان شديد الثقة وهو يصل . كان ذلك واضحاً منذ الليلة الأولى ، ثم جاءت تصرفاته بعدئذ لتؤكده . فالأسفار التي حملته الى أمكنة بعيدة ، حتى انه وصل الى مصر، وركب البحر ثلاث مرات ، مرة من بور الاسكندرية الى حيفا اثناء الحرب ، ومرتين من بيروت الى غزة وبور سعيد بعد الحرب بسنوات قليلة ، ثم أسفاره في الطريق السلطاني ، والتي كانت تتكرر مرتين الى ثلاث مرات كل سنة ، فيصل الى العراق والشام وشرق الأردن وفلسطين، إضافة

الى روح المغامرة التي كانت تميزه في عمليات البيع والشراء، هذه الأسفار وتلك الروح جعلته يقرر، دون تردد، اختيار حران موطناً جديداً، وقد استعد لذلك، وجاء مصحوباً بأولاده وأقربائه.

كان في أعماق نفسه قد قرر ان يعمل دون اعتبار لابن الراشد او غيره « الأرض كبيرة ، تسع الجميع ، الشاطر وذراعه . . والأيام بيننا ! » هكذا قال لمجيل الخرسا ، شريكه في عجرة ، والذي رفض أن تمتد الشراكة بينهما الى « هذه المقبرة التي لا تصلها حتى العفاريت » ، واعتبر الخرسا ان شريكه يغامر أكثر مما ينبغي ، وان هذه المغامرة تصل حدود المخاطرة . فاذا كانت مغامرات سابقة للدباسي قد نجحت ، حين اشترى رعية غنم ، ذات مرة ، دون أن يكون في جيبه ثمن رأس واحد ، وكيف انه باع الرعية في اليوم التالي وربح مبلغاً لم يحلم به ؛ وحين اشترى قافلة تموين كبيرة من الطحين والسكر والقماش ، ودفع ثمنها كل ما عنده ثم هبوط الأسعار في عجرة ، نظراً لوصول قوافل أخرى من أمكنة متعددة ، وكيف أصرّ على ان لا يبيع بخسارة ، متحملاً الانتظار ، مع ما يجره ذلك من احتمال ان يدوّد الطحين ، ثم السيل الذي جاء فجأة فأعاق القوافل وأدى الى ارتفاع الأسعار مرة ثانية ، والأرباح التي حققها الدباسي في تلك السنة ؛ هذه الحوادث وغيرها كثير تدلل على الروح التي يتمتع بها ، واستعداده لأن يغامر ويبدأ من جديد . لكن تلك المغامرات اذا كانت قد نجحت فليس معنى ذلك ان مغامرة من النوع الذي يقدم عليه الآن يمكن ان تنجح . ومع ذلك ، وابقاء للشراكة ، وتعبيراً عن الثقة واستمرار العلاقة بين الشريكين ابقى الدباسي ابنه ، جاسر ، في عجرة ، وجاء مع ابنيه الآخرين : صالح الكبير وحمدي الصغير .

وصل دون ضجة ، ودون مظاهر ، ونزل عند اهل حران ، مثلما فعل في المرة الماضية . وخلال الليلة الأولى فهم ما حصل منذ غيابه وحتى يوم وصوله . أبدى اسفه لأن بعض أهل حران باع أرضه ، لكن لم يلحّ كثيراً ولم يتوقف عند هذه النقطة . اعتبر أن ما حصل قد تم ولا حاجة للحسرة او الندم ، قال في نهاية السهرة :

ـ أهل حران أولى من الغرباء بهذا الرزق ، فاذا كان الغرباء فتحوا حلوقهم وبطونهم ووصلوا الى هنا ، مثل ابن الراشد وغيره ، فيلزم ان نكون أحرص من النمل واخبث من أبو الحصيني !

ولم ينتظر . . . بدأ منذ اليوم التالي .

ركز على العقارات اولاً ، ثم على التجارة . وقال لابن الراشد في اليوم الثالث ، أثناء الدعوة التي أقامها له :

ـ نحن أبناء الطريق السلطاني لا نعرف غير التجارة . نبيع ونشتري . نخسر مرة ونربح مرتين ، ومرة نحمل مرة ، أما غير ذلك فأنت أولى به .

ارتاح ابن الراشد لهذه الكلمات ، لكن لم يفهم القسمة . ماذا يستطيع ان يعمل وماذا يعمل الدباسي ؟ وإذا كان الدباسي يبدو متواضعاً ودوداً هكذا فالى متى يستمر كذلك ؟ وحران هل تحتمل اثنين ، مثله ومثل الدباسي ؟

قال الدباسي لأهل حران :

ـ يا جماعة الخير : أهل حران هم العصب ، هم عظم الرقبة .. لا تخافوا . . .

وحين صمت أهل حران ، على عادتهم ، أضاف بنوع من التزق :

ـ انتم لا تحتاجون الى الناس ، الناس يحتاجون اليكم . صحيح انكم فقراء اليوم ، لكن كل الناس يقولون الذهب تحت أرجلكم . . . اصبروا . .

وظل اهل حران صامتين . نظروا اليه نظرات أقرب الى المسكنة ولم يتكلموا .

قال مثل أب :

ـ القضية سهلة وصعبة وما هي مثل قبل . امسكوا الأرض عضوا عليها بأسنانكم اعتبروا أن كل شيء مثل ما كان . لا تبيعوا حتى لو انقلبت السماء على الأرض . ظلوا في مكانكم .

وبعد كثير من الجهد فهم أهل حران ان الدباسي يريدهم ان يصبروا ، ان ينتظروا، وفهموا اكثر من ذلك ان يتركوا له حرية التصرف ، لكن مع ذلك ظلوا صامتين ، فقد شعروا انهم يدخلون معركة لا يعرفون الى ما ستنتهي . كان أمامهم هذان الرجلان فقط : ابن الراشد والدباسي . واذا كانوا قد عرفوا الدباسي من قبل ، من خلال المعاملات التجارية فقط ، من الرسائل والقوافل التي تأتي كل سنة ، فانهم منذ شهور وحتى الآن لا يرون أمامهم سوى ابن الراشد . يعرف

كيف يتكلم . كيف يبعث الرسل ، ويعرف أكثر من ذلك كيف يرغمهم على ان يقدموا له ما يريد . الآن ، والدباسي يتكلم بهذه الطريقة ، لا يعرفون ماذا يريد منهم . صحيح أنهم رحلوا من المكان الذي كانوا فيه ، وبدأوا مرة اخرى ، وأنهم يرون حولهم الحياة كيف تموج وتتغير ، وإن الغرباء يزدادون كل يوم ، ولم يعد أي شيء مثلما كان من قبل ، لكنهم لا يعرفون ماذا يفعلون ، وأي شيء يطلبه الدباسي .

قال له أحد الرجال المسنين :

ـ يا عم صبرنا طويل . أولادنا سافروا ، رحلوا من سنين ، قلنا الحركة بركة ويرجعون . إذا لم يرجعوا هذه السنة يرجعون السنة التالية ، نحن ولله الحمد . اصبر من الجمال ، لكن من يوم ما جاءت العفاريت الدنيا تغيرت . ومن يوم ما جاءت البلية حتى أولادنا تغيروا علينا . وأنت تشوف ، ما ظل أحد الا وجاء . ما عسانا نفعل اليوم وباكر والدنيا صارت خراب ؟

هكذا قال الرجل المسن ، وقال غيره أشياء اخرى . والدباسي يسمع ، يهز رأسه ، يوافق ، حتى اذا انتهوا قال وهو يعبث بلحيته الصغيرة :

ـ حران القديمة ، التي تخبروها ، راحت ، اندرست ، ما بقى منها غير الجامع والمقبرة ، ويجوز باكر أو عقب باكر يجي ابن الراشد أو غيره وبدل الجامع يعمر تياترو ، وبدل المقبرة يسوي كرخانة ، لأن من كان من غير هذه الأرض ، من غير هذه الديرة كل أرض بالنسبة له ارض ، والبشر مثل بعضهم ، ابن الديرة مثل الغريب ، والمسلم مثل اليهودي . . .

كانوا يتابعون ، ينصتون اليه باهتمام ، وإن لم يفهموا بعض الكلمات التي استعملها ، وبدا له انه ذهب بعيداً ، غيرّ جلسته وقال :

ـ هالحين اهم شيء اهل الديرة . كل واحد يأخذ حقه ونصيبه ، واذا الناس أكلت وشبعت وزاد شيء فأهل حران أكرم منهم ما تلقى ، وبعدها اهلاً بابن الراشد . وغير ابن الراشد .

وفهم أهل حران تلك الليلة ان حرباً قاسية ستقع ، وان الخصم سيكون ابن الراشد . لكن لم يفهموا تماماً هل هو خصمهم أم خصم الدباسي ، وناموا تلك الليلة حائرين ، وانتابتهم المخاوف .

من اوائل الاعمال التي اقدم عليها الدباسي ، دون تردد ، ولا بد ان يكون قد فكر في الامر منذ كان في حران المرة السابقة ، واتخذ قراراً بذلك : الزواج بحرانية !

اذ ما كاد الاسبوع الاول ينقضي ، والحياة تموج وتتغير كل يوم ، والدباسي يخلق نوعاً من التماسك والاستقرار بين الحرانيين ، وفي احدى الليالي التي ضمت اكثر الرجال ، وبين الجد والمزاح ، او كطريقة لخلق المزيد من الثقة والارتباط بين المقيمين وهذا الوافد الجديد ، قال الدباسي في لحظة هيأ لها جيداً :

ـ اسمعوا . . يا جماعة الخير . . .

انتبهوا ونظروا اليه . كان بوجهه المستدير ولحيته الصغيرة في لحظة من لحظات القوة والثقة ، عبّر عن ذلك بابتسامة واسعة وهو يشد لحيته ، فلما تأكد انهم يستمعون تابع :

ـ اذا كنتم تريدونّا اربطونّا .

ولم يفهم احد من اهل حران . ضحك بصوت عالٍ ، وكانت ضحكته اقرب الى القهقهة :

ـ من يوم آدم . . الطريقة اللي تربط الرجل هي المرا . اذا تزوج الرجل يرتبط

بالارض والعشيرة ، يصير واحداً من الارض والعشيرة .

تطلع الرجال في وجوه بعضهم بعضاً وتطلعوا الى الدباسي . بدا الموقف واضحاً أو قريباً من الوضوح ، لكن لم يتكلم أحد منهم . فلما وجدهم صامتين سأل :

ـ ما قول الرجال . . . تريدوننا ام نرحل . . نرجع لاهلنا ؟

وفهمت ضحكات الرجال ونظرات التساؤل التي تبادلوها فيما بينهم على انهم موافقون ، لكن من سيكون نسيب الدباسي . وكيف سيتم الامر ؟

قال احد المسنين :

ـ انت منا . . يا ابو صالح . . والرجعة شيلها من بالك .

رد وهو يقهقه :

ـ خير البرّ عاجله . . اليوم قبل باكر .

وعلت ضحكات الرجال وهم يتبادلون نظرات التساؤل ، من سيكون المرشح ، واية فتاة هي المناسبة ؟

حتى تلك اللحظة ، وبعد ان تأكد الرجال مما قصده الدباسي ، لم يكن واضحاً ما اذا كانت الفتاة ستكون زوجة لصالح ام لاحد الرجال الثلاثة الآخرين الذين جاءوا مع الدباسي ، وهم جميعاً في سن الشباب تقريباً ، عدا واحد كان بين الاربعين والخمسين . والدباسي ، باعتباره الكبير الذي يقرّر ، يقوم بدور لا يمكن للآخرين ان يقوموا به مباشرة . قال احد الرجال وهو ينظر الى صالح ويبتسم :

ـ يا عم . يا ابو صالح ، وليدك وليدي . وعسى يكون اخوه ابني الثاني .

اعتدل الدباسي ، وقد تغير وجهه تماماً . اخذته الدهشة ، ولكي يضع حداً للخطأ غيّر جلسته اكثر من مرة ، تقدم بجسده كله رافعاً يده ، فلما بدا بتلك الهيئة اخذت المفاجأة الجميع ، حتى ظن الكثيرون ان الامر كله لا صلة له بالزواج ، أما الرجل الذي قال تلك الكلمات فقد بدا مذعوراً وانكمش تماماً . قال الدباسي :

ـ اسمع يا ولد العم ، صالح يلحق ، اذا ما كان اليوم اللي بعده ، هالحين ابو صالح هو اللي يريد يعرّس !

وضجّ الرجال في ضحك عالٍ اقرب الى القهقهة ، اذ لم يكن احد منهم يتوقع ان يكون الدباسي الاب هو الذي يريد الزواج . كانوا يظنون انه يريد زوجة لابنه صالح ، وظن آخرون انه جاء ليخطب لاحد الثلاثة الذين جاءوا معه ، أما ان يكون

هو الذي يريد ان يتزوج ، وقد بلغ الخامسة والخمسين او يزيد قليلاً ، فقد بدا الامر غريباً بعض الشيء ، او بالاحرى مفاجئاً .

بعد اسبوعين من تلك الليلة ، في يوم الخميس ، مساءً ، تزوج الدباسي . تزوج ابنة محمد الزمال ، الرجل الذي ذعر وانكمش في تلك الليلة ، وكان يتصور ان ابنته يمكن ان تكون من نصيب صالح ، ابن الدباسي .

انه اول زواج في حران الجديدة . . . ويبدو ان الامر كان هاماً ومثيراً بالنسبة لأولئك الاميركيين الذين كانوا يترددون على حران العرب ، اذ ما كادوا يسمعون ان زواجاً سيتم في يوم الخميس ، حتى ارسلوا منذ يوم الاثنين يطلبون ان يحضروا هذا الزواج ، وابدوا رغبتهم في ان يأتوا مبكرين .

كان فرح الدباسي بحضور الاميركيين يوازي فرحه بالزواج ، فقد بالغ بالاحتفاء بهم وتكريمهم ، وكان شديد الحرص على ان يبقى ابنه صالح الى جانبهم طوال الوقت ، وقد طلب من اهل حران ان يكرموهم ويهتموا بهم ، وان يلبوا جميع طلباتهم . وهؤلاء الاميركيون الذين كانوا كالاطفال الصغار ، في حركاتهم وتصرفاتهم ، ابدوا دهشة واعجاباً تجاوز التصور وفاق الحدود . سألوا عن كل شيء ، عن الاسماء والملابس والطعام ، كما سألوا عن اسم العريس والعروس ، وما اذا كان الاثنان يعرفان بعضهما من قبل ، وما اذا التقيا ام لا . وسألوا عن العمر وعدد الاولاد ، وابدوا استغراباً بلغ حد الدهشة حين قال لهم احد المسنين ان الذي يجلس الى جانبهم طوال الوقت ، والذي تحدث اليهم كثيراً هو ابن ابراهيم الدباسي ، وقد استأذنوا الدباسي نفسه لالتقاط بعض الصور ، وتمنوا لو استطاعوا تصوير الدباسي مع عروسه ، وتصوير النساء ، لكن مثل هذه الافكار التي طرحوها ، دون ان يتشبثوا بها ، كانت بمثابة اختبار ليعرفوا ما اذا كانت افكار من هذا النوع يمكن ان تقبل ام لا .

كانت ليلة كبيرة في حران تلك الليلة . الخراف التي ذبحت كثيرة حتى ان العديدين اختلفوا وتراهنوا . أمام الأميركيين الخمسة وضعت خمسة رؤوس ، وامام ابن الراشد وضع رأس ، أما في المناسف الاخرى ، حيث جلس العمال واهل حران وعدد من الغرباء ، فقد اختلطت الرؤوس مع الاجزاء الاخرى من الذبائح ، وقد ابدى الكثيرون براعة فائقة امام الاميركيين في تقطيع اللحم ، وفي استخراج

الاجزاء الداخلية ، خاصة النخاع ، ثم في تكوير الرز باليد وقذفه في الفم دون ان تبقى بالكف حبة رز واحدة .

كانت دهشة الاميركيين تزداد وتقوى مع كل حركة ، وقد التقطوا عدداً كبيراً من الصور اثناء الاكل ، وحاولوا ان يتغلبوا على الحرج ، وعلى عجزهم في ان يأكلوا مثلما يأكل الآخرون ، رغم المساعدات الجمة والمبالغ فيها ، او ربما لعدم استساغتهم هذا النوع من الطعام ، حاولوا ان يتغلبوا على ذلك بالاسئلة الكثيرة التي يوجهونها ، بالمراقبة ، في تبادل الحديث فيما بينهم ، واخيراً بالتقاط الصور .

والدباسي الذي كان يلبس حلّة انيقة اول الليل ، وكانت اثقل من ان تحتمل في مثل هذا الوقت ، او في مثل هذا الجو ، ما لبث ان تخفف من الكثير من الملابس ، فعل ذلك بطريقة مسرحية ، وقبل ان يدعو الناس الى الطعام ، ومن اجل مساعدتهم ايضاً . أما ابن الراشد الذي حاول كثيراً أن يبدو طبيعياً ،بالابتسام والحديث ، فما لبث ان تراجع شيئاً فشيئاً ، فمال الى الصمت او الى احاديث جانبية هامسة مع الذين حوله ، وكان واضح الضيق .

حين انتهى العشاء قال مزبان بصوت عال ، وربما بشكل مقصود :

ـ بيتك عامر وعزك دايم يا ابو صالح .

فهز الدباسي رأسه دون ان يتطلع في الوجوه ، ربما خجلاً او تواضعاً ، أما حين قال سليمان الزامل :

ـ اكل الرجال ، يا ابو صالح ، على الرجال دين . . وعلى اللئام صدقة .

فقد فهم كلامه على انه نوع من التأييد والتعاطف ، وربما ضد ابن الراشد بالذات ! هكذا فهم اهل حران الكلمات ، او هكذا فسروها ، اذ بدت الابتسامات واضحة على الوجوه ، ونظر الكثيرون نحو ابن الراشد ، وربما تذكروا الدعوة التي اقامها قبل فترة ليست طويلة ، حين انتهى من بناء الدكاكين .

لم يكن الدباسي وحده هو الذي اراد ان تبقى هذه الليلة محفورة في ذاكرة الناس . فقد كان اهل حران كلهم كذلك ، وشاركهم العمال ايضاً . فالحلقات الصغيرة المتباعدة ، اول الليل ، والتي هي مزيج من الاحاديث والنكت وبعض الدندنات القصيرة المتفرقة ، ما لبث ان انتظمت وتقاربت ، ثم احتدمت واصبحت أقرب الى

النزال . بدأت هكذا قبل العشاء ، أما بعده ، وبعد ان دارت فناجين القهوة واكواب الشاي ، وبدا بعض الناس يريدون الانصراف ، او كما قال ابن الراشد ضاحكاً وهو يتحرك في مجلسه وينظر في وجوه الرجال :

ـ ابو صالح بقلبه يقول : عشاء تعشيتم ، وقهوة تقهويتم ، ورحم الله من زار وخفف ، خاصة في هذه الليلة .

لما سمع ابو صالح هذه الكلمات انتفض مثل ذئب ، قال وهو يهدد بمودة :

ـ اللي ببالك ، يا ابو محمد ، تلحق عليه ، وانت تعرف ان في السنة عيدين واليوم هو الثالث !

وبطريقة بارعة فيها من العفوية بمقدار ما فيها من التدبير ، جنّت حران تلك الليلة . لم يبق احد الا وغنى ، حتى المسنون غنوا ! كانت الاغاني ، رغم محاولات الفرح التي يتعمدها كل واحد ، مليئة بالحزن ، وكأن حران تغني اياماً ماضية ، تغني حياة توشك ان تنتهي . أما حين بدأ صويلح ، ولم يكن احد قد توقع ذلك او قدره ، فقد خيم الصمت وامتلأ بتلك العذوبة الجارحة ، ولم تتردد بعض النسوة من الاقتراب . أما الاطفال الذين كانوا كثيري الحركة شديدي الصخب ، وكانوا ينتقلون من مكان الى آخر ، فقد جلسوا في الوسط وانتابتهم حالة من الدهشة سيطرت عليهم تماماً . وبمقدار ما غنى صويلح للآخرين غنى لنفسه . كان صوته يخفت بعض اللحظات الى درجة ان كثيرين كانت رؤوسهم تمتد وتتطاول ليتأكدوا ان هذا النغم الخافت ، الذي لا يكاد يسمع الا بصعوبة ، صادر عنه ، وفجأة يدوي الصوت مرة اخرى ، كأنه الهدير او كأنه امواج البحر ، وبين الاوج والقرار كان الناس يتابعون ، يرددون ، يشاركون ، وكانت النشوة تستبد بهم الى درجة انهم يصرخون دون وعي ودون ارادة . أما تلك الاغاني التي تتطلب الترداد والمشاركة فقد كان انفعال الناس بها ومشاركتهم فيها تبلغ درجة من الحماسة لا تترك احداً . حتى ابن الراشد ، الذي وافق على البقاء مضطراً او مجاملاً ، لم يتصور ان يشهد ليلة مثل هذه في حران ، ولم يتصور ابداً ان « كريم العين » الذي طرده من وادي العيون ، لانه لا يصلح للعمل في الشركة ، والذي وافق على ان يأتي به الى حران ، لانه كان محتاجاً لاي عامل ؛ لم يتصور ابن الراشد ان صويلح يمتلك مثل هذا الصوت ، ويغني مثل هذا الغناء .

اية أشواق تثوي في قلوب الرجال في هذا المكان النائي من العالم ، وأية أفراح يمكن أن يفجرها الغناء ؟ وهذا الحزن كله من أين يأتي ولماذا هو كثيف طاغ هكذا ؟

مع كل صرخة كان الليل ينتفض ، يتمدد بلا انتهاء ثم يتجمع لكي يصبح جمرة سوداء ، ومع ارتفاع النغم او انحداره ، كانت القلوب تهتز حتى تكاد تنخلع ، وكانت تسافر اسرع من البرق الى امكنة بعيدة وتعود . والرجال الذين الفوا الحزن حتى ادمنوه ، كانوا يتقنون الصمت بنفس المقدار . كان النفس اذا تردد خشناً محزوناً يجرح الصمت ، يلونه بذلك اللون الاغبر المغبّش فيبدو نابياً ، وكان الذي يصدر عنه يدير عينيه في الآخرين مشفقاً معتذراً ، قائلاً ، دون كلمات ، ان الالم وصل الى درجة الحرقة ، وان الحزن طغى على كل شيء !

لو ان الرجال كانوا في غير هذا المكان ، ولو كانوا اقل عدداً ، او لم يكن معهم هؤلاء الغرباء ، لعرفوا كيف يعبرون عن هذا الحزن كله ، عن هذه اللوعة كلها ، لكن شيئاً ما كان يشدهم ، يثقل عليهم ويمنعهم ، فكانت عيونهم وحدها تجول في المدى الضيق من العيون المحيطة ، تماماً كما يجول او يدور اسير في زنزانة ، او كما يفعل حيوان مربوط . كانت عيونهم وحدها تتكلم ، وفي لحظات معينة تصرخ صراخاً فاجعاً مدوياً . كانت حين تتقلص وتضيق ، او حين ترف رفيفاً مفاجئاً موصولاً تستنجد ، تتلوع ، تحس الالم كاوياً وتريد من الآخرين ان يقتربوا ، ان يمدوا يداً او حبلاً لكي ينقذهم . وصويلح الذي يغني لنفسه ، للآخرين ، يزيد العذاب ، يعمقه ، يجعله كثيفاً ، فيحس الرجال انهم يغرقون اكثر من قبل ، وانهم الآن اكثر حزناً مما كانوا في بداية الليل !

والدباسي الذي استبدت به النشوة ، وحملته الى اماكن بعيدة ، بدا مثل طفل ثقيل الحركة ، مرتبك ، وشديد الانفعال ، يردد بعض المقاطع ، يغني ، يطلب من الآخرين الغناء والمشاركة ! وفي احدى اللحظات ، وصويلح يستعد لصرخة تشق ليل حران ، وكان الصمت مسيطراً ، ارتفع صوت الدباسي قوياً متحشرجاً ، فبدا اقرب ما يكون الى صوت جمل هائج ، فأثار موجة عالية من الضحك وصلت حد الصخب ، وقد شارك هو نفسه الآخرين في هذا الصخب .

ومثلما كان صوت صويلح مفاجئاً غنياً كان صوت عبده محمد . اذ ما كاد صويلح يتوقف ، وقد استبد به التعب ، وبدأت قطرات العرق تتساقط بغزارة ويمسحها

بكمه ، اول الامر ، ثم براحتي يديه الاثنتين ، حتى صرخ عبده محمد . صرخ بطريقته وبانغام مختلفة فتغير الجو فجأة واصبح اكثر مرحاً .

المغنون هم الذين سيطروا على الجو وانتزعوا الاعجاب تلك الليلة ، لكن الاميركيين لم يقلّوا عنهم ابداً ، فقد استبدت بهم الدهشة ، دهشة الغناء ودهشة الناس الذين تحولوا فجأة الى مخلوقات من نوع آخر . واذا كانوا قد سألوا في بداية السهرة تلك الاسئلة الصغيرة التفصيلية عن الاشياء والاسماء ، ودونوا ذلك كله في دفاتر كانوايحملونها ، فقد اخذوا بالجو والانفعال اللذين سيطرا على الناس ، فاصبحت اسئلتهم قليلة متباعدة ، ولم تتعد الاستفسارعن الموضوع الذي تدور حوله الاغنية ، والمنطقة التي تغني هذا اللون من الغناء . كانوا كذلك عدا الفترة التي غنى فيها عبده محمد ، فنتيجة المرح الذي غيّر الجو بعد صويلح ، ولان الناس ، اخذوا يقهقهون بصوت عال ، قدروا ان الرجل لا يقتصر على الغناء في ادائه ، اذ يضمّن الاغاني بعض النكات او التوريات او اشياء اخرى مشابهة ، لكنهم لم يفهموا الا اقل الكلمات قال سنكلر لاحد رفاقه بصوت هامس :

ـ لا يمكن لاحد ان يفسر الحزن الذي يعيشه هؤلاء الا اذا عرف الصحراء وعاش فيها . هذه الصحراء الملعونة لا تلد الا مثل هؤلاء البشر ومثل تلك الحيوانات التي رأيناها ونحن آتون .

وحين هز ذلك الاميركي رأسه دلالة انه فهم تابع سنكلر:

ـ والبكاء يخفف عنهم ، لكنهم قساة ، عنيدون ، ولذلك يبكون في داخلهم ، تنزل دموعهم الى الداخل ، وهذه الدموع الحزينة تطفو مرة اخرى على شكل صرخات وتوجع يسمونه غناء ، وهم يفعلون ذلك في اعراسهم . . وهم يفرحون !

وبعد قليل اضاف بسخرية :

ـ هذا هو الغناء الوحيد الذي يتقنونه !

مط الاميركي الآخر شفته وقال وهو ينقّل نظراته في الوجوه التي حوله :

ـ ما اعجب هؤلاء الناس ، ولشد ما يبدون غامضين ، لا يعرف الانسان هل هم فرحون ام حزانى . كل شيء فيهم مغلف ، طبقات فوق طبقات ، تماماً مثل الصحراء التي يعيشون فوقها !

اما حين صرخ صويلح بنغم جديد ، وسرت همهمة بين الرجال مع حركة

واضحة في الاجساد والوجوه ، فقد وخز سنكلر زميله وقال بسرعة :

ـ انتبه . . انتبه ، الآن يريدون ان يعبروا عن فرحهم !

وبعد ان استمعا قليلاً علق من جديد :

ـ انهم مثل الحيوانات يدفع بعضهم بعضاً ، ويتحركون بهذه الطريقة البدائية تعبيراً عن الفرح . . . فتصور !

واستمر الاميركيون مدهوشين مأخوذين . . ولم يتوقفوا عن التقاط الصور !

وحتى وقت متأخر ظل الناس في حران يتذكرون هذه الليلة ، ليلة زواج الدباسي .

غافل السوّيد امير حران منذ زمن لا يتذكره احد ، امير وليس كالامراء . لا يزعج احداً ولا يحب لاحدأن يزعجه قليلون هم الذين رأوه ، واقل منهم الذين عرفوه عن قرب . لا يحب السلطة ولا يحب حران ، قدر ما يحب القصيد والبادية . يحفظ الكثير من الشعر ، يتذوقه وبعض الاحيان يغنيه ، ومن اجل قصيدة يذهب الى اقصى مكان في البادية، ليرى قائلها او يسمعها من الثقاة . يذكر احد المسنين في حران انه حينها سُمّي غافل السويد اميراً لحران وما جاورها من البادية ، ووصلها في ظهيرة يوم من ايام الصيف ، انه امتنع عن الكلام تماماً ،حتى ظن الذين جاءوا للسلام عليه انه اخرس . أما لما بدأ يتكلم ، وقد حدث هذا بعد ايام ، فلم يجد شيئاً يقوله « لهؤلاء المهابيل الذين يجلسون مقابل البحر صافنين ولا يفعلون شيئاً آخر ! » اذ بعد ان سألهم اسئلة عديدة ولم يجد لديهم شيئاً مهماً ، روى لهم بعضاً من القصيد الذي يحب ، لكن احداً لم يتجاوب ، فترك خادمه الاسود ، ميمون ، ليحكم « هؤلاء العجّز المساكين ويتبالش معهم فإما ان يقتلهم او ان يقتلوه . . . » وسافر عائداً من حيث اتى ، وقد اصطحب معه عدداً من رجاله .

القصص التي تروى عنه قليلة ويناقض بعضها بعضاً . تقول احدى القصص انه يتوغل في البادية ، وينتقل من مكان الى آخر يسمع الشعر . وتؤكد اخرى انه يبحث

عن طير ابيض كبير خطف له امرأته الجميلة في الليلة السابقة لزواجه منها ، خطفها في الليل ، وكان القمر بدراً ، وقد رآه غافل السويد بنفسه وهو يضعها تحت جناحه الايسر . وتروي قصص غير هذه ان الامير احب امرأة وارادها ، لكن ابن عمها ، عندما احس برغبة الامير ومحاولاته ، حملها في ليلة ظلماء ودخل الصحراء ، ولم يسمع احد بعد ذلك عنهما خبراً ،-وان الامير الآن في رحلاته الطويلة المجهولة داخل البادية لا يفعل شيئاً سوى البحث عن هذه المرأة .

هذه بعض القصص التي تروى ، ومما يؤيدها ويجعل الناس ميالين الى تصديقها ان الامير ، رغم تجاوزه الاربعين ، لم يتزوج ولم يفكر في الزواج ، وفي احدى المرات ، اثناء احدى زياراته الى حران ، وفي محاولة من ابن نفاع ان يتبسط معه ويقيم صلة سأله ما اذا كان يفكر او ينوي الزواج ، ابتسم الامير بسخرية حين سمع السؤال ولم يجب وظل وقتاً غير قصير يهز رأسه .

كانت العادة انه اذا انقضى شهران او ثلاثة جاء الامير في زيارة الى حران ، ومن اطراف شفاهه يسأل ميمون ما اذا حصل شيء هام أثناء غيابه . هل وصلت قوافل او جاء مسافرون . ويسأله عن اهل حران الا يزالون مثلما تركهم مهابيل ام رجعت اليهم عقولهم . فاذا انتهى من سؤاله طلب القهوة والربابة معاً وبدأ القصيد . حين يروي يهز الرجال رؤوسهم ، يبدون اعجابهم ، وحين يسمع يستعيد ، يطرب ، يسافر بعيداً ، ويروي الكثيرون انه في ليالي القمر يكون شديد الحزن وقد يبكي بعض الاحيان .

اذا جاء اهل حران للسلام عليه لا يُسَرّ برؤيتهم ،ويظل اغلب الاحيان صامتاً ، كان يعتبرهم خصومه ، والا لما جاء الى هذا المكان « الذي لا يصله حتى الطير » . واهل حران الذين لا يجدون شيئاً يقولونه للامير ، وليست لهم مطالب او شكاوى ، ما ان يشربوا القهوة ويبتسموا مرتين او ثلاث مرات ويفركوا ايديهم حتى يستأذنوا ، ويأذن لهم الامير بسرعة ، ودون تردد ، وحالما تبتعد خطواتهم يطلب من جديد ان تبدأ الربابة ، وبعض الاحيان يُجلس الذي يعزف عليها مقابله وقريباً منه لكي يكون الاداء رقيقاً وجميلاً .

ظل غافل السويد هكذا سنين عديدة . لم يقض في حران من هذي السنين سوى بضعة شهور ، ولو طالت الفترة اكثر من ذلك لسمى ميمون اميراً بدلاً عنه ودخل

الصحراء دون عودة ؛ أما حين وصل الاميركيون فقد كان في سفرة من سفراته ، ولما عاد ورأى الدنيا وقد تغيرت فوجىء تماماً ، وارتبك بعض الوقت ، أما بعد الزيارة التي قام بها اثنان من الاميركيين ، وكان نعيم معهم يترجم لهم ، فقد قرر في نفسه قراراً خطيراً : ان يسافر ولا يعود .

قال امام عدد من رجال حران :

ـ كنا بمصيبة واحدة ، هالحين وقعت علينا كل المصايب .

والتفت الى ميمون وتابع وهو يضحك ساخراً :

ـ وكدتهم ؟ شفت وجوههم ؟ مثل الجرابيع او مثل الخبز القطير : مبقعين وعيونهم خرز ، واذا تحملوا الشتاء ما اظنهم يتحملون الصيف .

وبعد قليل ، وفي جو الصمت والحيرة قال يخاطب نفسه ويريد الآخرين ان يسمعوا :

ـ باكر . . اذا شدّتْ عجاجهم يسابق ضراطهم !

وبعد بضعة ايام شُـدّت على الرواحل الخيمة الكبيرة والخيام الاخرى التي ظلت منصوبة منذ فترة طويلة ورحل الامير وجماعته، بمن فيهم ميمون ، ولم يعرف ما اذا كانوا سيرجعون ام لا . . لكن ما ان مرت اسابيع حتى جاء امير جديد ، أما غافل السوّيد فلم يسمع عنه احد شيئاً بعد ذلك .

* * *

بعد غافل السوّيد جاء خالد المشاري واصبح اميراً لحران .

كان الامير خالد متوسط العمر ، قوي البنية ، شديد السمرة ، وربما اقرب الى السواد . جاء بضجة كبيرة واحتفاء اكبر ؛ اذ بعث بعدد من رجاله قبل وصوله ، وقد ابلغ هؤلاء الرجال الناس بكثير من الاهتمام ان الامير خالد ، امير حران الجديد ، سيصل بين يوم وآخر ، وبطريقة مليئة بالقسوة والتهديد ، اثناء الاحاديث التي جرت ، ذكر الذين جاءوا أشياء كثيرة عن الامير . ذكروا كيف انه يقتل لابسط الجرائم ، وانه لا يرحم احداً ، حتى لو كان اخاه ، وانه يأتي الى حران لكي يجعلها ساكنة كمقبرة ، بعد ان سمع الكثيرون عما يجري فيها من تعديات واخطاء وفوضى ، واكّدوا انه اذا تُركت حران هكذا فسوف يقتل الناس بعضهم بعضاً .

حين ذُكر كل هذا دخل الخوف في نفوس الكثيرين ، أما الذين لم يخافوا فقد شغلهم الترقب والانتظار . فحران التي عاشت سنين طويلة لم تعرف اميراً ولا تحتاج الى امير ، والتي رأت غافل السوّيد نصف النائم خلال الفترة القصيرة التي يقضيها في حران ، لا تتصور انها قادرة على احتمال امير . ماذا يريد وماذا تصنع به ؟ وهل ستتغير حياة حران اذا جاءها الاميركان واعداد كبيرة من الغرباء ، اضافة الى ابن الراشد والدباسي ، ولا يعرف من سيأتي غداً ايضاً ؟ وما دامت حران تتغير فهل اذا جاءها امير ستكون حالها افضل ام ستزداد مشاكلها ومصائبها ؟

الاميركان بعثوا بنعيم لكي يكون في استقبال الامير ، وربما تم هذا التدبير بالاتفاق مع ابن الراشد ، اذ ما كاد يُعرف اليوم الذي سيصل فيه حتى تهيأ ابن الراشد ودحام فأخذا معهما عدداً من الرجال وبصحبة نعيم ذهبوا الى طريق عجرة ، ذهبوا منذ الصباح الباكر ، وقبل غروب ذلك اليوم وصل الامير . . ووصلوا معه الى حران .

كان الامير بشكله وتصرفاته وعدد الرجال الذين يرافقونه يختلف عن الامير السابق ، واهل حران الذين وصل تحسبهم حدود الخوف ، لانهم وقعوا في خطأ لم يكن مقصوداً ، بتخلفهم عن استقباله كما فعل ابن الراشد ، احسوا ان شراً جديداً لا بد ان يقع ، لكن الدباسي قال في تلك الليلة كلمات خلقت نوعاً من الراحة في قلوب الرجال . قال : « الامير امير حران ، ونحن اهل حران من يوم ما خلق الله الدنيا . والامير يعرف ان كل واحد من اللي يركضون حوله هذه الساعة يقول : انا تميمي ، لكن باكر اذا استراح يعرف الناس ولكل حادث حديث » .

لم يكتف الدباسي بذلك باتفق مع الرجال على أن يذهب عدد منهم في اليوم التالي للسلام على الامير ، وسوف يكون معهم ، ولانه لم يكن متأكداً ما اذا كان قد رأى الامير او سمع عنه ، فقد تريث في ان يقول شيئاً مؤكداً عن المستقبل ، لكنه مع ذلك كان واثقاً ان هذه المعركة الصغيرة التي كسبها ابن الراشد لن تغير في النتائج . . . وسوف يعرف كيف يرد عليه .

حين ذهب اهل حران في اليوم التالي ، كان ابن الراشد خارجاً لتوه من عند الامير ، وخلال اللحظات التي استغرقها الوقوف معه ، وتبادل بعض كلمات المجاملة ، بدا الرجل شديد الثقة واقرب الى الزهو ، وكأنه صاحب حظوة عند

الامير ، او يريد ان يقول لاهل حران انه سبقهم لزيارته ، وانه يعني شيئاً لديه . لم يشأ الدباسي ان يفوت الفرصة ، قال وهو يضحك :

ـ هذه السروة ما هي لله ، يا ابو محمد ، تراك بايت عند الامير ؟

وحين ضحك ابن الراشد وهز رأسه ، لكي يترك الامر غامضاً ، اضاف الدباسي :

ـ حي بيالك : مبوع الطفرة عقبه نفرة .

رد ابن الراشد :

ـ سلطان النهار اوله .. يا ابو صالح !

بدا الامير يعيون اهل حران اقرب الى النفور ، اذ بعد كلمات مجاملة قليلة عن الرحلة والطريق ، قال انه جاء الى حران لضبط النظام ومنع التعدي والسرقة ، وسألهم ، فجأة ، ما اذا كانوا يعرفون الثلاثة الذين سرقوا الابل ، وما اذا كانت لهم شكاوى او مطالب .

كان يمكن ان يأخذ الحديث هذا المجرى وحده ، وان تبقى العلاقات اقرب الى البرود ، لكن حين رأى الدباسي من بعيد احد رجال الامير حاملاً صقراً ويداعبه ، قدّر ان الامير من هواة الصيد ؛ وبطريقة بارعة مليئة بالمكر التفت الى احد المسنين من اهل حران وسأله عن طيور الحباري هل تصل الى اماكن قريبة ومتى ، وفجأة ، وعلى غير توقع ، ظهرت على الامير علامات الاهتمام ! واذا كان رجال حران قد ذكروا بعض الاماكن ، فان المعلومات التي خزنها الدباسي في ذاكرته طوال السنين السابقة حول الصيد : اماكنه ومواسمه ، وكيف انه رأى في مصر طيوراً لا تُقدر بعدد ، وانها كانت تملأ السماء كأنها الغيوم السوداء ، وكيف انه في احدى سفراته الى غزة كان يجمع الطيور قريباً من الشاطىء ، ثم تحدث عن القطا والغزلان والحباري . كانت المعلومات التي قدمها تثير الاعجاب والدهشة .

يتذكر اهل حران ان الدباسي كان شيطاناً في ثياب بشر ، لان الامير منذ اللحظة التي بدأ يتحدث الدباسي فيها عن الصيد ، تغير تماماً ، أصبح مثل الطفل الصغير وهو يستمع بدهشة الى الاحاديث التي تروى . فبعد الجفاء والقسوة اللذين ميزا نظراته وكلماته خلال الفترة الاولى رقّ وطلب من الدباسي ان يقترب منه ، وفي احدى اللحظات سأله الدباسي ما اذا كانا قد التقيا من قبل واين . وفي محاولة لان يعفي

نفسه من مشقة التذكر حول لقاء مثل هذا اكد له ان اسفاره الكثيرة ، والوجوه التي التقى بها في هذه الاسفار تجعله غير قادر على ان يتذكر بوضوح ، لكنه مع ذلك « اي وجه اراه لا يمكن ان انساه ابداً .. غير انني لا استطيع ان اتذكر متى واين ! » والامير الذي سرّ من ملاحظة الدباسي ، التفت اليه وتمعن في وجهه جيداً ، لعله يتذكر ويساعد في تحديد الزمان والمكان ، لكن اياً منهما لم يواصل هذه اللعبة ، لانهما لم يستطيعا ذلك .

بعد هذا تحدث اهل حران كيف انهم غادروا منازلهم واقاموا بيوتاً بدلا عنها في الجهة الغربية ، من اجل مساعدة الشركة وبناءة لاوامر الحكومة . وكيف انهم يخافون المستقبل ، خاصة بعدما جاءت تلك البلية وعليها النساء العاريات ،وان الشباب ، منذ ذلك اليوم ، اصبحوا شرسين حادّي الطبع . والامير الذي ابتسم اكثر من مرة ، واستفسر بدقة عن تلك السفينة التي وصلت الى حران ، وعن عدد النساء وماذا فعلن وكم بقين اكد ان شيئاً مثل هذا لن يتكرر ، وان المحافظة على الدين والاخلاق مهمته الاساسية ، ولن يتردد في اتخاذ الاجراءات الضرورية .

ومرة اخرى تسلم الدباسي الحديث ، فطلب من الامير « ان يشمل بعطفه اهل حران ، وان ليس لهم احد الا الله وهو » واشار الى ان بعض الغرباء الذين جاءوا في الأيام الأخيرة يهددونهم من اجل اجبارهم على بيع اراضيهم . وان هؤلاء الغرباء استأثروا بكل شيء ولم يحصل اهل حران على شيء . لم يذكر ابن الراشد بكلمة واحدة ، ولم يشر اليه بالاسم ، لكن كلامه فُهم من اهل حران تماماً . والامير الذي اكد مجدداً انه جاء للمحافظة على الدين والاخلاق اضاف : « الحق حق ، وابن الديرة اولى من الغريب » وقبل ان تنتهي تلك الجلسة طلب الدباسي باسم اهل حران ان يحدد لهم الامير يوماً لكي يعبروا عن سرورهم بدعوته . والامير الذي ضحك ولم يحدد يوماً ولم يعط وعداً ، قال للدباسي ولاثنين من المسنين اللذين كانا الى جانبه ، وهو يقف في وسط الخيمة الكبيرة ليودعهم :

ـ اذا دخل الشتاء وربّعت نروح للحباري .. وللاماكن اللي ذكرتم .

تبادل الأمير والأميركيون الزيارات خلال الأسابيع الأولى .

أثناء زيارة الأمير الى حران الأميركان ، والتي تمت في طقوس من الأبهة والاهتمام ، جرت مسابقة للرماية بين ثلاثة من الأميركيين بحضوره . وقد أبدى إعجابه الكبير بكل ما رأى ، وعبّر عن ذلك بكلمات لم يستطع نعيم ان يترجمها بدقة ، لأنه لم يفهمها تماماً . أما بعد انتهاء المسابقة فقد طلب أن يطلع على بنادق الصيد ، فعرضت أمامه ، وفي جو من المرح والألفة طلب منه ابن الراشد أن يجرب واحدة منها . أبدى تردداً ، أول الأمر ، أما حين وضع دحّام إحدى خراطيش الصيد الفارغة نيشاناً ، على بعد عشرة أو خمسة عشر متراً ، فقد أبعد الأمير بنادق الصيد وطلب من مرافقه مبرد الحويزي أن يناوله بندقيته الموزر . وبكثير من البراعة والدقة أصاب الخرطوشة ، فارتفعت صيحات الاعجاب مع التصفيق ، ودون أن يأبه انتزع الطلقة الفارغة من بندقيته وناولها لمبرد طالباً منه أن يضعها نشياناً مكان الأولى ، وبنفس البراعة والدقة ، مع شيء من التمهل ، إذ رفع رأسه أكثر من مرة ليتأكد من مكانها ، صوّب وأطلق . . فأصابها ، وهنا لم يكتف الأميركيون وغيرهم من الموجودين بالتصفيق او بترديد صيحات الاعجاب ، فقد صفّر عدد منهم ، وتقدم إثنان وربتا على كتف الأمير . وبعد ذلك ، وفي جو من المرح والاعجاب ، دُعي

الأمير الى نادي الأميركيين لتناول الطعام .

إنها المرة الأولى التي يدخل العرب الى هذا المكان ، لم يدخل الا عدد منهم ، فقد أبلغ دحام العمال « أن يظلوا بعيدين ومؤدبين لوجود الأمير والغرباء . . . وإن الغداء سيصلهم الى عندهم » . اقتصرت الدعوة على الأمير ومرافقيه ومعهم ابن الراشد ودحام وصالح الدباسي . أما الآخرون فقد هيئت لهم علب وضعت فيها أنواع من الأطعمة لم يستطع أي من العمال أن يعرف ما هي أو أن يعطيها اسماً محدداً . وقد أبدى الأمير اعجابه الكبير بكل ما رآه وما قدم إليه . وحين تحدث عن اتساع المطعم وحسن ترتيبه ونظافته ، قال له ابن الراشد أن العمال الذين شاركوا في بنائه استغربوا هذه السعة ولم يعرفوا لأي أمر سوف يستعمل ، حتى هو نفسه ، رغم أنه اقترب منه عدة مرات لم يظن أنه بهذه السعة وبهذا الجمال . أما بعد انتهاء الغداء فقد جرت جولة للأمير ومرافقيه في الأماكن القريبة : بركة السباحة ، نادي الاستراحة ، المكاتب ، ورغب الأمير أن يرى أحد البيوت السكنية ، فأجيب لطلبه . وفي كل هذه الأماكن كان شديد الاعجاب الى درجة الانفعال ، وقد عبّر عن ذلك بطريقته ، الأمر الذي اضطر نعيم عدة مرات للاستفسار من ابن الراشد عن كلمات معينة أو تعابير معينة .

أما حين عرض على الأمير أن يقوم بجولة بحرية فقد أبدى تردداً ظاهراً ، قال انه لم يركب البحر من قبل ، وإنه يخاف الماء كثيراً ، ولا يعرف السباحة . وحين أكد له الأميركيون أن الأمر في غاية البساطة والأمن لأن « المراكب التي يستعملونها مصممة بعناية كبيرة ، ويمكن أن تبحر الى أقصى مكان في العالم دون أن يُخشى وقوع حادث من أي نوع ، يضاف الى ذلك أن كل مركب من هذه المراكب مزود بزوارق للنجاة وبوسائل أخرى » بعد أن قام نعيم بترجمة عبارات رئيس المعسكر ، ولكي لا يظهر الأمير بمظهر الخائف أو الجبان وافق ، شرط أن « تكون الجولة قصيرة ، وأن لا نبتعد عن الشاطىء » وقد وافق الأميركيون على هذه الشروط .

إنها المرة الأولى التي يركب فيها هؤلاء الرجال البحر . كانت قلوبهم تضرب بعنف ، وقد اصفر وجه ابن الراشد ، وود الأمير في أعماقه لو أنه لا يتعرض هذه التجربة . وتردد دحام في الصعود الى ظهر المركب ، لكن ابن الراشد جره بشدة وهو يضحك ، وقال له بعصبية : « إذا متنا ، يا ابن مزعل ، فأنت مثلنا » أما حين

جلسوا على تلك المقاعد الواسعة والمريحة فقد ظلوا صامتين ، ولم ينظروا حولهم ، حتى الابتسامات القليلة التي تبادلوها كانت شاحبة وتبعث في القلوب الخوف أكثر مما تولد الثقة . وحين دوى صوت الموتور وأقلع المركب بقوة سمع الجميع ابن الراشد وهو يقول « بسم الله والحمد لله ، قل لا يصيبكم الا ما كتب الله لكم » ورغم أن الأميركيين كانوا يتنقلون من مكان إلى آخر ، دون أن تظهر على أي واحد منهم مظاهر الخوف أو التهيب ، فقد ظل الآخرون مضطرين لأن يبقوا مسمرين في أماكنهم ، وكأنهم جزء من المقاعد ، حتى الحركات الصغيرة ، كانوا يقومون بها بكثير من الاقتصاد والحذر ؛ ولما التفت الأمير الى الشاطىء ورآه يبتعد سأل بصوت خافت : « ما قولك يا ابن الراشد لو نرجع ونموت بديرتنا . . ما هو أخير ؟ » وهز ابن الراشد رأسه دون كلمة ، أما حين دار المركب متجاوزاً الخليج الى عرض البحر فقد أصبح الأمر أكثر من أن يحتمله الرجال ، قال الأمير ، مخاطباً نعيم ، بحزم :

ـ قل لجماعتك . . هذا الكثر يكفينا ، والأخيْر أن نرجع .

لما أبلغ نعيم الأميركيين بطلب الأمير أبدوا استغرابهم ، وظنوا أن في الأمر خطأ من نوع ما ، وحين استفسر نعيم مرة ثانية أكد الأمير بحزم على ضرورة العودة ، فعاد المركب .

وبنفس الأبهة والاهتمام اللذين استقبل بهما الأمير جرى وداعه أيضاً قبل الغروب .

ظل موضوع الزيارة مجالاً للأحاديث والتعليقات في حران كلها فترة من الزمن . ومع مرور الوقت ، ومن خلال تناقل الأخبار والتعليقات جرت تحريفات كبيرة . فقد أكد بعض العمال أن الأمير أصاب في النيشان إبرة صغيرة وضعت على مسافة بعيدة ، لا تكاد تُرى ، في الوقت الذي عجز الأميركيون عن إصابة زجاجة كبيرة ! أما في المطعم وحول بركة السباحة ، فقد كان هناك عدد من النساء العاريات وقد تطلع الأمير نحوهن أكثر من مرة وابتسم ! أما الرحلة البحرية فقد تخللها الكثير من المخاطر ، ولولا شجاعة الأمير بالذات لما تمت الأمور بسلام .

هكذا تحدث الكثيرون ، وهكذا نقلت بعض الوقائع ، أما حين وصلت الى الأمير في اليوم التالي لزيارته بندقية صيد ، وقد قام بنقلها نعيم وابن الراشد ، فقد تشاءم الدباسي وقال أمام الكثيرين :

ـ تالي اللعب أخْير من أوله ، وابن الراشد يأتيه الخبر .

* * * *

لما بدأ الأمير يعدّ من أجل دعوة الأميركيين طلب من ابن الراشد والدباسي أن يعاوناه ، طلب من كل منهما أولاً على انفراد ، ثم اجتمع بهما معاً . وإذا كان الرجلان قد أبديا استعداداً كبيراً ، فقد كانا يتباريان حين اجتمعا معاً ، وخلال فترة قصيرة تمت الاستعدادات ، وقد ارتأى الجميع أن تكون الدعوة عند الغروب ثم يعقبها العشاء .

اختار الأمير يوم الخميس ، وقد بذل ورجاله جهداً غير عادي من أجل أن يكون الاحتفال كبيراً والدعوة حدثاً مهماً ؛ أما ابن الراشد والدباسي فقد عاونا في التحضير بتفانٍ يفوق الوصف ،واستبقى كل منهما شيئاً حتى اللحظة الأخيرة .

جاء الأميركيون كلهم ، عدا ثلاثة ، قال رئيس المعسكر انه لا يستطيع ان يأتي بهم لوجود امور تقتضي بقاءهم هناك . كان لوصولهم بعد عصر الخميس الى حران العرب ـ وكان بعضهم يصل الى هذا المكان لأول مرة ـ رهجة كبيرة ، إذ رغم توقع وصولهم قبل الغروب ، وكان الجميع بانتظارهم ، إلا أن حالة من الصمت القاسي الأقرب الى الرهبة خيمت على أهل حران وهم يرونهم يتقدمون جماعات جماعات . كانوا يمشون بفوضى ، ويشيرون بأيديهم ، وحين اقتربوا بدأت تسمع اصواتهم . وعيون أهل حران ، وعيون العمال ، تتابع كل خطوة ، ترقب الضيوف . حتى النسوة خرجن عن المألوف واردن رؤية هؤلاء الذين يتحدث عنهم الرجال بهذا المقدار . . . وكل يوم ، أن يعرفن أي نوع من الرجال هم . أما الصبية والأطفال فقد انتظروا في امكنة أقرب ، ثم ساروا مع الأميركيين ، لكن على مسافة منهم ، وذهبت محاولات أولئك الذين يتكلمون العربية عبثاً ، لأنهم لم يستطيعوا أن يدخلوا في أي حوار مع الصبية ، ولم يستطيعوا إغراءهم بالاقتراب .

لما اقترب الأميركيون كثيراً من الخيمة الكبيرة التي نصبت للأمير ، وكانت في مكان وسط تقريباً بين أهل حران والسوق ، خرج اليهم . تقدم بضع خطوات وحوله رجال كثيرون . وحين تقدموا أكثر ، ولم تبق بينه وبينهم الا خطوات تقدم مرحباً وصافح كل واحد منهم . ونعيم الذي قام بالتعريف والترجمة في بداية الأمر ،

تعذر عليه الاستمرار في ذلك ، نتيجة الحرج ثم التداخل ، وبعض الكلمات التي كان يسمعها ، ربما لأول مرة ، ولم يستطع أن يقدر معناها بدقة .

بعد أن أديرت فناجين القهوة وتبادل الأمير الحديث مع رئيس المعسكر ، وتحدث مباشرة الى بعض الذين يتكلمون العربية من الأميركان ، قال انه حضر لهم عرضاً لسباق الهجن ، وطلب من الجميع الانتقال الى الفسحة وراء الخيام ، وهناك كان ابن الراشد قد حضَّر ، بالاتفاق مع رجال الأمير ، أطيب الجمال ، وزيّنها ، وكان يتنقل بخفة وحماسة بين المضارب والساحة حتى اذا اطمأن غمز للأمير . . فدعا الضيوف .

كانت مفاجأة كبيرة للأميركيين . كانوا يتصورون ان الجمال خُلقت للاحمال فقط ، وأنها إذا ركضت تركض ببطء ، ولمسافات قصيرة ؛ أما حين رأوا ركضها السريع ، وهي تتسابق ، فقد تملكهم العجب ، فأخذوا يصوّرون ويصفقون ويتطلع بعضهم في وجوه بعض. ولما انتهى السباق أصرّ الكثيرون على أن يقتربوا من الجمال ، أن يتصوروا معها . وقد أبدى اثنان رغبة في الركوب عليها . جرى ذلك في جو من الانفعال والحماسة ، وقد لبيت مطالبهم جميعاً .

المفاجأة الثانية حضرها الدباسي ، وقد حضرها بدهاء وتكتم ، وبالاتفاق مع صخر الذي كان يرعى صقور الأمير .

إذ ما كاد ينتهي سباق الهجن ، وقد حاول صخر كل جهده من أجل إنهائه، مبكراً ، بالاتفاق مع بعض الرجال الذين شاركوا في السباق ، حتى تقدم الدباسي واسرّ في اذن الأمير شيئاً أدى إلى تغيير الجو بسرعة ، انفعل الأمير ، وقد فاجأه الأمر تماماً ، وقال لنعيم أن يطلب من الأميركيين الهدوء التام ، لأن ما سيرونه الآن سيدهشهم ، وأكد على الهدوء مرة أخرى . وبخفة ساحر تقدم صخر واثنان من الرجال وعرضوا الصقور في جو من الجلال ، حتى ظن الكثيرون أن الأمر سيقتصر على ذلك ، لكن حين طُيّرت حمامات ، لا يعرف من أين أتى بها الدباسي ، واطلقت وراءها الصقور وجرت تلك المعركة في الجو ، استبدت الدهشة الممزوجة بالخوف بالجميع ، حتى بابن الراشد ، الذي لم يكن يتوقع مفاجأة مثل هذه ، ولما عرف أن الدباسي وراءها ، شعر انه خسر أمام هذا الخصم الذي لا يعرف كيف انشقت الأرض وأخرجته! وبنفس القدر الذي دهش ابن الراشد دهش

الأميركيون ، فصوروا صخراً عشرات الصور ، واقتربوا كثيراً من الصقور ، ومدّ أحد الأميركيين يده الى ظهر واحد منها، وكادت تقع اكثر من حادثة ، لولا ان صخراً والرجال الذين معه اخذوا الصقور بعيداً وبذلوا جهداً من أجل تهدئتها .

وكانت مفاجأة الأمير خالد المشاري للأميركيين اثناء تقديم العشاء : رأس جمل ، وضعه أمام رئيس المعسكر ، في منتصف المناسف ، ثم رؤوس الخراف ، وقد ذبح عدداً منها مساوياً لعدد الضيوف ، ولأن ثلاثة لم يحضروا فقد وضعت رؤوس الخراف التي ذبحت لهم أمام الآخرين .

بعد العشاء أعد الأمير للضيوف « رقصة السيف » ، وقد قام بها رجاله بشكل جميل للغاية ، حتى أن الأمير ذاته ، في لحظة انفعال ، قام وشارك ، وكان لمشاركته تأثير قوي غيّر الجو ، الأمر الذي دفع عدداً من الأميركيين الى طلب المشاركة ، وإذا كان رجال الأمير قد استجابوا لهذه الرغبة ، وقدموا الكثير من المساعدة ، إلا أن الأميركيين أفسدوا كل شيء ، إذ كان التقاط الصور بالنسبة لهم أهم من أي أمر آخر ، وكانت حركاتهم وتعليقاتهم بدل أن تحفزّ وتقوّي الرقص تضعفه وتؤخره ، حتى إذا انتهت تلك الرقصة اتضح أن السهرة ذاتها قد انتهت . وابن الراشد الذي اقترح على الأمير ، في محاولة لأن يرد على الدباسي ويخلق جواً جديداً ، اقترح عليه أن يغني بعض الرجال ، كما حصل في عرس الدباسي ، إلا أن غضب الأمير وتلك الكلمات التي قالها جعلت كل شيء ينطوي . قال الأمير بحدة : « بعد ما صرنا قرباط يا ابن الراشد ! » وحين حاول ابن الراشد أن يوضح أو أن يبرر أضاف بنفس اللهجة الغاضبة :

- إذا غنينا اليوم باكر يريدونا نرقص لهم مثل السعادين ، وهذه ما هي شغلتنا يا ابن الراشد .

وبعد أن دارت فناجين القهوة عدة مرات ، وتحدث الأميركيون الذين يعرفون العربية مع أكثر الناس ، وسألوا عن أشياء كثيرة ، قال رئيس المعسكر ان أمامهم مشواراً طويلاً لكي يصلوا الى المعسكر ، ولذلك يجب أن يتحركوا . وبكثير من المرح والتحيات المبالغ بها والابتسامات خرج الجميع لوداعهم ، وبعد أن غادروا ورافقهم عدد من رجال الأمير ، ظلت أصواتهم تسمع ، حتى بعد أن ابتعدوا .

وحتى وقت متأخر ظل الناس يتذكرون هذه الليلة في حران .

لم تعد زيارات الأميركيين الذين يتكلمون العربية تقتصر على إبن الراشد ، بدأوا يزورون أيضاً الدباسي وابن سرور والسلامي وآخرين ، وفي كل مرة يأتون للزيارة يصطحبون معهم آخرين لم يأتوا من قبل ، ويتولى القدامى إدارة الحديث وشرح امور كثيرة لهؤلاء الذين يرافقونهم ، ثم يتولون الترجمة بعد ذلك .

هذه الزيارات التي كانت تمتد وتطول في الغالب ، وتتخللها أشياء كثيرة وطريفة ، تتحدث عنها حران فترة طويلة ، ثم يتذكرها الناس بعد ذلك . كانت هذه الزيارات ، في بداية الأمر ، تحدث بشكل عفوي ، إذ ما يكاد يصل هؤلاء الأميركيون بيوت حران ، أو بالقرب من المعسكر ، ويراهم سكان حران أو العمال حتى يدعونهم الى فنجان قهوة أو كأس من الشاي ، فيلبوا الدعوة ، وخلال الساعة التي يقضونها في مثل هذه الزيارة تجري الأحاديث على رسلها . كان يشترك فيها الجميع ، حتى الصبية الذين لا يتكلمون عادة بوجود الكبار ، لم يكونوا ليترددوا طويلاً ، كانوا يندفعون الى المشاركة في الحديث ، خاصة للاجابة عن الأسئلة . والأميركيون الذين يستمعون وينظرون في وجوه الناس ، وينظرون الى كل ما حولهم ، لا يترددون بعض الأحيان من لمس الأشياء ، سواء أكانت منسوجات أم جلوداً ، ووقفوا مرة ساعة أو تزيد لمراقبة أحد المسنين وهو يدبغ جلداً ، وقد اخذوا له

صوراً كثيرة . ووقفوا مرة أخرى لمراقبة حذو الحمير وصوروا فلماً كاملاً ، وصوروا ضمنه واحداً منهم وهو يرفع رجل الحمار وآخر وهو يحذوه أو يتظاهر بذلك !

هكذا كانت تتم الزيارات في البداية ، وكان يرافقها الكثير من الهرج ، حيث يتراكض الأطفال والصبية ، ويتجمع عدد كبير من الناس .

في وقت لاحق أصبح الأميركيون يأتون مباشرة من معسكرهم الى بعض بيوت حران ، الى بيت ابن الراشد أو الدباسي ، أو الى بيوت أخرى . كانوا يأتون ومعهم بعض الكتب ، إضافة الى كميات كبيرة من الورق . كانت الأوراق ، أغلب الأحيان ، ملونة ومقواة ومتفاوتة المساحة ، منها الصغير الصغير ، ومنها الكبير ومنها المتوسط ، وكانت هذه الأوراق تستهوي الكبار والصغار ، فلا يتردد الكبار في لمسها وتقليبها ، ويحاول الصغار محاولات لا تنتهي للحصول على عدد منها . وإذا كان الأميركيون قد أعطوا الصغار اوراقاً في بعض الحالات ، فقد طلبوا اليهم أن يأخذوها ويذهبوا ، وما يكاد يذهب الصغار ويهدأ الجو حتى يفتحوا الكتب التي يحملونها ، يقلبون صفحاتها ثم يبدأون الأسئلة .

أهل حران الذين عجبوا أشد العجب لأن في هذه الكتب أشياء كثيرة يعرفونها ، من أسماء الأمكنة والعشائر ، إضافة الى مواعيد الأمطار والرياح وهجرة الطيور ، شعروا لأنفسهم بأهمية لا توصف حين بدأ الأميركيون يكتبون ما يسمعونه منهم . كانوا يستوقفون الرجال عند بعض الأسماء ، يطلبون اليهم أن يكرروها أكثر من مرة ، حتى إذا أعادوها بعدهم كتبوا ذلك على تلك الأوراق الملونة .

كانت الكتب التي يحملها الأميركيون تثير الدهشة والخوف معاً . كتب من كل لون ومن كل حجم ، كان بعضهم يحمل عدة كتب ، وكان بعضهم يحمل كتاباً أو اثنين . وأهل حران الذي أدهشتهم هذه الكتب وأخافتهم ، راقبوا بعناية ما إذا كان الأميركيون حملوا الكتب ذاتها في المرات اللاحقة أم استبدلوا بها غيرها ، فلما وجدوا أن بعض هذه الكتب ذهب وعاد مرات عديدة ، وان بعضها لم يأت مرة أخرى ، قال بعض المسنين : « هذه كتب سحر ، ولكل انسان نوع من الجن يختلف عن الباقين ، والأميركان يجربون كتاباً بعد كتاب ، فإذا تمكنوا قضوا على حران وأهلها ! » وفي بعض المرات تجرأ الرجال والتقطوا بعض هذه الكتب ، قلّبوها لكن لم يفهموا شيئاً أبداً . قال ابن نفاع ذات مرة ، بعد أن اشتدت الحمى على ابنه

الصغير ، وقد حصل هذا في اليوم التالي لزيارة الأميركيين لبيت السلامي ، وكان جاراً له : « إن الجن دخل بيته » وقد تأكد من ذلك ، إذ وجد ورقة صفراء مقواة تحت مخدة الصغير ، ولم يشف الولد من الحمى إلا بعد أن أحرقت هذه الورقة .

وقال آخرون ان عبده محمد تعلم السحر من الأميركيين ، وفي خلواته الطويلة يمارس السحر ، وهذا ما دعا عدداً من أهل حران لأن يتحولوا الى فرن عبد الله الأبيض ، وربما هم الذين دفعوا الدباسي لأن يفتح لهم فرناً جديداً « لأن الخبز المسحور لا يمكن أن يشفى منه الانسان الى أن يموت » .

الرجال الذين سألوا الأميركيين عن هذه الكتب ، لماذا يحملونها معهم دائماً وأية أشياء مكتوبة فيها ، تلقوا إجابات مختلفة وغير واضحة ، الأمر الذي زاد لديهم الشكوك والمخاوف . كان كل واحد من الأميركيين يجيب اجابة مختلفة عن الآخر ، وكان كل واحد يقول شيئاً يختلف عن المرة السابقة .

قال الأميركيون : « كتب تاريخ » لكن تبين أن في كل مرة يقولون « تاريخ » كانوا يحملون كتباً تختلف عن المرة السابقة . كان بعض هذه الكتب الأسود كأنه الليل ، وفيها الأحمر القاني ، وفيها الأزرق والأخضر ، وكلها مغلفة بجلود قوية تشبه جلود الحجب التي كتبها قبل سنوات الشيخ سالم العتيبي حين زار حران وبقي فيها شهرين ، وقد صنع خلال إقامته لأكثر أولاد حران أنواعاً من الحجب لمقاومة الدود والهرار والخوف ، وغلفها كلها بالجلد . هذه الكتب تشبه تلك الحجب ، ولا بد أن يكون هؤلاء الأميركيون قد حملوها من سحرة كفار ، ولا بد أن يصيب شرها الجميع في يوم من الأيام .

وفي أوقات أخرى ، حين سئلوا عن أسماء الكتب التي يحملونها وعما فيها ، ذكروا أشياء غير « التاريخ » قالوا : « الجغرافيا » ثم عادوا وذكروا أنها تبحث في تكوين الصحارى والرياح وطرق القوافل . ثم في وقت لاحق قالوا إن هذه الكتب تبحث في الآثار ، وسألوا باهتمام عن بعض المواقع ، وما إذا كان أحد من أهل حران قد زارها ويمكن أن يدلهم عليها .

هذه الكتب وهذه الأسئلة بمقدار ما تثير الاستغراب والتعجب تثير المخاوف أيضاً . ماذا يريد هؤلاء العفاريت ولأي غرض جاءوا ؟ واذا كانوا قد قالوا انهم

جاءوا من أجل مساعدة الناس وتأمين المياه ، وأن الذهب تحت هذه الرمال ، وسوف يقومون باخراجه لكي يوزعوه على الناس ، فما علاقة هذا كله بالكتب التي يحملونها ؟ ما علاقته بالأسئلة التي يسألونها ؟ وهل الذهب في حران وحدها أم يوجد في الأمكنة الأخرى ايضاً ؟ وفي تلك الأماكن ، إذا كان الذهب موجوداً وذهبوا لاخراجه ، فما عسى أن يدفع هؤلاء للبحث عن اولاء والذهاب الى هناك ؟

أسئلة كثيرة من هذا النوع بدأت تتردد بين الناس ، وكانت ترافقها أسئلة أخرى يطرحها الذين لم يلتقوا مباشرة بالأميركيين ، بل وأخذ أهل حران يسألون الآخرين الذين جاءوا من عجرة ، من روضة المشتى ، أو من الأماكن الأخرى ما إذا كان الأميركيون قد وصلوا الى هناك وأية كتب يحملون وهل هي كتب سحر أم كتب كفر ؟

ذات يوم جاء مع الذين تعودوا المجيء أميركي بلحية حمراء كبيرة كأنها مخلاة ، وكان يغلب على هذه اللحية اللمعان والكثافة ، بحيث أن أهل حران لم يروا لحية مثلها . كان يحمل كتاباً كبيراً . وما كاد يجلس في مضافة ابن الراشد ، وكان ابن نفاع موجوداً . وبعد مجموعة من الأسئلة حول الرياح والرمال والمسافات ، بدأ هذا الرجل يطرح اسئلة غريبة . سأل ما اذا كان أهل حران يمارسون انواعاً من السحر ، وهل لديهم معتقدات أخرى غير الاسلام ، وهل سمعوا عن جماعات في أماكن قريبة يعبدون الشجر والرياح والشمس أو غير ذلك . فوجىء الرجال بهذه الأسئلة ونظر بعضهم في وجوه بعض . فتح الرجل كتابه الكبير وبدأ يشير الى بعض الصور . تقدم بعض الرجال وأمعنوا النظر فوجدوا أشكالاً غريبة ، رأوا صور أصنام وحيوانات لم يروا مثلها من قبل ففزعوا ، ارتدت أيديهم عن الكتاب وصمتوا .

ومن جديد بدأ الرجل يسأل وأحد الأميركيين يترجم . فلما وجدهم صامتين قال المترجم ان « زميله يبحث في معتقدات الشعوب وتطور الأديان » ويريد أن يعرف أية معتقدات سائدة .

خرج ابن نفاع منفعلاً غاضباً وهو يصرخ :

- الآن تأكدنا انهم كفار ، كلهم كفار ، وكافر كل من يجلس معهم .

أثناء زيارة أهل حران للأمير كان ابن نفاع هائجاً شديد الغضب . قال ان الأميركان جاءوا ليحولوا الناس عن دين الاسلام ، وانهم يمارسون السحر ، فاذا

تركوا فلا بد أن يخربوا حران ، ولا بد أن تقع مصائب كثيرة . والأمير الذي استمع باهتمام لما قاله ابن نفاع وغيره ، هز رأسه عدة مرات ، لكن لم تفهم هذه الهزات على وجه محدد ، ولم يتكلم الا كلمات عامة غامضة ! وحين استأذن أهل حران اذن لهم الأمير واستبقى الدباسي ، ولا يعرف ما دار بين الاثنين ، لكن الأميركيين بعد ذلك تغيروا ، أصبحت زياراتهم لحران العرب أقل ، ولم يعودوا لحمل الكتب ، وإن ظلوا يحملون معهم الأوراق الملونة ويكتبون ما يسمعون ، أما الأسئلة التي يوجهونها الى الناس فقد أصبحت أكثر بعداً عن الدين والسحر . وفي وقت لاحق كفوا عن الكتابة ، بدأوا يحملون معهم صناديق سوداء ، وحالما يبدأون الحديث يضغطون على هذه الصناديق ، وقد قال ابن نفاع ، لما وصله خبر هذه الصناديق « إن العفاريت داخلها ولا بد أن تخرج منها وتستقر في البيوت على شكل قطط أو حيات وربما بأشكال اخرى ، وطلب من الناس أن لا يدخلوا هذه الصناديق الى بيوتهم ، فاذا لم يستطيعوا منع ذلك عليهم أن لا يتكلموا أمامها ، لأن العفاريت بمجرد أن تسمع الأصوات تتابع أصحابها حتى لو وصلوا الى أبعد مكان ، ويمكن أن تتبعهم حتى لو عبروا البحر الى مصر » .

واذا كانت زيارات الأميركيين الى حران العرب قد قلّت في هذه الفترة فقد بدأت زيارات ابن الراشد وصالح الدباسي والسلامي وغيرهم تزداد الى معسكر الأميركيين ، وقال بعض العمال انهم شاهدوا ابن الزيان ذات ليلة عائداً من معسكر الأميركيين !

الخيام السبع التي نصبها ابن الراشد في الأيام الأولى ، وسكن فيها العمال طيلة ستة شهور ، ظلت في مكانها ، بعد ان اصبحت محطة لاستقبال العمال الجدد . أما العمال الذين كانوا فيها فقد بنيت لهم قرب معسكر الاميركيين ،وراء الأسلاك الشائكة ، المدينة الجديدة ، بعد أن زاد عددهم وحتمت طبيعة العمل ان يكونوا في مكان اقرب الى المعسكر ، خاصة أثناء تعميق البحر وبناء الميناء .

المدينة الجديدة ، الواقعة بين حران العرب وحران الأميركان ، قريباً من التلال وفي مواجهة البحر ، بدأت بثلاثة بركسات كبيرة بنيت على عجل من الخشب والصفيح . أما الارض فقد فرشت بالاسمنت ، واكد دحام ونعيم وهما يشرفان على انتقال العمال وتوزيعهم على البركسات « إنها مؤقتة ، وبعد فترة سوف تبنى للعرب بيوت مثل بيوت الأميركان » .

انتقل العمال الى البركسات بعواطف متباينة اشد التباين ، اذ نتيجة خصومات عديدة وقعت بسبب الخلاف على جلب الماء من الآبار ، أو تنظيف الأرض تحت الخيام ، إضافة الى الضجة التي كان يحدثها لاعبو الورق ، والتي كانت تمنع الكثيرين من النوم ، لقرب الخيام بعضها من بعض ، فقد رأى بعض العمال وان

البركسات مكان نظيف والماء على بعد خطوتين والبركس غير الخيمة . اما آخرون فقد رأوا ان مجرد الانتقال من الخيمة ، من هذا القبر ، وبعدها لو عاش الانسان في الفلاة ، تحت السماء ، يمكن ان ينقذهم من حالة الضيق التي بدأت تسيطر عليهم وتجعلهم متوتري الأعصاب سريعي الغضب . كانوا بحاجة الى تغيير ، ولا يهم بعد ذلك الى اين . ورأى غيرهم ان المكان الذي اختاره الأميركيون وبنوا فيه البركسات هو أسوأ الأمكنة تماماً ، « لأن الانسان لا يعرف هل هو في الجنة أو في النار ، هل هو مع جماعته وبين أهله ام مقطوع في الفلاة » . إذ رغم الضيق الذي يعاني منه الجميع فان العودة كل غروب الى حران العرب ، والمرور بين البيوت والدكاكين ، والحديث مع الناس ، ورؤية الأطفال والكلاب والحمير والجمال ، من شأن ذلك التخفيف من العذاب والصمت اللذين يسيطران طيلة ثماني ساعات في معسكر العفاريت . ليس هذا كل شيء « ان رؤية عبده محمد وهو يتمشى على شاطىء البحر ويدندن بتلك الألحان ويذكر أسماء الحبايب يفك المعدوم من المشنقة ! » كما كان يقول عبد الله الزامل . أما اذا جلسوا مع ابن نفاع وسألهم ، وهو يتطلع الى وجوههم بتحديد ، ما اذا رأوا ذلك اليوم الأمريكيين يسحرون وأي شيء فعلوا ، وهو بعد السؤال وأثناء الاجابة يردد : « أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ، اعوذ بالله من الشيطان الرجيم ، أعوذ بالله من الشيطان الرجيم » فاذا قالوا شيئاً لم يعجبه انتفض ، اقترب من محدثه ، تطلع اليه بامعان ، ثم عاد من جديد بلهجة اكثر انفعالاً وسرعة : اعوذ بالله ، اعوذ بالله من الشيطان الرجيم .

ان رؤية عبده او الجلوس قليلاً مع ابن نفاع ، ثم سماع أخبار الدنيا من هؤلاء الذين قدموا حديثاً من عجرة أو من امكنة اخرى ، ان هذا يعادل ، بنظر الكثيرين ، ملكوت الأميركيين كله ، خاصة وان هذا المكان المعزول ، وحوله الأسلاك ، يجعل الانسان يحس أنه في سجن حقيقي . لماذا يضعون الأسلاك الشائكة حولهم ؟ ولماذا يريدونهم ان يدخلوا ويخرجوا من تلك البوابة بالذات ، وبعد ان يبرزوا البطاقة الصفراء ، وكأنها الشيء الوحيد الذي يدلل على وجود الانسان ؟

هكذا كانت عواطف ومواقف العمال وهم يحملون حاجاتهم القليلة وينتقلون الى « منازلهم » الجديدة ، وابن الراشد الذي لم يظهر خلال الأيام الثلاثة الأولى ،

وربما كان في احدى سفراته ، جاء في اليوم الرابع ، وبعد أن تفقد البركسات وامتدح نظافتها وحكمة توزيع العمال فيها ، قال وهو يقف وسط مجموعة من العمال :

- منازل عامرة ودايمة .

هز رأسه وهو يضحك ثم اضاف :

الله يجزيه ابن مرعل . . اكيد ما ذبح . . .

وبعد قليل تابع بلهجة فيها بقايا الضحكة :

- مثل عادته : لا طبخ ولا نفخ

وتلمس احد الجدران بيده ، ودق عليه ليختبره ، ثم أمسك باب البركس ، فتحه واغلقه اكثر من مرة ، فلما تأكد قال يواصل حديثاً :

- اذا قصرّنا معكم هذه المرة ، يا شباب ، إن شاء الله نعوضكم مرات ومرات .

المدينة الجديدة التي بدأت بثلاثة بركسات ، وتضم ثلاثة وخمسين عاملاً ، وكانت مصدر فرح لبعض العمال ، ومصدر ضيق لآخرين ، وربما نوعاً من انواع التعبير بالنسبة للاكثرية ، اخذت تتسع وتكبر . فبعد اقل من شهر بني بركس جديد ، وما كادت السنة تنقضي حتى اصبح عدد البركسات سبعة عشر واحداً . والبركس الذي كان يضم حوالى خمسة عشر رجلاً في بداية الأمر ، أصبح يضمّ في فترة لاحقة بين العشرين والخمسة والعشرين . أما الذين فرحوا بالانتقال فقد شعروا بالخيبة ، لأن الهواء الذي كان يلعب بالخيام ، والذي يصبح عذباً رقيقاً في الليل المتأخر ، وعند الفجر ، لم يعد له وجود في هذه العلب التي تصبح كأنها الأفران الخانقة ، حيث تعبق بالحرارة ورائحة العرق والنوم . أما الجدران الخشبية البيضاء فقد تحولت خلال اسابيع قليلة الى الوان لا يمكن تمييزها ، بعد ان اختلطت وتداخلت بسبب الدخان والأيدي المعروقة والغبار ، وأشياء أخرى . واقسى شيء واجه العمال وسبب لهم ضيقاً لا يمكن مقاومته : سقوف الصفيح . لقد أصبحت هذه السقوف هي العدو الحقيقي ، لأنها لم تكن تمطر حرارة فقط ، كانت تصبّ موتاً رمادياً مصهوراً ومستمراً منذ ساعات النهار الأولى وحتى أواخر الليل ، وكانت أشد قسوة واكثر عداء من وجوه الكثيرين من الأميركيين وتصرفاتهم ، وحتى فترة متأخرة كان العمال

لا يكتفون بالنظرات الحاقدة التي يوجهونها الى هذه السقوف ، كانوا يبصقون الى أعلى لعل بصاقهم يصلها ، وكثيرون كانوا يقذفونها بالأحذية أو أية اشياء تصل الى أيديهم . كانت حفلة الأحذية تقع أكثر من مرة في الأسبوع ، وكانت تجري في البركسات كلها ، اذ ما تكاد العملية تبدأ في واحد منها حتى تباريه البركسات الأخرى ، وخلال دقائق قليلة تنتشر الأحذية على الأسرة او بينها ، بعد أن تكون قد تعبت في رحلتها بين الأيدي والسقوف ، وقد تنتقل بين البركسات عبر النوافذ او من المشاركين في الخارج .

وكل شيء كان في السابق مصدراً للازعاج او الخصومات اخذ شكلاً معاكساً تماماً ، فالذين كانوا يشكون من لاعبي الورق ، ويتعاركون معهم في أواخر الليل ، حين كانوا في الخيام ، لأنهم مصدر صراخ وازعاج يمنع النوم ، اصبحوا في وقت من الأوقات ينامون بين لاعبي الورق وعلى أصواتهم ! وحين يخرج هؤلاء اللاعبون الى الهواء الطلق ، كان الآخرون لا يترددون في ان يفرشوا الى جوارهم ، لكي يواصلوا النوم بعد ان تعذر عليهم في الداخل .

أما الذين كانوا يتعاركون من أجل تنظيف الأرض فقد اكتشفوا في البركسات انهم اكثر استعداداً للمعارك والخصومات ، رغم أن ثمة من يقوم بتنظيف البركسات ، بعد ان أعفي العمال من هذا الواجب .

ويمكن ان يقال الشيء ذاته عن المياه ، وعن ساعات النوم واليقظة ، وعمن ينام في هذه الناحية وعمن ينام في تلك .

لكل امر وكل شيء سبب كافٍ لوقوع خصومات لا نهاية لها ، وقد احس الكثيرون ، لكن بشكل غامض ، ان الخلافات التي تقع ، والشتائم التي تتردد ليست دائماً نتيجة اخطاء أو سوء نية ، كما أنها ابعد من الكلمات التي تقال ، خاصة وإن الضيق والحنين ، وأشياء ، ملعونة اخرى تظل في الصدر وتمزقه قبل الخصومات والشتائم وبعدها . ولولا التعب الذي يهدّ الأجساد ويساعد على فض الخصومات ويدفع الرجال الى الغرق في النوم ، لحصلت امور كثيرة . ومع ذلك فان يوماً واحداً لم ينقض دون وقوع مشاكل . صحيح ان رغبة خفية كانت اقوى من الارادة هي التي تحكم تصرفات الرجال وعلاقاتهم فيما بينهم ، وكانت هذه الرغبة تتمثل في

التحدي وفي عمل شيء غير عادي . ورغم الندم ، وتلك الايمان التي تخرج دون رغبة ، والقرارات الحازمة التي تصدر عن الرجال ان لا يتعاركوا ، ان لا يتعاملوا ، فقد كانت الخصومات تتكرر ، والحوادث لا تتوقف يوماً واحداً .

وكان الضيق اقوى ما يكون حين يُنقل العمال نظراتهم من جهة الى اخرى ، فيرون في جهة الشرق حران الاميركان : مضيئة ، لامعة ، ضاحكة ، وبدأت تكتسي بالخضرة ، ويسمعون عن بعد أصوات الأميركيين وهم يصخبون في البرك ، وهم يضجون بالغناء او المرح ، وفي بعض الليالي يطلقون الأسهم النارية الملونة فتملأ السماء ، خاصة اثناء استقبال مجموعات جديدة . فاذا نظروا الى جهة الغرب ورأوا بيوت اهل حران وقد انبعث منها الدخان عند الغروب ، وامتلأت بأصوات البشر والحيوانات ، وأخيراً اذا نظروا الى البركسات التي يعيشون فيها ، والى هذه الحياة الجافة القاسية المعزولة ، فعندئذ تدفق الذكريات ويرحم قلوبهم الحنين ، ويجدون أسباباً لا حصر لها للخصومة والحزن ، وبعض الأحيان للبكاء .

اما تلك السهرات التي كان يقيمها العمال ، ويتخللها الغناء والنكات وبعض المفاجآت ، من أجل أن يخففوا عن انفسهم ، فقد كانت تنتهي ، اغلب الأحيان ، بجروح جديدة . فالأغاني بدل ان تفرح الرجال تغرقهم في حالة من الكآبة الشديدة . والنكات التي يضحكون لها بصخب حين تروى ، لا تلبث ان تصبح عادية جداً بعد ذلك . وكثيراً ما يستغربون انهم ضحكوا بسببها ! أما المفاجآت التي كان يدبرها البعض ، وبدل أن تدخل السرور وتغير الجو ، فكانت تؤدي الى معارك جديدة في الغالب ، خاصة اذا لم يتم اختيار « الضحايا » بدقة وعناية كبيرتين .

صويلح « مغني الحي » كما أطلق عليه ابن الزامل ، ولم يعترض هو على ذلك . والذي فتن الجميع في عرس الدباسي لم يتغير ، وصوته لم يضعف ، لكن ما عاد يخلق في النفوس الزهو والتألق اللذين خلقهما في الرجال تلك الليلة ، رغم أنه في كل مرة يغني يصل انفعاله الى درجة البكاء والتحطيم .

في إحدى الليالي ، أوائل الصيف ، قال ابن الزامل بصوت يهدر بالغضب :

ـ يا جماعة . . اذا سكتنا متنا مثل ما يموت فأر السجن ، وما دام الموت هو الأول والأخير فالموت عند الأهل اخير من الموت بين العفاريت الزرق . .

توقف قليلاً وسأل :

ـ اذا غرّبت من يغرب معي ؟

نظر في الوجوه بتساؤل اقرب الى التوسل . كان يريد صوتاً ، موافقة ، فلما وجد الرجال صامتين حائرين ، قال كأنه يكلم نفسه :

ـ باكر تندمون ، لكن ما تنفع الندامة .

ولم يثنه عن السفر الا الوعد الذي قطعه ابن الراشد على نفسه بأن يجد طريقة لكي « يدبر السقوف ويمنع الموت النازل منها » .

وبوسائل هي بين الارهاب والاغراء ، مع الكثير من الوعود ، وُضع عدد من رجال الأمير بين العمال ، وسموا «مراقبين» ووضعت ألواح خشبية بين العوارض والسقف ، كما وضعت طبقة من التراب فوق الألواح . وفي البركسات الأربعة القديمة ، ومن الجهة الجنوبية ، فتحت نوافذ اضافية ، وقد قال ابن الراشد ، لما تقرر فتح هذه النوافذ ، « ان الهواء سيلعب مثل الخيّال في هذه المنازل الفسيحة » ! أما البركسات الجديدة فقد تولت الشركة مباشرة بناءها ، ولم تعط لابن الراشد ، كما حصل بالنسبة للأربعة الأولى . كانت البركسات الجديدة اصغر ، وقد بنيت من مواد عديدة : من الإسمنت والتراب والحجر ، فكانت اقل حرارة ، وبدأت معارك من نوع آخر : من يسكن في البركسات الجديدة ومن يبقى في القديمة ؟

وإذا كان العمال الأوائل قد اكتسبوا قوة نظراً للقدم ثم للقرابات التي تجمع الكثيرين منهم ، فقد بدأ الأميركان يضعون مقاييس جديدة في تصنيف العمال ، فأولئك الذين يظهرون اكثر وعياً من غيرهم ، أو أكثر قدرة على فرض ارادتهم ، وكانوا يتكلمون ويطالبون ، بدأت النظرة اليهم تتسم بالخشونة والعداء . أما الذين يبدون مسالمين وأقرب الى الرخاوة ، فاصبحت توجه اليهم عناية خاصة ، فعبدالله الزامل مثلاً ، الذي لا يدخل لسانه الى حلقه ، بالمزاح والتعليقات ، ثم تلك المشكلة التي خلقها في السكن ، لم يطل انتظاره حتى أرسل الى المركز رقم ٤ . كان العمل في ذلك المركز ، بالاضافة الى بعده ، بحيث لا يرجع العمال من هناك الا مرة كل ثلاثة أيام ، يتصف بالخشونة والقسوة . وقد وافق ابن الزامل على العمل في ذلك المركز مضطراً بعد التهديد الذي وصله من الأمير ، ومع ذلك لم يكن ليخفي رغبته في الهرب ذات يوم ، لكن قبل ان يفعل لا بد ان « يقتل اثنين أو ثلاثة

من الأميركيين ، وابن الراشد . . . وكلهم دحام » . ومزبان الذي ضرب دحام ذات يوم لم تُنس له هذه الاساءة ، فقد اختير هو وأخوه هاجم واثنا عشر رجلاً من العمال الذين جاءوا في الدفعات الاخيرة ، اختيروا بحجة انهم يعرفون السباحة ، لكي يشاركوا في قطع الصخور البحرية من أجل توسيع الميناء . واذا كان الاخوان والعمال الآخرون الذين كانوا معهم لم يعترضوا على هذه المهمة ، بل وبدوا راغبين في مغامرة جديدة ، إلا أن الأحداث الّتي وقعت بعد ذلك جعلت الجميع ينظرون الى الأمر نظرة تختلف عن تفسير ابن الراشد وغيره .

فمزبان وهاجم اللذان لم يتوقفا يوماً واحداً عن محاولات تعليم العمال السباحة ، وكانا يقضيان وقتاً طويلاً في الماء ، حتى اطلق عليهما ابن الزامل اسم « الحيتان » استطاعا بمثابرتهم اقناع الكثيرين الاقتراب من البحر أولاً ، ثم في وقت لاحق النزول الى الماء ، واصبح الكثيرون يخوضون في المياه الضحلة حتى يبلغوا مسافة معينة يكون الماء قد بلغ وسطهم ، وبهدوء وحذر ينزلون أجسامهم فلا تبقى إلا رؤوسهم وحدها عائمة . كانوا يفعلون ذلك بحذر شديد ، ولم يبالغوا في ذلك ، خاصة وان سليمان الجرف كاد يغرق ذات مرة اثناء محاولته تعلم السباحة . كان الإخوان الى جانبه ، وقد ضحكا كثيراً وهما يشاهدانه يصعد ويهبط ويعبّ الماء . كانا يضحكان لأن الماء في المكان الذي يسبح فيه لا يصل الى الصدر ، لكن حينما شاهدا الأمر اكثر خطورة مما قدرا اخرجاه . كان بين الحياة والموت . هذه الحادثة جعلت الكثيرين يترددون في النزول الى الماء فترة طويلة ، ثم جعلتهم شديدي الحذر .

كان اختيار الأخوين يرضي رغبتهما ، لكن يبدو أن المهمة التي كلفا بها مع الآخرين كانت من الخطورة الى درجة جعلت الحادث يقع .

فبعد البدء بتوسيع المنطقة البحرية وتعميقها ، وكانت مقابل معسكر الأميركان ، والرجال يذهبون ويرجعون كل يوم ، وقد اكتسبت أجسامهم هذا اللون المحروق ، فبدوا مختلفين عن العمال الآخرين ، وأخذوا ينقلون أحاديث وقصصاً عن المركب الذي يأخذهم ، وعن الأدوات التي يستعملونها ، ثم عن التفجيرات التي كانت تهز البحر وتجعل الأمواج الهائلة تتلاطم ، ويروون ماذا يأكل الأميركان وكيف يأكلون ، كانت الأحاديث التي ينقلها عمال البحر الى عمال البر تجعل

ليالي حران في هذا الصيف المتأخر أقل قسوة .

يتذكر الكثيرون انه في الليلة التي كان القمر بدراً ، وكان صويلح في حالة من الوجد ، فغنى غناء خافتاً اقرب الى النوح الحزين ، ورفض أن يرفع صوته او أن يغير نبرته ، رغم الالحاح ، ورغم المقاطع الأولى التي حاول العمال اغراءه بها ، يتذكر الكثيرون ان مزبان كان صامتاً وحزيناً ، وانه لم يتكلم الا مرة واحدة طوال السهرة التي امتدت ساعات ، قال « يا جماعة . . والله هالبحر كله ما أبدله بالبير اللي بديرتنا ، والليلة ابن هذيب فتح جروح ما لها تالي » قال هذه الكلمات في لحظة صمت وفي لحظة لوعة ، وما كان الرجال ليتذكروا هذه الكلمات لولا الحادثة التي وقعت .

ففي فجر اليوم التالي ، حيث تعوّد عمال البحر أن يذهبوا قبل غيرهم ، وبعد ان غادر هؤلاء المعسكر وركبوا البحر ، وحين طلب الى ثلاثة من العمال الغوص لكي يثبتوا حبلاً في إحدى الصخور تمهيداً لقلعها ، وكان مزبان واحداً منهم ، في هذه النزلة التي أخذت الثلاثة الى حيث حدد لهم ، وبعد فترة قصيرة عاد الاثنان ولم يعد مزبان . عاد ابراهيم الصقار وسعد الراجح ولم يعد مزبان . ولما مرت دقيقتان او ثلاث دقائق ولم يظهر نزل وراءه عدد من العمال ، لكنهم عادوا ولم يعد .

بعد بحث طويل وجدوا مزبان : كانت رجله في فجوة صخرة ، كانت الفجوة كأنها السوار ، وقد علق هناك ، ويبدو انه ناضل كثيراً من أجل ان يفلت منها ، اذ وجدت جروح في جسده ، لكنه لم يستطع .

كان يوماً صعباً مشؤوماً يوم عادوا بمزبان جثة هامدة . انتشر الخبر بسرعة في المعسكر ، في حران الاميركان وحران العرب .

وبكثير من الحزن والغضب دفن مزبان في ظهيرة اليوم ذاته . لم يبق أحد الا وشارك في الدفن ثم في الحزن ، وظل الكثيرون ، وحتى وقت متأخر ، يتذكرون تلك الضحكة المدوية التي كانت تميّز الحوت الكبير ، كما كان يسميه عبد الله الزامل .

لم يتوقف العمل في تعميق البحر وتوسيع الميناء يوماً واحداً . وهاجم الذي لم يُطلب منه الذهاب الى العمل في اليوم التالي ، ثم في الأيام التي بعده ، ولم يفعل هو ايضاً ، بدا منذ الساعة التي وضع فيها مزبان في القبر واهيل عليه التراب انساناً آخر : زاغت نظراته وارتخى فكاه وبدا غائباً . صحيح انه لم تسقط من عينيه دمعة واحدة ، ولم تخرج من فمه كلمة ، لكنه كان مذهولاً . كان ينظر في الوجوه وكأنه يبحث عن احد . حتى اذا تأكد ان الذي يبحث عنه غير موجود اخذ يبتسم ثم يقهقه ، ويضرب ساقه براحة يده . كان يفعل ذلك دون وعي ودون ارادة . والعمال الذين اشاحوا بانظارهم لكي لا ينظروا اليه في البداية ، ما لبثوا ان اصيبوا بالحزن الشديد ، وشعر بعضهم بالاعياء او ما يشبه الدوار . لم يكن مزبان مجرد واحد من العمال . كان شهماً ومحبوباً ، وكان يتصرف مثل اب او مثل اخ كبير . اطلقوا عليه عدة اسماء . سموه « الجمل » ، وسموه « الحصان » ، أما عبدالله الزامل فقد سماه « الحوت الكبير » ، وكان هذا الاسم الأخير اكثرها انتشاراً وتداولاً . كان يلجأ اليه الكثيرون في ساعات الضيق او عند الحاجة . وهو بمقدار ما يبدو طفلاً كبيراً كان قوياً ، وفي لحظات معينة قاسياً . كان يمسك من يسأله من يده عند الساعد ويجره نحو البحر لكي يسمع منه بانتباه ، حتى اذا عادا عادا مثل أخوين

وبشكل مختلف ايضاً . أما اذا اختلف اثنان فكان مزبان الحكم الذي يفصل ويُقبل بحكمه .

الآن ، بعد ان دفنوه ، بعد ان وضعوه تحت التراب ، صدقوا انه مات وانتهى . فاذا نظروا الى وجه هاجم وهو يتلفت ، وهو ينظر في الوجوه بذهول ويبتسم تلك الابتسامة البلهاء ، عندئذ يتأكدون انهم فقدوا عزيزاً . أما اذا تذكروا كلمات ابن نفاع عند القبر وهو يصرخ « الرجل ما مات ، قتلوه بالسحر قبل ما يقتلوه بالبحر » فانهم يجدون معنى مختلفاً لهذه الكلمات .

لماذا هم كذلك منبوذون ويدفعون الى الموت في كل لحظة ؟ واذا كانوا قد جاءوا من اجل العمل فانهم في هذا المكان يعملون ويُقتلون في وقت واحد . أما الدراهم التي حصلوا عليها فانها لا تعادل يوماً واحداً تحت وطأة هذه السقوف التي تصب فوق رؤوسهم رصاصاً مصهوراً . وكلمات ابن الراشد ؟ ودحام ؟ ونعيم ؟ ووجوه الاميركان القاسية ؟ كان الاميركان في البداية يضحكون ، يربتون على اكتفاهم . في الشهور الأخيرة اصبحوا لا ينظرون اليهم ، فاذا نظروا خرجت من افواههم كلمات لا يمكن ان تكون الا شتائم . هكذا قدروا وكانوا متأكدين من ذلك ، لأن « الشتائم باينة لغة لا تخفى » ، كما يقول ابن الزامل . حتى اطفال حران وهم يقتربون من الاميركان ويرفعون ايديهم بتحية مع كلمة مثل « يا ابن الكلب » ، كان يعرفها الاميركان ، كانوا يرفعون اصابعهم محذرين ، ولم يتردد واحد منهم في ان يضرب طفلاً بقدمه ويوقعه . لقد تغير الاميركان : ليس هذا كل شيء ، اصبحت العلاقة بين الطرفين محدودة وتتم فقط عن طريق « ادارة الافراد » . وادارة الافراد اصبحت تعني نعيم والدباسي الصغير ودحام ، اضافة الى اثنين من رجال الأمير .

عصر اليوم الذي مات فيه مزبان جاء ابن الراشد . كان يبدو اكثر وقاراً من اية مرة سابقة . لبس عباءته السوداء الجديدة ، التي لا يلبسها عادة الا اذا زار الأمير او جاء بزيارة لمعسكر الاميركان . كان يمشي ببطء . رآه الكثيرون وهو يدخل بوابة المعسكر ومعه اثنان من جماعته . ظل العمال في اماكنهم صامتين . كانوا يعرفون انه جاء ليقول كلمتين لهاجم ، ليعزيه ، وفي تلك اللحظات شعروا ان ابن الراشد عدو حقيقي . هو الذي جاء بهم الى هذا المكان وسلمهم كالغنم الى هؤلاء . كانوا حاقدين عليه ويعتبرونه مسؤولاً ليس عن موت مزبان وانما عن قتله .

في ظل احد البركسات ، ناحية الشرق ، كان هاجم ومجموعة من العمال جالسين ، وقبل ان يصل ابن الراشد بمسافة ليست قصيرة تنحنح ، لكن احداً لم يسمع ولم يتطلع نحوه ، حتى اذا اقترب تماماً ، بخطواته القوية الواثقة ، قال من تلك المسافة :

ـ العوض بسلامة الرجال .

تقدم نحوه بعض العمال ، صافحوه ومشوا معه . كان هاجم يتطلع الى الوجوه ، يتلفت في اكثر من ناحية ثم يبتسم . اقترب منه ابن الراشد حتى اذا صار فوقه ، تطلع اليه هاجم وابتسم . قال ابن الراشد :
ـ سلامة راسك يا وليدي ، وعسى تكون نهاية الاحزان .

وهبط فقبّل كتفي هاجم وجلس بجانبه . تطلع اليه هاجم اكثر من مرة وابتسم . تطلع ابن الراشد في وجوه الرجال الصامتين ، هز رأسه وقد ادرك الحالة ، قال ليغير الجو :
ـ الموت مكتوب على ابن آدم من يوم ما الله خلقه ، ومثل ما يولد الانسان لا بد ان يموت ، هذه سنة الحياة ، والانسان لا يعرف في اي مكان يولد وفي اي مكان يموت . ان الله حق والموت حق ، ولا يدوم الا الحيّ القيوم .

كان ابن الراشد يتكلم وحده ، يتكلم لنفسه . بدت كلماته جافة لا تعني شيئاً او احداً ، وحين رأى نظرات الرجال الباردة ، واحس بالصمت يحاصره سأل :
ـ من كان مع المرحوم ؟

لما ذكرت بعض الاسماء ، وتحرك بعض الرجال بطريقة عفوية ، لانهم كانوا مع مزبان ، قال ابن الراشد لاحد الرجال .
ـ تعال . . . تعال يا وليدي ، تقرب ، وسولف لي كيف صارت « القصة » .

ورغم ان ابن الراشد وجميع الرجال قد سمعوا « القصة » عدة مرات ، ورواها عدة اشخاص ، فان الصمت قد خيم والرجل يروي من جديد بتفصيل وارتباك كل شيء ، منذ لحظة مغادرة المعسكر عند الفجر وحتى وقوع الحادثة .

كان الوحيد الذي يسمع القصة ، وكأنها تروى لاول مرة ، هو هاجم . كانت عيناه تحملقان في وجه الرجل . كان يقترب منه ويبتسم ، حتى اذا انتهى ضرب ساقه براحة يده ، وبانفعال رفع رأسه بسرعة واداره في عدة اتجاهات كأنه يبحث عن

احد . امسك به ابن الراشد واجلسه . قال له بصوت حزين :

ـ اصبر يا وليدي ، ولا حول ولا قوة الا بالله . . وانّا اليه راجعون .

لما خيم الصمت مرة اخرى ، وبدا الجو ثقيلاً مشحوناً قال ابن الراشد بارتباك :
ـ دم الرجل لا بدّ يتعوض .

غير جلسته واضاف بلهجة مختلفة :
ـ لا بد انه صار بعلمكم : من مدة العمال كلهم صاروا بذمة الشركة . الشركة هي المسؤولة ، هي اللي تدفع المعاشات ، وتدفع الارزاق . . ومسؤولة عن السكن . . .

قال دحام وقد ظل صامتاً منزوياً :
ـ لازم ادارة الافراد تعوض . . .

كان ابن الراشد بحاجة الى مساعدة ، الى من يقف معه في تلك اللحظة ، وما كاد دحام يقول هذه الكلمات حتى رد ابن الراشد بحزم :
ـ اسمع يا دحام ، انت وابن هذال ، هذا اليوم ، نعم هذا اليوم ، تكتبون معروضاً للشركة وتقولون فيه كل شيء . نعم . . كل شيء الحادث كيف وقع . متى . وتطلبون التعويض ، تسمعني يا دحام ؟

وهز دحام رأسه دلالة الفهم والموافقة . وحين رفع رأسه ليبحث عن ابن هذال من اجل ان يعاونه في هذه المهمة ، التقى بعيني هاجم . كان هاجم يتلفت ، ينظر في الوجوه . وحين التقت عيناه بعيني دحام ابتسم . وابن الراشد الذي مال على هاجم وقبّل كتفيه مرة اخرى قال وهو ينهض :

ـ العوض بسلامة الرجال . وانا الله وانا اليه راجعون . .

وحين غادر رافقه بعض الرجال الى مسافة معينة . أما دحام فقد ذهب معه الى حران العرب !

وحين هبط الظلام في تلك الليلة شعر الرجال بحزن شديد ، ولا يتذكر احد منهم انه رأى القمر الذي كان يملأ السماء .

في أواخر ايام الخريف انشغلت حران ببناء دار الامارة وبيت الأمير . فالى جانب الخيام ، على التل الشمالي الاوسط ، الواقع بين حران العرب وحران الاميركان ، الى الغرب من معسكر الاميركان ، اخذت تتكدس اكوام الحجارة والرمل ، اضافة الى القضبان الحديدية والعوارض والواح الخشب ، وبدأت حركة غير عادية ، بانتظار الشروع بالبناء . وخلال هذه الفترة زار الأمير عدد من الاميركيين ، يرافقهم نعيم ، وعرضوا عليه المخططات والرسوم ، وقد تريث الأمير في اعطاء موافقته لمدة ثلاثة ايام ، ويبدو انه سأل ابن الراشد والدباسي وآخرين حول المكان المقترح للبناء وعدد الغرف ، وعرض امامهم المخططات والرسوم ، لكن اياً منهم لم يميز شيئاً . اكتفوا بان اوصوا ، وبكلمات عامة « ان يكون البناء قوياً مثل بيوت الاميركيين وان يكون واسعاً » . وحين عاد الاميركيون لزيارة الأمير بعد ايام ، ومعهم نعيم ، وعرضت المخططات والرسوم مرة اخرى ، قال الأمير خالد المشاري بصوت خافت وحازم :

ـ خلص وافقنا . . . وعلى بركة الله .

وحين سئل الأمير عن اي المخططات يباشر به ، اجاب :

ـ خلص . . اعطينا موافقتنا . . وتوكلوا على الله .

ولما ارتبك نعيم ولم يستطع ان يقول شيئاً ، وظل ينقّل نظراته بين الامير والاميركيين ، قال الأمير لينهي كل شيء :

ـ قل لهم ان يكثروا الحديد . . . والشبابيك جنوبية .

وافهم نعيم الاميركيين ان الأمير يترك لهم اختيار المخطط المناسب ، وأشار ان تكون النوافذ واسعة وباتجاه الجنوب . وحين سئل الاميركيون عن المدة التي يحتاجها البناء اجابوا انها تتراوح بين شهرين وثلاثة اشهر .

لما بدأت الحفارات تعمل لم يطق الأمير سماع هديرها ، أما حين جاءت القلابات لكي تحمل الاتربة فقد قال للدباسي :

ـ حلّ وعدنا يا ابو صالح . . .

فلما ابتسم الدباسي وهز رأسه واجاب وهو يضع اصبعه بالقرب من عينه :

ـ ببطن عيني يا طويل العمر .

ابتسم الأمير ثم بدأ يقهقه ، والدباسي يشاركه الابتسام ، حتى اذا هدأ قال :

ـ الظاهر انها فاتتك يا ابو صالح . . او نسيت .

وبعد جهد ، وبكثير من المكر والمداورة ، فهم الدباسي ان الوعد الذي يعنيه الأمير : رحلة الصيد ، خاصة وان « هذه البلايا التي جاء بها الاميركان تطوّش الرأس وتعمي العيون ! » واذا كان الدباسي قد ابدى استعداداً وحماسة لمرافقة الأمير في هذه الرحلة ، ووعد ان يصطحب معه بعض الذين يعرفون اماكن الصيد ، فقد استأذن ببضعة ايام ريثما ينتهي من بعض الاشغال الطارئة التي لا تحتمل التأجيل ، فوافق الأمير على ان يتم اختيار المرافقين بعناية .

أما حين عرض الأمير على ابن الراشد ان يرافقه في هذه الرحلة فقد فرك يديه وبدا غير قادر على الرفض او الموافقة ، وظل صامتاً ، فلما استفسر منه قال وهو يضحك :

ـ يا طويل العمر المربى قتال .

وفهم الأمير انه يريد البقاء في حران ، فقال ساخراً :

ـ لا تخف يا ابن الراشد ، حران بمكانها ، وما نرجع الا وتكون ازين .

هز ابن الراشد رأسه ورفع يديه الاثنتين ورد :

ـ حران لاهل حران ، للدباسي وغيره ، وانت ، يا طويل العمر ، تعرف ان اللي ما يصل اهله ما يجيه ولد ، وابن الراشد حنّ للولد .

كان يمكن لابن الراشد ان يذكر الأمير ذاته ، وكيف انه اصطحب معه اهله ، وانه لا يستطيع ان يعيش بدونهم ، لكنه فضّل ان يذكر الدباسي ، وان يشير بصورة او اخرى الى زواجه من حرانية ، وبعد وصوله ببضعة ايام فقط ، قال الأمير خالد مداعباً :

ـ الحق عليك ، يا ابن الراشد . . . والفلوس نعمي .
ـ اخطأنا يا طويل العمر . . . والفلوس راحت ببطون الناس .
ـ اذا رجعنا ولقيناك بهذه الديرة ، مثل ما انت ، زگرتي ، زوجناك او رحلناك .
ـ القول قولك يا طويل العمر .

وخلال بضعة ايام تهيأت رحلة الأمير ، وصحبه في هذه الرحلة عدد من رجاله ، بالاضافة الى الدباسي واثنين من اهل حران ، احدهما رجل مسن لا يكاد يتكلم ، والثاني اقرب الى سن الشباب ، لكن يبدو من هيئته انه كثير الاسفار ، وكان سريع الحركة ، ذكياً ، والابتسامة لا تفارق شفتيه .

كانت وصية الأمير خالد لنائبه ان يراقب بنفسه البناء ، وان يشرف على كل مراحله ، واكد من جديد ان تكون الشبابيك جنوبية وواسعة ، كما اشار الى انه لن يغيب فترة طويلة ، لكنه لا يعرف ايضاً متى سيعود لان « كل شيء يعتمد على القنص . يجوز نرجع بعد كم يوم ، ويجوز نبطي » واضاف بلهجة أبوية ، « البركة فيكم ، واعتمادنا على الله وعليكم » .

وتأخر ابن الراشد في حران ، بعد سفر الأمير خالد ، ثلاثة اسابيع . كان عليه ان يؤمن جميع كميات الحجارة والرمل لدار الامارة وبيت الأمير ، اضافة الى تأمين اليد العاملة ، وكان عليه ان يتفق مع الاميركيين حول تأمين المواد لمطعم العمال ، خاصة وان التنافس بينه وبين صالح الدباسي قد تطور الى ما يشبه التحدي الاقرب الى الخصومة المكشوفة . كانت هذه الاعمال ، بالاضافة الى قرار غامض وقلق ، ولم يحسم بعد ، حول بناء بيت في حران . . هل يشرع فيه الآن ام يرجئه الى وقت لاحق .

كانت هذه هي الاسباب الظاهرة في تأخر ابن الراشد ، اضافة لسبب آخر لا يعرفه سواه ودحام : كان عليه ان يتخلص من هاجم . اذ بعد المعروض الذي قُدّم في

الاسبوع الثالث لوفاة مزبان ، وقد وضع ابن الراشد كل « عبقريته » في صياغة هذا المعروض ، اذ عدله وأضاف اليه عدة مرات ، وقرر اخيراً ان يكتبه فواز الهذال لان « خطه على السطر ، مثل السيف ، وكلماته واضحة وقوية ، عكس دحام اللي يكتب بالميل ، وكلماته واحدة كبيرة وواحدة صغّيرة » . ملأ ابن الراشد المعروض بكلمات الاستعطاف التي كان يحفظها ويتذكرها ، وقد قضى وقتاً حتى رتبها بشكل يرضى عنه .

قُدّم المعروض الى « ادارة الافراد » ، وعن طريقها رفع الى المقر العام ، ومن المقر العام احيل الى اللجنة القانونية ، لتقرر ما اذا كان ابن الراشد هو المسؤول عن التعويض ، باعتبار ان اجراءات المصادقة على انتقال العمال الى مسؤولية الشركة لم تتم الا بعد عشرة ايام من الحادث . وقد زاد في تعقيد الموضوع ايضاً الحالة التي وصل اليها هاجم ، اذ لم تفارقه الهواجس وظل غارقاً في حالة من الذهول ، الأمر الذي ادى الى صرفه من العمل ، بعد احالات عديدة على اطباء كان واحد منهم هندياً ، ويبدو ان هذا الطبيب كان له رأي يختلف عن الطبيبين الآخرين . وقد ادى الخلاف الى تأخير صدور التقرير اولاً ثم تأخير قرار الصرف من الخدمة بعد ذلك ؛ وترافق هذا مع مداخلات واشاعات كثيرة ساهم بتغذيتها ، كما يؤكد ابن الراشد ، صالح الدباسي ، بهدف « اضعافه امام الاميركان وتحريض العمال ضده » .

كان ابن الراشد يريد حسم هذه القضية قبل ان يتحرك ، خاصة وان الأمير بدا غير متحمس للتدخل ، وحين طلب منه ابن الراشد ذلك رد : « البشر برقبتنا يا ابن الراشد ، والاحسن ان تشوف جماعتك ، وارضوا الناس بقريشات وخلصونا من الطلايب » . ولذلك قدر ابن الراشد انه اذا لم تنته القضية الآن فلا بد ان تتطور وتجر ذيولاً كثيرة ، خاصة وان الدباسي مع الأمير الآن في هذه الرحلة ، « وما عنده سالفة الا ابن الراشد . ابن الراشد فعله ، ابن الراشد تركه ، وكلمة وراء كلمة ، في الليل والنهار ، والأمير مثل الحريمة والولد الصغير لا بد يسمع ويصدق ، وعندها نكون بشغلة نصير بشغلة ثانية » .

المحاولات التي بذلها ابن الراشد مع الاميركيين ، من اجل انهاء القضية باسرع وقت ، اصطدمت بالاجراءات القانونية والطبية ؛ لان النظام هو النظام ، وهو فوق الافراد واقوى من ارادتهم او رغبتهم !» أما محاولاته غير المباشرة ، مع هاجم فقد